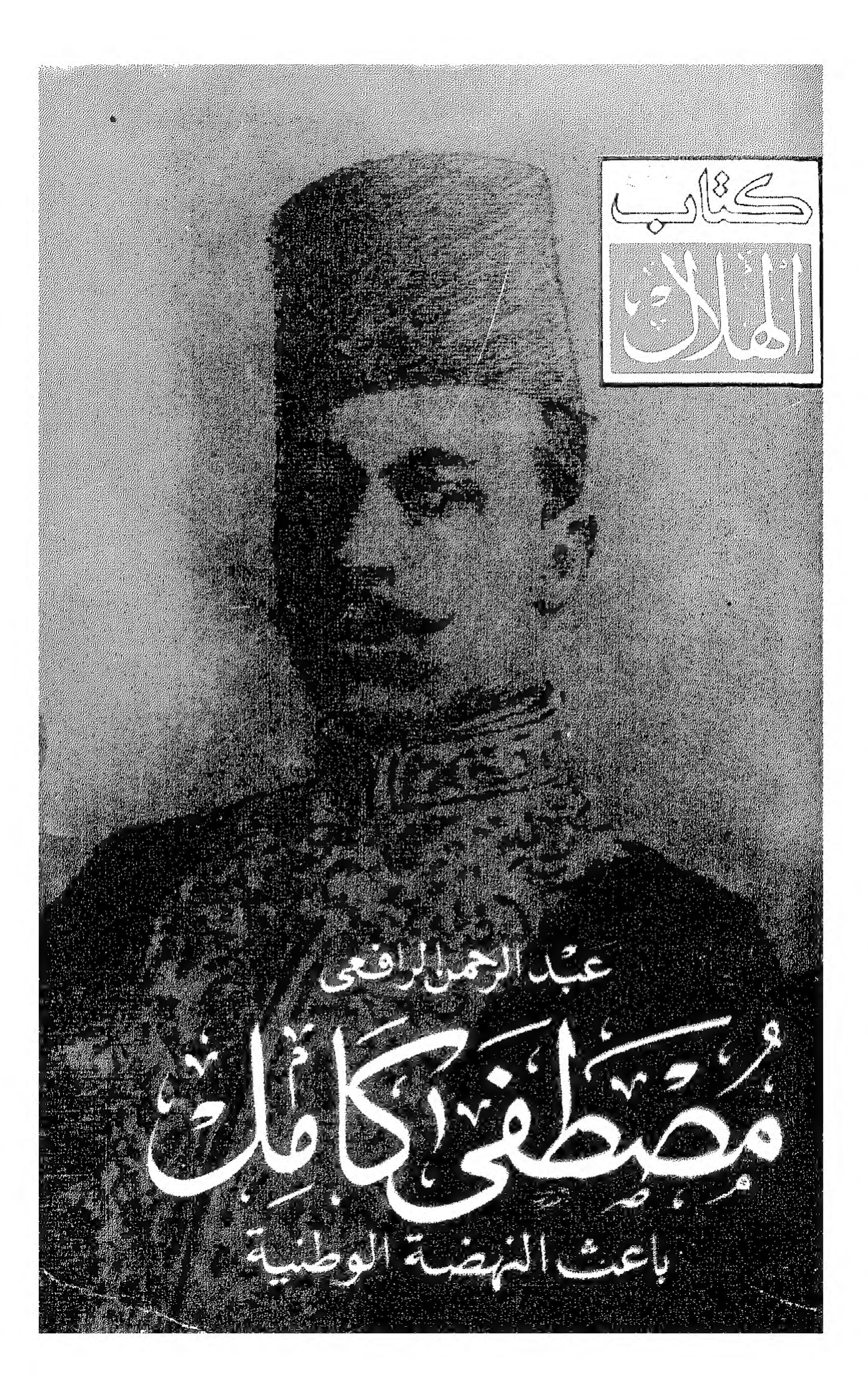

كتاب
الهلال
عبد الرحمن الرافعي
مصطفى كامل
باعث النهضة الوطنية



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

مدير التحرير : عايد عياد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٤٧٠ - رجب ١٤١٠ - فبراير ١٩٩٠

KITAB AL-HILAL

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٢٥٠ قرش :

لبنان : ٧٠٠ ليرة ، الاردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ٢٥٠٠ فلس ، السعودية : ٧ ريالات ، البحرين : ١٢٠٠ فلس ، الدوحة : ٨ ريالات ، دبى : ٨ دراهم ، ابوظبى : ٨ دراهم ، مسقط : ٨٠٠ بيسة ، تونس : ١٦٥٠ مليما ، المغرب : ٢٠ درهما ، غزة والضفة : ١٢٥ سنتا ، الجمهورية العربية اليمنية : ٨ ريالات ، جمهورية اليمن الديمقراطية : ٢ دولار ، ايطاليا : ٣٠٠٠ ليرة ، لندن : ١٫٥٠ جك .

الغلاف بريشة الفنان :
محمد أبو طالب

راجع هذا الكتاب

المستشار حلمى السباعى شاهين
نائب رئيس هيئة قضايا الدولة السابق

الطبعة الثانية
١٩٩٠ - ١٤١٠

مصطفى كامل

باعث النهضة الوطنية

بقلم

المؤرخ الكبير

عبد الرحمن الرافعى

●

دار الهلال

مقدمة الطبعة الثانية

فى سنة ١٩٥٢ اخرجت دار الهلال الطبعة الأولى من هذا الكتاب مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية وهاهى الدار مشكورة تخرج طبعته الثانية مطابقة للأولى . والكتاب تلخيص للكتاب المطول - مصطفى كامل - الذى نشره المغفور له والدنا طبعته الأولى سنة ١٩٣٩ والله ولى التوفيق .

كريمات المؤلف

فبراير سنة ١٩٩٠ عبد الرحمن الرافعى

تقديم

بقلم : المستشار حلمى السباعى شاهين

بفضل جهد المسئولين وأبناء دار الهلال يظهر الكتاب المختصر لاستاذنا المغفور له المؤرخ الوطنى الكبير عبد الرحمن الرافعى ، وكانت طبعة الدار الأولى سنة ١٩٥٢ . وقد رأى الرافعى أن ينشر هذا الملخص حتى يعم نفعه على جميع طبقات الأمة ومن يريد التوسع والبحث عليه أن يرجع الى الكتاب المطول وطبعته الأولى ظهرت سنة ١٩٣٩ والطبعة الأخيرة ظهرت سنة ١٩٨٤ .

ونهج علمى وطبقا لأصول التاريخ وفى الدول المتقدمة يخرج الرافعى الكتاب معنونا ـ مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية ويربطه بتاريخ مصر القومى وأحداث مصر وشخصياتها فى سنوات كفاح الزعيم الوطنى مصطفى كامل فى الفترة من سنة ١٨٩٢ بعد مرور عشر سنوات على الاحتلال الانجليزى فى مصر الذى وقع سنة ١٨٨٢ .

وقد أخرج الرافعى عن تلك الفترة كتابه مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال - وينتهى الكتاب فى سنة ١٩٠٨ أى حتى تاريخ وفاة زعيم مصر وشهيدها مصطفى كامل ، ويجمع فصول الكتاب نشأة الزعيم . ومراحل كفاحه وجهاده . والحديث عن حادثة دنشواى ومواقف مصطفى كامل نحوها . ثم تطور الحركة الوطنية وتأسيس الحزب الوطنى سنة ١٩٠٧ . ثم تكلم الرافعى عن زملاء مصطفى كامل والمعاصرين له فى رسالته . والحديث عن شخصيته .

فبراير سنة ١٩٩٠ المستشار/ حلمى السباعى شاهين



عبد الرحمن الرافعى

ولد فى ٨ من فبراير ١٨٨٩ - وتوفى فى ٣ من ديسمبر ١٩٦٦

مقدمة

فى سنة ١٩٣٩ أخرجت كتابا عن « مصطفى كامل : باعث الحركة الوطنية » يتضمن الى جانب تاريخ الزعيم عرضا لتاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٩٠٨ ، وقد جاء الكتاب فيما أظن مطولا من الناحيتين ، وكنت أرجو منذ ظهوره أن تتاح لى الفرصة لكى أخرج كتابا موجزا فى تاريخ الزعيم .. فلعل الايجاز يكون أدعى الى تعميم تاريخه ، ونشره وتيسيره ، ويكون فى الوقت نفسه لافتا الأنظار الى تاريخه المفصل ، لمن يريد الاسهاب والتوسع

وقد صرفنى عن تنفيذ هذه الرغبة انى شغلت طيلة هذه المدة بتأريخ المراحل الاخرى من تاريخ مصر القومى الحديث ، فما أن تمت بعون الله هذه المجموعة بظهور الجزء الثالث من كتاب « فى أعقاب الثورة المصرية » حتى عاودتنى رغبتى الاولى ، وفيما أنا بصدد التفكير فى تنفيذها ، تفضلت دار الهلال فطلبت منى أن أجعل من تاريخ مصطفى كامل حلقة من سلسلة « كتاب الهلال » فلبيت الطلب شاكرا ، مغتبطا لهذا التوافق فى الفكرة ، والتوارد فى الخواطر

وهأنذا أقدم هذا الكتاب الوجيز فى تاريخ « زعيم الجلاء » ، راجيا أن يكون فيه تعميم لسيرته العطرة ، على أن لا يغنى فيه ايجاز عن تفصيل ، وأن لا يحجب الفرع أصله

من أراد أن يعرف فضـــل مصطفى كامل على الحـركة الوطنية ، ويستخلص من تاريخه صورة عامة لشخصيته . فليرجع ببصره الى العصر الذى ظهر فيه ، فلقد ظهر سـنة ١٨٩٠ ، على حين فترة من الحـركة الوطنيـة ، وهجعة من الكفاح القومي ، وانحلال في الروح المعنوية ، ظهر والنفوس قد استحوذ عليها اليأس والقنوط على أثر اخفـاق الثـورة العرابية واحتـــلال انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ ، ظهر حين خيم على البـــلاد جو من الخضـــوع والاستسلام ، بقى مضروبا عليها نحو عشر سنوات ، فنهض يدعو الى الحرية والاســـتقلال ، في وقت تحـــالفت فيه عوامـل اليأس ، وتضافرت أسباب الجمود والضعف ٠٠ دعا دعوته ، فبدت غريبة عن الأذهان ، بعيدة عن الأفهام ، وتساءل معـاصروه كيف تقـوم حركة وطنية لاســتخلاص الاسـتقلال من يد أقوى الدول نفوذا وأوسعها سلطانا ؟

ولكن وطنية مصطفى كامل كانت أقوى من الجيل الذى ظهر فيه ، وأقـوى من العـوامل المثبطة ، فأخذ يثـابر على دعوته ، ويناضـــل عنها ، حتى اسـتجابت الأمة لندائه ، فكانت نهضة ، وكانت حياة ، وكان شعور ، وكان جهاد ٠٠ كانت رسالته الى مصر كصرخة الحياة الداوية في سـكون النوم العميق ، كانت رسالة الأمل بعد اليأس ، والحياة بعد الخمود ، والكرامة بعد الهوان ، والجهاد للحرية والاستقلال ، بعد الاستسلام للاحتلال والاسـتعباد ٠ واذا كانت الدعوة الوطنية التى دعا اليها وناضـل من أجلها قد صارت بعد ثمـانية عشر عاما من جهاده طبيعية محببة الى النفـوس ، فان الطريق اليها كان شـــائكا ، ولقد كانت فى حاجة الى اقدامه ، وعبقريته وايمانه ، فهى كحـادث اكتشاف القارة

الامريكية ، ظهر طبيعيا ومعقولا بعد تمام الاكتشاف ، ولكنه كان في حاجة الى اقدام « كريستوف كولومب » وعبقريته

ولئن كان مصطفى كامل قد انتقل الى الرفيق الأعلى سنة ١٩٠٨ ، فان تاريخه لا يقف عند هذه السنة ، بل انه مستمر الى اليوم والى غد والى ما شاء الله ، واذا كانت الأعوام والأيام من شأنها أن تجر على الحوادث والأشخاص ذيول التسيان ، فان هذا ليس شأن العظماء والعباقرة ، بل ان مرور السنين والأجيال يزيدهم رفعة وخلودا ، ولا غرو فهم قطعة من عمر الزمان ، وهم بناة الانسانية ودعائمها .. فكل مرحلة من عمر الزمان وتطور الانسانية تجدد من ذكراهم ، فهم لايزالون أحياء فى كل عصر وفى كل عام ، واذا كان مصطفى كامل قد فارق هذه الدنيا منذ أربع وأربعين سنة ، فان دعوة الجلاء التى كانت أساس رسالته الوطنية ، والتي دعا اليها منذ نيف وستين سنة ، وناضل من أجلها ، وفنى فى سبيلها ، قد استقرت فى النفوس ، وصارت مع الزمن عقيدة الأمة وموضع الاجماع من المواطنين جميعا ، وصارت علم الجهاد وقوامه ، فى شمال الوادى وجنوبه .. وهذا هو الخلود الذى يجعل مصطفى كامل حيا فى نفوسنا ، وكأنه لا يزال يعيش بيننا

ان الثمانى عشرة سنة التى قضاها الفقيد فى الجهاد من سنة ١٨٩٠ الى سنة ١٩٠٨ ، هى أساس الحركة الوطنية الحديثة ، فهو باعثها ومحييها ، وبانيها وسط الشدائد والعقبات ، ومدعمها بالايمان والشجاعة والثبات ، ومغذيها بالاخلاص والتضحية ، مات فى ميدان الجهاد كقائد الجيش فى ساحة الوغى .. يرى الخطر محدقا به ، فلا يكترث له ، ويتقدم الصفوف حتى يستشهد فى سبيل الواجب ، أو كما

قال خليفته محمد فريد : « مات رئيسنا فى ساحة الوغى كالقائد يعانى سكرات الموت.ويده تشير الى جنده بالتقدم الى الأمام »

فالروح التى بعثها مصطفى كامل فى الأمة هى التى مهدت السبيل لثورة سنة ١٩١٩ التى اعتاد الكثير من الكتاب أن يجعلوها مبدأ الحركة الوطنية ، وهم فى ذلك مخطئون ، لأن الثورات ليست حركات ميكانيكية تبدو فجأة للناظرين ، بل هى حوادث اجتماعية ، تتمخض عنها حياة الشعوب تبعا لدرجة استعدادها ، ونتيجة لسريان روح الوطنية فى نفوس أبنائها ، فلولا الوطنية التى بثها مصطفى كامل فى نفوس المصريين خلال الثمانية عشر عاما التى قضاها فى الكفاح ، لمرت سنة ١٩١٩ كما تمر غيرها من السنين ، دون أن تتجلى فيها روح الثورة ، فالثورة هى غرس الوطنية ، والوطنية هى نتيجة لعوامل عدة أولها جهاد مصطفى كامل المتواصل طول حياته ، ولهذه الصفحة من الجهاد قد خصصت هذا الكتاب

عبد الرحمن الرافعى

اكتوبر ١٩٥٢

نشـــأة الزعيـــم

نشاته الأولى :

ولد مصطفى كامل بمـدينة القاهرة بحي « الصـليبة » بقسم الخليفة يوم ١٤ أغسـطس سنة ١٨٧٤ ، وهو ابن « على افندى محمد » أحد خيار المهندسين الضباط

كان والد الفقيد ضـابطا ومهندسـا ، جمع بين الصبغة الحربية والصبغة الملكية ، اذ كان فى أواخر عهده بالحكومة مهندسا ملكيا ، وكان معروفا بالاستقامة والشهامة وطيب العنصر والأخـلاق الكريمة • وكان له من غير شـك فضل كبير في ظهور مصطفى كامل ، اذ كان يعنى بتربية أولاده وتنشئتهم النشأة الصالحة ، فكان اذا بلغ أحدهم الخامسة من عمره دعا أحد الفقهاء الى منزله لتلقينه مبادىء القـراءة والكتابة ، فاذا شب أرسله الى الكتاب ليحفظ ما تيسر من القرآن الكريم ، ثم يدخله المدرسة • وكان من ناحية أخرى يجمع أولاده حوله فى معظم الليـالى ويقص عليهم أحاديث الشهامة والنجدة ، ويعلمهم الصدق والاخـلاص ، كما كان يتفقد أحوالهم فى المدرسة ، هذا فضـلا عن أنه هو بذاته وبأخلاقه الطيبة كان قدوة لأولاده

فعلى افندى محمـد كانت له يد طولى فى نشـأة الفقيد وتربيته الحسنة ، وهذه التربية قد مهدت السبيل للنشأة الوطنية التي نشأها الفقيد

وكذلك كان لوالدته السـيدة حفيظة كريمة المرحـوم اليوزباشي محمد افندى فهمى فضل كبير فى نشأته ، وهى

سيدة من فضليات النساء من جهة المحجر بالقاهرة « بشارع الكومى » ، وكانت على جانب كبير من مكارم الاخلاق ٠
وكان الفقيد يعزها ويجلها ويشيد بذكرها طول حياته ، وحزن أشد الحزن لوفاتها سنة ١٩٠٧ ، وقد انطبعت فيه أخلاقها من صفاء النفس وحب الخير ، والصبر والجلد ٠٠
مرضت بالقلب فى آخر حياتها عدة أشهر ، وكانت وطأة المرض تشتد عليها بين حين وآخر ، ولكنها كانت تقابل آلام المرض بالصبر والجلد ، وظلت كذلك حتى أسلمت الروح ٠
فهذا الصبر على احتمال الآلام والمتاعب قد ورثه الفقيد عن والدته الفاضلة

نشأته المدرسية

بدت على مصطفى كامل مخايل الذكاء والنجابة وقوة الذاكرة فى طفولته ، وكان كثير الاهتمام بما يحدثه به أبوه من القصص على عادته مع أولاده ، ويعى هذه القصص ويدركها تمام الادراك وهو بعد لما يتجاوز الخامسة من عمره ، وقد عهد أبوه وهو فى هذه السن الى فقيه يدعى الشيخ احمد السيد أن يعلمه فى المنزل مبادىء القراءة والكتابة ، ويحفظه القرآن الكريم ، ولما أتم السادسة أدخله مدرسة « والدة عباس الأول » الابتدائية بالصليبية ، وهى القائمة الى الآن ، فهذه المدرسة تفخر بحق بأنها أول معهد علمى تخرج فيه زعيم مصر العظيم

وقد أدركت والده الوفاة سنة ١٨٩٦ ، والفقيد فى المدرسة الابتدائية ، فحزن لوفاته حزنا شديدا وأثر فيه الحزن تأثيرا عميقا ، وقد كفله من بعده أخوه الأكبر

المرحوم حسين باشا واصف ـ وزير الأشغال الأسبق

ونال شهادة الدراسة الابتدائية في احتفال فخم حضره الخديو الأسبق توفيق باشا سنة ١٨٨٧

ودخل المدرسة التجهيزية « الخديوية » سنة ١٨٨٧ ، وظل على صفاته التى لازمته فى التعليم الابتدائى من الجد والاكباب على الدرس والعمل ، وظهرت مواهبه من الشجاعة والجرأة والذكاء وقوة الذاكرة واستقلال الفكر وعلو النفس والصراحة فى القول ، وحسن الالقاء ، فنال احترام الأساتذة والتلاميذ جميعا ، وكان موضع اعجابهم ، وقد عرفه فى ذلك الحين على باشا مبارك ، وكان وزيرا للمعارف العمومية ، فأعجب بفصاحته وشجاعته وقوة عارضته ، وقال له مرة : « انك امرؤ القيس » ، وبشره بأنه سيكون عظيما ، وأعجب به اعجابا كبيرا ، وقابله يوما فى سراى الوزارة وشكى اليه حيف نظام الامتحان اذ أدى الى رسوبه ورسوب زملائه ، فأعجب بجرأته واقتنع بشكواه وحجته ، فعدل عن هذا النظام مما أدى الى نجاح مصطفى وكثير من زملائه ، وكان الفقيد على حداثته موضع احترامه ، فكان الوزير ينشطه ويدعوه الى منزله ويناقشه فى المسائل العلمية والاجتماعية ، ويقدمه الى جلسائه من العلماء والكبراء ، ويثنى عليه أمامهم

ونال شهادة الدراسة الثانوية « البكالوريا » صيف سنة ١٨٩١ ، ودخل مدرسة الحقوق الخديوية فى أكتوبر من تلك السنة ، ونجح فى امتحان السنة الاولى ، ثم التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية فى أكتوبر سنة ١٨٩٢ ، وجمع بين المدرستين ، وحصل على شهادة الحقوق من كلية تولوز فى نوفمبر سنة ١٨٩٤



مصطفى كامل فى العشرين من عمره

نشأته الاخلاقية

ان الأخلاق هى مهد الوطنية وقوامها ، فالأمم التى يتحصن أفرادها بالأخلاق هى التى تنمو فيها الوطنية وتتأصل في نفوس أبنائها ، ولا غرو فالوطنية الصادقة لا تسكن الا النفس المتحصنة بالأخلاق القويمة ، ولقد كان مصطفى كامل زعيما أخلاقيا كما كان زعيما وطنيا ، وكانت نشأته الوطنية متابعة لنشأته الاخلاقية ، لأن الأخلاق أساس الوطنية الصادقة

بدأت نشأته الأخلاقية في البيت ، من حسن تربية والده اياه ، وقدوته الحسنة ، ثم استمرت فى المدرسة الابتدائية ، ثم الثانوية والعالية ، ودخل ميدان الجهاد الوطني متميزا بالأخلاق التى اكتسبها طفلا وتلميذا وشابا ، ولازمته طوال حياته

وأبرز الجوانب فى حياته الاخلاقية الصدق والاخلاص ، وقوة العزيمة ، والصراحة والشهامة ، وعلو النفس · كانت هذه الاخلاق خير أساس لوطنيته كما كانت عدته فى الجهاد وسبيله الى الفوز فى أداء رسالته القومية

ظهرت هذه الاخلاق للعيان أثناء دراسته بالمدرسة الثانوية ، ذكر المرحوم الشيخ على يوسف صاحب المؤيد انه دخل ذات ليلة على على باشا مبارك فى منزله أوائل سنة ١٨٩٠ وهو يومئذ وزير المعارف ، ومجلسه حافل بالفضلاء والأدباء ، واذا بمصطفى كامل وكان وقتئذ تلميذا بالمدرسة الثانوية يجادل الباشا فى أمره ويقول انى لا أطلب منك الا ما وجدت أنت من مثلك يوم كنت تلميذا مثلى ، وما

يدريك ألا أكون عظيما أخدم وطنى غدا بأكثر مما تخدمه أنت اليوم ، قال هذا ثم خرج غاضبا . وكأنه ليس بتلميذ ، وكأنما الباشا الذى يخاطبه ليس وزيرا للمعارف العمومية ، وبعد ما خرج ابتسم الباشا وقال اننى أعجب كثيرا بشجاعة هذا التلميذ ، ويلذ لى أن يتكلم أمامى كثيرا بمثل هذه الشجاعة النفسية ، ولذلك لم أخبره بما أمرت اليوم لأجله ، وكان قد أصدر أمره بما طلب منه من قبل وتركه يخاطبه بمثل هذه اللهجة متلذذا بما كان يعجبه من كلامه وجداله ، قال الشيخ علي يوسف : « من تلك اللحظة عرفت (مصطفى كامل) وكأنما عرفت رجلا لا تلميذا فى المدرسة »

نشأته الوطنية ـ سنة ١٨٩٠

تدل الشواهد والبينات على أن نشأة مصطفى كامل الوطنية بدأت وهو بعد فى المدرسة الثانوية ، ونقصد بالنشأة الوطنية اتجاهه الى العمل والجهاد فى سبيل حرية مصر واستقلالها ، بدأ يشعر وهو بعد فى السادسة عشرة من عمره أن عليه واجبا نحو وطنه يجب أن يؤديه ، ظهر هذا الشعور أول ما بدا وهو فى المدرسة الخديوية اذا أسس جمعية أدبية وطنية أسماها (جمعية الصليبة الأدبية » واختار لها أعضاء من بين أصدقائه فى التلمذة ممن توسم فيهم الفضل والذكاء والكفاية ، وكانت ثمة جمعية أخرى تسمى (جمعية الاعتدال) تعقد جلساتها الاسبوعية فى مدرسة الامريكان ، فكان المترجم يزورها ليتعرف الى من فيها من الأفاضل والأدباء فيحبب اليهم زيارة جمعيته ، وقد نمت الجمعية ولم يمض على تأسيسها أكثر من ثلاثة أشهر كان فيها نحو سبعين عضوا

ومن ذلك الحين تعلقت نفسه بالوطنية والخطابة ، فكان يقف في الجمعية خطيبا مساء كل جمعة مرتجلا ما تملى عليه البديهة من الخطب ، وتجلت مواهبه الخطابية وهو بعد في هذه السن المبكرة ، وأول خطبة ألقاها كانت في (فضل الجمعيات في العالم) ، وأخذ يراسل الصحف في ذلك الحين ، ويتجلى تعلقه بالوطنية منذ كان بالمدرسة الثانوية من خطاب له الى شقيقه على فهمى كامل في ١٢ يوليه سنة ١٨٩١ لمناسبة حصوله على شهادة الدراسة الثانوية ، يذكر فيه اتجاهه الى دخول مدرسة الحقوق « لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم » ، وهذا الاتجاه ليس وليد اليوم الذى كتب فيه الخطاب ، بل هو وصف لشعور نفسانى خالج المترجم منذ كان طالبا بالمدرسة الثانوية ، وقبل أن يتخطى تلك العقبة الكؤود

لذلك يمكننا أن نحدد مبدأ نشأة الفقيد الوطنية بسنة ١٨٩٠ ، وهى أصح السنين لتاريخ ظهور تلك العبقرية الوطنية التى سطع نورها فى أرجاء وادى النيل وبعثت النهضة القومية من مرقدها

العصر الذى ظهر فيه مصطفى كامل

لا تكتمل دراسة شخصية المترجم دون أن ندرس العصر الذى ظهر فيه ، لكى نتبين مبلغ تأثير العصر فى شخصيته ، وتأثير شخصيته فى عصره

قلنا ان ظهور مصطفى كامل فى ميدان الجهاد الوطنى قد بدأ سنة ١٨٩٠ ، فلنقف قليلا لكى نصف حالة مصر السياسية فى ذلك العصر

مضى على الاحتلال البريطانى نحو تسع سنوات كانت سنوات يأس وقنوط واستسلام من جانب الأمة ، كما كانت عهد طغيان وجبروت من جانب الاحتلال البريطانى .

فالثورة العرابية بما انتهت اليه من الاخفاق والهزيمة سنة ١٨٨٢ قد أثرت فى حالة الأمة المعنوية تأثيرا سيئا ، لأن اخفاق الثورات فى ذاته يبعث اليأس فى النفوس ، هذا الى أن الخاتمة التى انتهت بها الثورة وما أفضت اليه من الاحتلال هى مظهر بارز لخيبة الأمل فى الثورات ، اذ أن الثورة التى قامت فى الأصل لانالة البلاد حريتها السياسية قد انتهت بالعكس بفقدان هذه الحرية ، ثم بفقدان الاستقلال الذى كانت تتمتع به من قبل ، فقلما يوجد من الثورات ما انتهت بخيبة الأمل مثلما انتهت به الثورة العرابية

وقد أدى اخفاقها الى تسرب اليأس فى النفوس ، فنهاية الثورة العرابية كانت من أسبابها انحلال المقاومة الأهلية فى أوائل عهد الاحتلال البريطانى ، فان روح الخضوع والاستسلام قد تسربت الى صفوف الأمة ، فركنت الى الاذعان ، وظلت هذه الروح غالبة على الأمة سنوات عديدة ، اذ ليس من السهل أن تتخلص الأمم من أمثال هذه الحالة المعنوية ، بل قد تمر عليها اجيال ثم أجيال وهى تراها حالة عادية لا غضاضة منها ولا غرابة فيها ، حتى تظهر فيها زعامة جديدة تنفض عنها غبار اليأس والذل وتبعث فيها روح الحياة والكرامة ، فلا تتغير نفسية الأمة الا بتأثير عوامل

وشخصيات قوية تبعث فيها دما جديدا قويا ، وهذا هو فضل مصطفى كامل فى جهاده ، فلقد ظهر فى وقت كان اليأس مستحوذا على النفوس ، فبعث فى الأمة روحا جديدة ، فهو بحق موجد الحركة الوطنية ومنشئها ، لا ممثلها ونائبها ، وفرق بين الزعيم الذى يخلق حركة من العدم ، ويستبدل من اليأس أملا ، ومن الجمود حياة وجهادا ، وبين الزعيم الذى تدفعه الحركة الوطنية وتخلقه خلقا جديدا ، ولا يكون له من العمل الا أن يمثلها أو يستغلها

لم يكن اخفاق الثورة العرابية هو العامل الوحيد لسريان روح اليأس والاستسلام ، بل اجتمعت اليه تلك الحوادث التى تعاقبت على البلاد فى السنوات العشر الأولى من الاحتلال ، فكانت أيضا من بواعث القنوط وانقطاع الأمل

فى هذه السنوات شهدت البلاد التواء السياسة الانجليزية، ونقضها مواعيدها فى الجلاء، شهدت جمود الدول الأوربية ازاء المسألة المصرية وتركها انجلترا تعبث ما تشاء باستقلال مصر وحقوقها ، شهدت تهدم صرح الامبراطورية الواسعة الأرجاء التى أسستها فى وادى النيل ، ورأت الكوارث والهزائم تصيب جيشها فى السودان ، وعواصمه ومديرياته تسقط واحدة بعد أخرى فى أيدى الثوار ، شهدت خضوع الحكومة المصرية لأوامر القنصل البريطانى العام ، شهدت الغاء الجيش المصرى وتأليف جيش جديد هزيل ، قائده وكبار ضباطه من البريطانيين ، شهدت النفوذ البريطانى يتغلغل فى شئون الحكومة كافة ، من

سياسية وحربية ومالية وتشريعية وادارية ، شهدت الغاء الدستور الذى نالته سنة ١٨٨٢ وتاليف هيئة شورية لا حول لها ولا قوة ، شهدت نوعا من الحماية مضروبا على مصر ، دون أن تعرف له أساسا ولا حدودا ، ولا قواعد ولا وقتا محدودا .

ثم شهدت فوق ذلك استسلام رجالات مصر لارادة العميد البريطانى ، وتقرب أكثرهم اليه ، والتماسهم الزلفى لديه ، فصار العميد الانجليزى « اللورد كرومر » هو صاحب الأمر والنهى فى شئون الحكومة ، يتدخل فى كل وزارة بواسطة الموظفين الانجليز الذين كانوا على رأس المصالح المهمة ، فالسردار والضباط البريطانيون على رأس الجيش ، والبوليس تحت امرة المفتش البريطانى العام ، والمالية فى يد المستشار المالى ، والأشغال فى يد وكيل الوزارة البريطانى ، والحقانية منذ سنة ١٨٩١ فى يد المستشار القضائى ، وكان يتولى الوزارة فى ذلك الحين (سنة ١٨٩٠) رياض باشا ، وفى عهده استمر النفوذ البريطانى يتغلغل فى دوائر الحكومة ، ثم استقال فى مايو سنة ١٨٩١ ، وخلفه فى رياسة الوزارة مصطفى فهمى ، وهو أكثر الوزراء خضوعا للاحتلال الانجليزى واستسلاما له ، وليس فى البلاد هيئة نيابية تمثل سلطة الأمة ، بل كان بها ذلك المجلس المعروف بمجلس شورى القوانين ، ولم يكن يسمع له صوت فى الشئون العامة ، والصحافة اما موالية للحكومة ، أو ضعيفة فاترة بازاء السيطرة البريطانية ، وجمهرة الأمة تحت تاثير هزيمة الثورة

العرابية وخضوع الحكومة للسياسة الانجليزية ، منصرفة عن الكفاح والجهاد

وكان الرجال البارزون فى مصر اما منزوين فى دواوين الحكومة ، متربعين فى المناصب ، وبعضهم أعوان الغاصب ، واما منصرفين لأعمالهم الخاصة فى المحاماة أو الطب والزراعة والتجارة ، والذين أدركوا منهم الثورة العرابية أو كانوا من رجالها قد انصرفوا عنها ، وحل اليأس فى نفوسهم ، والذين لم يشتركوا فيها كانوا متأثرين بالروح العامة التى خيمت على البلاد ، روح الخضوع والاستسلام ، ففى الوقت الذى ضرب فيه اليأس رواقه على الطبقة الممتازة من المجتمع خاصة ، وعلى الأمة عامة ، بدأ مصطفى كامل حياة العناء والجهاد فى سبيل مصر واستقلالها ، من هذه الناحية تستطيع أن تقدر فضل المترجم ، اذ أنشأ الحركة الوطنية فى عصر تغلبت فيه عوامل اليأس والجمود ، وتظاهرت أسباب الضعف والخذلان

والآن يجدر بنا أن نتساءل من أين جاءت مصطفى كامل هذه الروح الوطنية فى عصر اكتنفته عوامل اليأس والقنوط ، وكيف نهض وجده وهو فى هذه السن المبكرة اذ كان لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره ؟

لم يقل احد ان أباه (على ما كان عليه من الفضائل) هو الذى غرس فى نفسه عقيدة الوطنية ، لأن (على افندى محمد) لم يكن فذا فى الآباء ، بل كان كغيره من خيار الرجال الذين لم يكونوا يعنون بتنشئة أبنائهم النشأة الوطنية ، ولم يكن فى المدارس كذلك دروس فى الوطنية

يتلقاها تلاميذها ، كما أن العصر الذى ظهر فيه مصطفى لم يكن مستعدا لأن تكتسب فيه الوطنية بطريق القدوة ، واذا قلنا ان أخلاق مصطفى كامل هي التى أوحت اليه العقيدة الوطنية ، فان كثيرا من الشبان والتلاميذ كانوا على مثل اخلاقه الفاضلة ، ومع ذلك لم ينشأوا على غراره فى العقيدة الوطنية ، واذا أردنا أن نعلل هذه النشأة بأنها كانت نتيجة ما كانت مصر تعانيه من احتلال يعبث باستقلالها ويتغلغل في شئونها ، وأن مصائب الوطن كانت كافية لتحريك نزعة الوطنية فى نفوس المصريين ، فان هذه المصائب لم تحرك فى نفوس الناس ما حركت من نفس مصطفى كامل ، بل ان المصائب كان لها تأثير عكسى فى ذلك العصر ، اذ بعثت اليأس في النفوس ، وجنحت بالأمة الى الاستسلام ، هذا الى أن فريقا من المصريين كانوا يستفيدون من مصائب الوطن ، ويعدها قوم من الفوائد والحسنات !

ففى الحق انه لا تعليل لهذه النشأة الا أنها قبس من نور العبقرية ، فالعبقرية هي مصدر هذه النشأة ، وقوامها قوة الارادة والايمان ، ولا غرو فهذه القوة تذلل الصعاب وتأتى بالمعجزات ، وهذا هو سر العبقرية ، لا تجد له تعليلا دقيقا ، فاذا عللته بتأثير البيئة أو الوراثة كما يقولون اعترضك فى هذا أن العبقرى قد ينشأ وغيره من الناس فى بيئة واحدة ، ومن أب واحد ، وأم واحدة ، ومع ذلك ينفرد بالنبوغ دون أقرانه واخوانه ، فنشأة مصطفى كامل الوطنية ، ثم حياته الوطنية كلها ، هى قبس من عبقريته ، وقد اتجهت هذه العبقرية الى احياء الوطن وبعث الحركة القومية من مرقدها

ومن مداد هـذه العبقـرية خط التـاريخ دورا عظيمـا من أدوارها ، ولقد كان مصطفى منشىء هذا الدور ، اذ نفخ فى الأمة من روحه ، في وقت كانت الملابسات والظروف تجعل الدعوة الوطنية من أشق المهام وأبعدها عن النجاح ، وكانت موضع الزراية والاستخفاف من سواد الأمة ، بل من الطبقة الممتازة من المجتمع ، وهذا ولا ريب مما يظهر فضل مصطفى كامل فى بعثه الحركة الوطنية

مراحـــل جهـــاده

المرحلة الاولى من الجهـاد :

قلنا ان نشأة الفقيـد الوطنية بدأت سنة ١٨٩٠ ، وهو طالب فى المدرسة الثانوية ، وتعلقت نفسه من ذلك الحين بالخطابة والكتابة والأدب ، فكان يقف فى جمعية (الصليبة الأدبية) خطيبـا فى مساء كل جمعة مرتجـلا ما تملى عليه البديهة ، وكان يسترعى الانظار ويملك الأسماع بمواهبـه الخطابية

دخل مدرسة الحقوق الخديوية فى اكتوبر سنة ١٨٩١ ، وهو فى السابعة عشرة من عمره ، وكان قلبه يتقد وطنية واخلاصا لمصر ، فلم يسـتطع أن يصبر حتى ينال شـهادة الليســانس لكى يبدأ الجهاد ، بل بدأ جهــاده وهو فى مهد التعليم ، فى المدرسة الثانوية ، ثم فى مدرسة الحقوق

كان رفيقه وزميله فى دراسة الحقوق فؤاد سليم (باشا)، وقد تلاقيــا لأول مرة فى المدرسـة المذكورة ، فتعـارفت روحاهما ، وائتلفا ائتلافا قلبيا وروحيـا ، وقويت بينهمـا من ذلك الحين أواصر الصداقة ، وتعرف الفقيد بوساطته الى والده لطيف باشا سليم ، فكان له خير مرشد ومشير ، كما كان له حين عظم شأنه نعم العضد والنصير

كان الفقيـد يســبق عصره فى النضج وقوة الوجـدان والشعور ، كان وهو فى مدرسة الحقوق يتعرف الى الرجال البارزين فى ذلك العصر ، ويتصل بهم ويناقشهم ويتبـادل واياهم الآراء والافــكار ، نذكر منهم الشـيخ على الليثى

الشاعر والاديب الكبير ، ولطيف باشا سليم ، واسماعيل باشا صبرى الشاعر المشـــهور ، وعلى بك فخرى ، وأمين باشا فكرى ، ومحمود بك سالم ، واسماعيل بك شيمى ، واخرين من أعضاء مجــلس شــورى القوانين والجمعية

وحدث يوما وهو فى مدرسة الحقوق أن جرت بينه وبين صديقه فؤاد سليم مناقشة حادة أصـــدرت المدرســـة على اثرها أمرا بحرمانهما دخولها أسبوعا ، فاستاء كلاهما من هذا القرار ولم يرد فؤاد أن يعود الى المدرســـة بعد انتهـــاء الاسبوع ، بل التحق بمدرســة الحقــوق الفرنســية التى تأسست فى ذلك العهد ، أما مصـــطفى فعاد الى مدرســته واستمر فيها حتى انتهاء السنة الاولى

انتقل المترجم من السنة الأولى الى السنة الثانية بنجاح، وفى صيف ذلك العام (١٨٩٢) قصد الى مدينة الاسكندرية لتبــديل الهواء ، فاجتمع هناك بصـــاحب الأهرام بشــارة باشا تقلا ، وكان واسطة التعارف بينهما صــديقه الحميم الاستاذ خليل مطران ، فاعجب به وأجله وأفسح له جريدته ينشر فيها ما يبعث اليه من الرسائل الوطنية

وفى شهر اكتوبر سنة ١٨٩٢ رغب اليه صديقه فـؤاد سليم أن يتم دراســته فى مدرســة الحقــوق الفرنســية ، ليكونا بها معا ، فمالت نفسه الى العمل بهذا الرأى لسببين، أحدهما أنه يجد فى هذه المدرسة الحرية التى تصـــبو اليها نفســه ، فلا يتقيــد بالنظم المتبعــة فى مدرســة الحقــوق الخديوية ، والثانى أن يستزيد من دراسة اللغة الفرنســية فيجيد الكتابة والخطابة بها ويدافع بهـــا عن قضـــية الوطن أمام الرأى العـــام الاوروبى . وقــد جمــع وقتــا ما بين

المدرستين ، فكان يقضي سحابة النهار في المدرسة الإميرية ، والمساء في المدرسة الفرنسية ، اذ كانت الدراسة فيها تبدأ قبل الغروب ، ويبدو لك من جمعه بين المدرستين ما فطر عليه من الاباء وعلو النفس والتعلق بالحرية ، بله الجد والمثابرة على الدرس ، فقد أراد أن يكون المجال فسيحا أمامه لينصرف من احداهما الى الاخرى اذا ما ضيق على ضميره نظام أو انسان

وفي تلك السنة المكتبية ١٨٩٢ ـ ١٨٩٣ أكثر من الكتابة في جريدتي الاهرام والمؤيد

وكان وهو يخطب بين اخوانه الطلبة يثير حماستهم الوطنية لمقاومة الاحتلال ، فأكبروا فيه وطنيته ومواهبه الخطابية ، واجتمعت قلوبهم على محبته والاعجاب به

وفي يناير سنة ١٨٩٣ لمناسبة أزمة وزارة مصطفى فهمي قامت مظاهرة وطنية من طلاب المدارس العالية وفي مقدمتهم طلبة الحقوق لتأييد الخديو في خلافه مع اللورد كرومر ، وكان الفقيد في طليعة هذه المظاهرة

وفي تلك السنة أيضا أنشأ مجلة أسماها (المدرسة) ، صدر العدد الأول منها يوم السبت ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣ ، وهي مجلة وطنية أدبية تهذيبية علمية تصدر في غرة كل شهر عربي ، وجعل شعارها المطبوع في صدر كل عدد « حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك »

كان المترجم مدير المجلة ومحررها ، وتطوع بعض الكتاب المجيدين لكتابة المقالات والرسائل فيها

وتبدو في مجلة « المدرسة » روح الوطنية ، فالروح التى

أملت عليه اصدارها وهو فى التاسـعة عشرة من عمره هى ذات الروح التى أوحت اليه اصـدار « اللـواء » حين بلغ السادسة والعشرين ، فالينبوع واحد ، وهو ينبوع الوطنية الفياض

ان ظهور مجلة « المدرسة » يعطيك فكرة عن شـخصية المترجم ، فهى أول مجلة مدرسية أصـدرها طالب مصرى ، وفى اقدامه على اصدارها وهو بعد فى التاسـعة عشرة من عمـره ما يدلك على عظيم همتـه ومضـاء عزيمته ، وقـوة وطنيته ، فليس من السـهل على طالب فى مثـل سـنه أن يصدر مجلة يتولى تحريرها وادارتها والانفاق على تكاليفها ، بل هو عمل قد تنوء به الجماعة من الرجال ، ولكن عبقرية المترجم كانت تذلل الصعاب ، ويدل اصـدارها كذلك على ميله للصحافة منذ نشـأته الوطنية ، ولا غرو فالصـحافة كانت أداة كبرى لجهـاده وكفـاحه ، ويكشـف أيضـا هذا العمل عن قوة وطنيته المغروسة فى فؤاده ، فهو يقتطع من وقته لاصدار مجلة يبث فيهـا بين الشـباب روح الوطنية والتهذيب

كتب الى أخيـه على فهمى كامل فى ١٩ فبـراير سـنة ١٨٩٣ كتابا يقـول فيه : « أبعث اليـك فى هـذا البريد بمجلة المدرسـة التى أنشـاتها لخـدمة الناشئين لا للربح والشهرة »

وهذا الكتاب يدلك على الفكرة التى صدرت عنها المجلة ، فهو لا يقصد منها الربح والمنفعة ، بل يرمى الى أداء الواجب الوطنى نحو بلاده

وكان عدا اصداره مجلة المدرســة ينشر بين حين وآخر المقالات في جريدتي « الاهرام » و « المؤيد »

وفي غضون ذلك عاد السيد عبد الله نديم خطيب الثورة العرابية الى مصر من منفاه سنة ١٨٩٢ ، فاتصل به الفقيد ، وعرف من أحاديثه أسرار الثـورة العرابية ، اذ كان النديم خطيبها وأحد كبار زعمائها ، عرف منه حوادث الثورة على حقيقتها ، وأدرك أسباب اخفاقها وهزيمتها ، واذ كان يعد نفسه لزعامة الحركة الاســتقلالية ، فان أحاديث عبد الله نديم قد أفادته كثيرا فى تعـرف مواطن الخطـأ وأسـباب الاخفاق فى الثورة العـرابية ، فتجنبهـا فى جهـاده ، كما عرف شيئا كثيرا من دسائس السياســة الانجليزية ، تلك الدسائس التي كان لها دخل كبير فى اخفاق الثورة ووقوع الاحتلال ، وانك لتلمح فى حيـاة مصـطفي كامل الوطنية والسياسية مبلغ تجنبه أخطاء العرابيين ، فهو لم يفكر فى اتخاذ الجيش أداة للحركة السياسية ، بل كان يعتمـد على قوة الرأى العام وتربية الشعب التربية الوطنية والاخلاقية الكفيلة بتوطيد دعائم الحرية والديمقراطيسة ، واذ علم أن اصـطدام العرابيين بالخـديو توفيـق قد مكن للدسائس الانجليزية من أن توقع الفرقة والانقســام فى مصر ، فانه نأى عن هـذه السياســة ، وسـلك بالحـركة الوطنيـة سبيل التفاهم مع الخديو عباس الثاني ، وتفادى الاصطدام به برغم ما شجر بينهمـا من خلاف كمـا سيجيء بيانه ، وكان ينقم من عرابى استســلامه للانجليـز ، وأدرك مبلغ تأثير هذا الاستسلام في حالة الأمة المعنوية ، فرسم لنفسه خطة المقاومة المستمرة للاحتلال ، مقاومة لا ضعف فيها ولا هوادة ولا تراجع ، وهكذا كانت أخطاء الثـورة العرابية ،

درسا لباعث الحركة الوطنية ، جنبه مواضع الخيبة والاخفاق فى الجهاد ، والزعامة الحقة هى التى تستفيد من تجارب الماضى ، وتعتبر بمصائب الوطن ، فتقيه مواطن الزلل ، وتسلك بالأمة سبيل الحكمة والرشاد

وسافر الفقيد لأول مرة الى أوربا يوم الجمعة ٢٣ يوليه سنة ١٨٩٣ ، ليؤدى امتحان السنة الأولى بكلية الحقوق بباريس فأداه بنجاح ، وقد كانت هذه الرحلة فرصة سنحت له ليستزيد من معارفه ويكتسب من مشاهداته فى بلاد الحضارة والوطنية ، وكان أثناء مقامه بباريس مثال الجد والاستقامة ، منصرفا عن اللهو واللعب ، ولم يكن همه بعد أن يفرغ من دراسته كل يوم الا أن يزور المكاتب والمعاهد ، أن يحادث ذوى الرأى فيما يتعلق بشئون مصر وما يجيش به صدره نحوها من العواطف والآمال ، وكان فى خلال رحلاته هذه لا يفتأ يذكر مصر ومجدها

وعاد من أوربا فى أغسطس سنة ١٨٩٣ ، ووالى دراسة الحقوق واصدار مجلة المدرسة ، وقد زادت أواصر الود بينه وبين لطيف باشا سليم (والد فؤاد بك سليم) اذ كان يرى تأليف هيئة تضم صفوف المعارضة ، فانضم الى هذه الهيئة ، وكانت تضم الصحفى والخطيب والقاضى والضابط ، وكلهم من خيار الرجال

ثم قصد الى فرنسا فى صيف سنة ١٨٩٤ وأدى بنجاح امتحان السنة الثانية ، وزار باريس وبروكسل ، ثم أخذ بعد نجاحه يراسل الاهرام ، فنشر بها ست مقالات عن معارض ليون وأنفرس ، وعاد الى مصر فى سبتمبر ،

واعتزم أن يؤدي امتحان السنة الثالثة حيث ينال الليسانس في نوفمبر من تلك السنة

وعلى ما فى هذا العزم من الاجهاد فان قوة ارادته كفلت له تحقيق أمنيته ، فسافر الى باريس فى اكتوبر سنة ١٨٩٤ ، ووجد صعوبة فى أداء الامتحان النهائي فى كلية باريس ، اذ لا يتفق ونظامها أن يؤدى الطالب امتحانين في سنة واحدة ، فاستعان بأستاذيه في مدرسة الحقوق الفرنسية ، وهما المسيو ديروزاس ناظر المدرسة والمسيو موللر أستاذ الاقتصاد السياسى بها ، فنصحاه بأن يعدل عما اعتزمه اشفاقا على صحته ، ولكنه أصر على عزمه ، ولما لم تقبل مدرسة باريس أداء امتحانين فى سنة واحدة ساعداه لدى كلية (تولوز) فى أن يؤدى أمامها الامتحان النهائي ، فقبل طلبه بوساطة الاستاذين ، وانتقل المترجم الى تولوز ، وهناك أكب على الدرس لكي يتمم علوم السنة الثالثة ، ودخل الامتحان ، فنجح فيه ونال شهادة ليسانس الحقوق في نوفمبر سنة ١٨٩٤ وله من العمر عشرون سنة

جهاده من سنة ١٨٩٤ الى سنة ١٨٩٧

كان أول شعور للمترجم عقب نيله شهادة الحقوق أن اتجه الى استمرار الجهاد فى سبيل الوطن ، قال فى كتاب له الى أخيه على بتاريخ ١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٤ :

« واليوم أحمد الله حمدا كبيرا ، وأشكره شكرا جزيلا على فك قيد أسرى والمن باطلاقى فى ميدان الحرية ، فقد أصبحت حاملا شهادة الحقوق ، وعولت بمشيئة الله على الانتظام في سلك رجال المحاماة ، لأدافع عن حقوق الأفراد،

ولو أتيح لى الخير وبلغت ما أتمنى لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع ، لان مصر وهى جنة الدنيا لا تستحق أن يداس شرفها بالأقدام ، ونصبح فيها نحن أبناءها الاعزاء ممقوتين غرباء »

لم يفكر الفقيد فى مستقبله حين نال اجازة الحقوق ، بل فكر فى واجبه نحو مصر ، وهذا يدلك على قوة وطنيته التى ملكت عليه مشاعره ، فقد عزم على الانتظام فى سلك المحاماة لأنها ميدان الحرية والدفاع عن الحقوق ، ولأنها السبيل الى الدفاع عن حقوق الوطن ، ولم يفكر فى الانتظام فى سلك المناصب لأن لها قيودا لا يستطيع معها أن يؤدى واجب الجهاد لمصر ولأن الحكومة فى ذلك العصر كانت خاضعة لسيطرة الاحتلال وهو لا يقبل هذا الخضوع ، بل هو ثائر على الاحتلال

ويبدو لك مبلغ يقينه برسالته وتلهفه على نشرها أنه لم يكد ينال شهادة الحقوق حتى كان له حديث فى جريدة « جازيت دى تولوز » التى تصدر فى تولوز حيث نال اجازة الحقوق ، ألمع فيه الى اعتزامه النضال عن حقوق البلاد وأنه سيوجه جزءا من جهوده للدعاية لمصر فى الخارج ، وكان وقتئذ قد أتم العشرين من عمره ، وترى أثر هذا النضال من تعقيب جريدة جازيت دى تولوز على حديثه يقولها :

« بين الذين نجحوا فى كليتنا الحقوقية شاب مصرى هو مصطفى كامل ، وهذا الشاب لم يكن من الذين قيدوا فى الكلية من مبدأ دراسة الحقوق ، بل هذه أول مرة له فيها ، ومن يعلم أنه أمضى فى شهر يوليه الماضى إمتحان السنة الثانية أمام كلية باريس بنجاح باهر ، فانه يدهش دهشا كبيرا لهذا الذكاء النادر ، ومع ذلك فلا يعجب قراؤنا

فان تاريخ مصر يحوى الكثير من النظريات العلمية الكبيرة التي تدل على مبلغ تقدم العلوم والمعارف عند المصريين وسمو مداركهم من زمن بعيد ، وهؤلاء مواطنونا الفرنسيون الذين عاشوا في مصر واختلطوا بأهلها وأبنائها بصفتهم أساتذة في مدارسها قد صنفوا التأليف الكثيرة في دفائن الذكاء المصرى ، حتى رفعوه فوق كل ذكاء

« والظاهر أن اعتدال الاقليم سبب من الأسباب التى أوجدت في المصريين هذا الذكاء النادر ، فامة كهذه الأمة لها شهرة تاريخية كبيرة ، فضلا عن ميل أبنائها الى فرنسا ورغبتهم الأكيدة في الحصول على العلوم الحديثة من منابعها الفياضة ، لابد أن تسترجع مجدها بفضل هؤلاء الأبناء الذين نعجب بهم كثيرا ونجلهم اجلالا كبيرا ، وليس فى وسعنا بعد الذى شاهدناه من ذكاء « مصطفى كامل » الا أن نهنىء مصر به ، ونرجو له النجاح التام في العمل الذى يريد به خدمة بلاده ، لأن الغيرة التى شاهدناها على محياه، والطلاقة التى تشير الى مستقبله الباهر ، والتى تدل بأوضح بيان على أنه من الذين وهبوا قوة الخطابة ، لابد أن ترفعه الى مصاف مشاهير الرجال ، ثم لا ينسى القارىء أنه يبدو على سيما مصطفى كامل الصفاء التام في القول والفعل ، وأن قلبه لا يزال طاهرا كريما ، وفوق ذلك فان آدابه الشرقية الجميلة وتحيات نظراته الساحرة قد هذبت علمه الغربى تهذيبا لم نره في حياتنا الا قليلا ، وان مدينة تولوز لتفخر بأن تسجل في عداد الذين تخرجوا من كلياتها شابا كهذا الشاب تقى الفؤاد ، متصفا بكل ما يزين المرء من علم وأدب ورأى صائب »

عاد الفقيد الى مصر فى ديسمبر سنة ١٨٩٤ معتزما أن

يهب حياته كلها للجهاد في سبيل مصر ، والئن قيد اسمه في جدول المحامين فانه لم يترافع في قضية لفرد قط ، ولم يحترف المحاماة أمام المحاكم ، بل شغلته رسالته القوميه عنها ، اذ انصرفت جهوده للمحاماة عن القضية الوطنية ، وقد كانت هذه نيته التي عقد عليها عزمه منذ حصوله على شهادة الحقوق

دراسته المسألة المصرية

يقول علي فهمي كامل شقيق الفقيد في كتابه أنه لما استقبله في الاسكندرية عند رجوعه وجد معه ضمن متاعه صندوقين كبيرين مملوءين بالكتب القديمة والحديثة في تاريخ المسألة المصرية وسياسة الأمم ، وفيهما مذكرات بعضها لكبار السياسيين وبعضها من مكتبة باريس وبعضها من وزارة الخارجية الفرنسية ، وبعد أن استقر به المقام في القاهرة وانتقل الى منزل استأجرته العائلة خلف قسم المنشية ـ بعمارة خليل أغا ـ كان لا يفتأ يدرس الكتب والمذكرات التي أحضرها معه

وقد أكب على هذه الدراسات ، كأنه لا يزال في دور الدراسة ، ولا غرو فانه قد أعد نفسه ليكون باعث الحركة الوطنية والمحامي عن القضية المصرية ، فلابد أن يدرس كل ما كتب عن هذه القضية ، شأن المحامي النزيه الذي يعني بدرس قضيته ليجيد الدفاع عنها ، ولم يكن للفقيد سوى قضية واحدة شغلته طول حياته ، بل قضت على زهرة شبابه ، تلك هي قضية مصر الكبرى

أكب الفقيد على هذه الكتب يدرسها ويستوعب ما بين

دفاتها بذكائه النادر وقوة عزيمته ، ووضع لنفسه برنامجاً للعمل سار عليه ، فكان يعمل يوميا ثماني ساعات في مكتبه ، ذلك أنه يستيقظ في الساعة السادسة صباحا فيؤدي صلاة الصبح ، ثم يتناول الفطور ، ويقصد كوبري قصر النيل للرياضة ، ثم يعود في الساعة السابعة ويأخذ في المطالعة والعمل ، فيستمر بين قراءة وكتابة وتدوين مذكرات الى الظهر ، ثم يتناول الغداء ، وينام الى الساعة الثالثة ، ثم يستأنف المطالعة حتى الساعة الخامسة ، وبعدئذ يزور اخوانه وأصدقاءه ، ويعود في الساعة السابعة مساء ليعاود القراءة مرة أخرى الى الساعة التاسعة ، ثم يتناول مع أفراد الأسرة طعام العشاء ، ويقضي السهرة معهم ومع الزائرين حتى منتصف الليل ، ثم يأوي الى فراشه

وقد نضج فكره من هذه الدراسات العميقة ، فكانت له عدة في الكفاح ، الى جانب اخلاصه وقوة يقينه ، ومواهبه الخطابية والصحفية

نشر الدعوة الوطنية

بدأ جهاده سنة ١٨٩٥ بنشر حديث له مع شقيق اللورد كرومر وهو الكولونيل بارنج على ظهر الباخرة التي أقلته عند عودته الى مصر ، اذ التقى به وانتهز فرصة مقابلته اياه ليرفع صوته بالدفاع عن استقلال مصر ، ونشر هذا الحديث بالاهرام بعد عودته الى مصر ، وخلاصته أن الكولونيل بارنج يرى ضرورة بقاء الاحتلال ، وأن الفقيد يرى ضرورة الجلاء ، وأنه حق لمصر وواجب على انجلترا ، وفاقا لعهودها واحتراما لمواثيقها ، وقد سأله الكولونيل بارنج خلال

الحديث من للمصريين من الأنصار أو السفراء فى أوربا يعتمدون عليهم فى قرب تحقيق الجلاء ؟ فقال الفقيد :

« لنا أوربا بأسرها التي تناديها صوالحها العديدة بأن تنصرنا بنصرة تلك الصوالح التى سعيتم من يوم احتلالكم البلاد فى تقويض أركانها ، على أنها ان لم تنصرنا فان لنا من حقنا واتحادنا بوصف أننا أمة عظيمة ذات حضارة قائمة مأثورة ما نبلغ بهما الى ما نصبو من حرية واستقلال »

واستمر الفقيد فى دراسة الكتب التي وضعت فى المسألة المصرية ، وأخذ يراسل الاهرام والمؤيد وينشر فيهما المقالات الوطنية ، وكثر معارفه من المعجبين بذكائه ووطنيته ، وأخذ يتصل بهم ويباحثهم فى شئون مصر ، ويحثهم على مقاومة الاحتلال ، فاتسع نطاق المعارضة ، وتعرف الى كثير من الاشخاص البارزين فى المجتمع من الكتاب والادباء وأعضاء مجلس شورى القوانين والاعيان ، وكان يسافر كل أسبوع أو أسبوعين الى الاقاليم تلبية لنداء مواطنيه ويبث دعوته بين الأعيان ، فكان لجولاته هذه أثر كبير فى ازدياد أنصاره

احتجاجه على تاليف المحكمة المخصوصة

فى ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٥ استصدر اللورد كرومر من الحكومة المصرية مرسوما بانشاء (المحكمة المخصوصة) لمحاكمة من يتهم من الأهالى بالتعدى على ضباط وجنود جيش الاحتلال بمصر ، وهى المحكمة التى صار لها شأن كبير فى حادثة دنشواى المشهورة كما سيجىء بيانه ، وينص المرسوم على تاليفها برياسة وزير الحقانية ، وعضوية

المستشار القضائى (الانجليزى) ، وقاض انجليزى من محكمة الاستئناف الأهلية ، والقائم بأعمال المحاماة والقضاء فى جيش الاحتلال البريطانى بالقاهرة أو الاسكندرية ، ومن يختاره وزير الحقانية من رئيسى محكمة مصر أو الاسكندرية الابتدائيتين ، أى أن الغالبية فيها للانجليز ، وقد جعلوا لها نظاما خاصا ، فلا تتقيد بأحكام قانون العقوبات

كان انشاء هذه المحكمة بمثابة انتقاص لسلطة القضاء المصرى ، وتثبيت لأقدام الاحتلال ، فتقدم الفقيد بجميع المصريين بالاحتجاج على تأليف هذه المحكمة الشاذة التى أثارت سخط الأمة ، ونشر احتجاجه فى جريدة الاهرام تحت عنوان (صواعق الاحتلال)

حضور النائب الفرنسى دلونكل

وفى مارس سنة ١٨٩٥ جاء مصر نائب شهير من أعضاء البرلمان الفرنسى وهو المسيو فرانسوا دلونكل ، للاطلاع على حالة مصر السياسية ، وكان الفقيد قد تعرف به بباريس فى صيف سنة ١٨٩٤ ، اذ كان يؤدى امتحان الحقوق ، وعرف عنه معارضته للسياسة الانجليزية وبخاصة فى الشرق ، وقرأ مقالاته فى الصحف الفرنسية ومناقشاته المهمة فى مجلس النواب الفرنسى عن المسألة المصرية ، فعنى باحاطته بكل صنوف الحفاوة ليكون فى حضوره والحفاوة به مظاهرة قومية ضد الاحتلال الأجنبى ، فسافر الى الاسكندرية مساء الخميس ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ لاستقباله ، والتقى به على رصيف البحر فى صبيحة اليوم

الثانى يصحبه كثير من الوطنيين ، وقدم له ولقرينته جميع اخوانه المصريين ، وكان للنائب القادم مكانة رفيعة فى نفوس الفرنسيين فكان فى استقباله قنصل فرنسا فى الثغر مع موظفى القنصلية وكثير من النزلاء الفرنسيين ، وقد رافقه الفقيد فى كل روحاته وغدواته بمصر ، وكان يقدم له اخوانه ومعارفه من الوطنيين

وقد أقيمت الحفلات والولائم للمسيو دلونكل ومكث بمصر زهاء عشرين يوما ألقى فى خلالها عدة خطب طعنا فى السياسة البريطانية ، وأقام بالقاهرة وليمة بفندق (تيسو أوتيل) قبيل رحيله الى فرنسا دعا اليها لفيفا من الصحفيين الوطنيين ، وألقى فيها الفقيد خطبة بالفرنسية شكره فيها على دفاعه عن القضية المصرية ، وبارح النائب الفرنسى الاسكندرية قاصدا فرنسا يوم السبت ١٣ ابريل سنة ١٨٩٥

الدعاية للقضية المصرية فى اوربا

رأى مصطفى كامل أن الدعاية للقضية المصرية فى الخارج من أمضى الاسلحة فى مجاهدة الاحتلال ، لأن المسألة المصرية كانت مجهولة للرأى الاوربى ، بل كانت الفكرة الذائعة عن المصريين أنهم راضون عن الاحتلال ، وأنهم أمة قانعة بالحكم الانجليزى ، ليس لها آمال ولا حقوق تطالب بها ، فنشط الى تعريف الرأى العام الاوروبى بحق مصر فى الاستقلال ، وبأن الأمة المصرية تكره الاحتلال ، ولا ترضى به بحال ، وأن بقاءه لا يضر بمصر فحسب ، بل يضر أيضا بالمصالح الاوربية عامة ، وقد كان

لدعايته أثر كبير فى احراج مركز الاحتلال ، وابراز عدم مشروعيته ، كما كان لها صداها فى مصر ذاتها ، اذ كانت وسيلة لنشر الحركة الوطنية ، لذلك كانت دعايته فى أوربا من أهم صفحات جهاده الوطني ، وكانت فى الوقت نفسه من دلائل عبقريته ، لأن اتصال شاب فى سنه بأقطاب السياسة فى أوربا من كتاب وسياسيين وأدباء وصحفيين ، واستطاعته الدفاع عن القضية المصرية على صفحات الجرائد الاوربية كل ذلك ليس من المهام السهلة التى يضطلع بها كل من يريد ، وانما هو عمل شاق يتطلب استعدادا وكفايات متعددة ، وجهودا هائلة اذا اجتمعت فى شخص واحد كان ذلك آية عبقريته ، ولا غرو فهو أول مصرى أسمع العالم صوت مصر وعرف الرأى العام الاوروبي من مقالاته وأحاديثه وخطبه أن على ضفاف النيل أمة تشكو الاحتلال وتطلب الحرية والاستقلال

كان الفقيد أول من فكر فى وجوب الدعاية لمصر فى الخارج ، وأول من أدى هذا الواجب الكبير

وقد سافر الى فرنسا فى مايو سنة ١٨٩٥ ، وقصد الى باريس ليرفع صوت الوطن ، وهناك اتصل بكثير من رجال السياسة والصحفيين ليعاونوه فى أداء رسالته

نداؤه الى مجلس نواب فرنسا

ابتكر سنة ١٨٩٥ طريقة للدعاية للقضية المصرية كانت أقوى أثرا من مئات المقالات يكتبها فى الصحف أو عشرات الخطب يلقيها فى المحافل ، وكانت مادة لنشر المقالات الجمة عن المسألة المصرية ، ذلك أنه وضع نداء الى فرنسا فى

شكل صورة رمزية سياسية قدمها الى مجلس نوابها تمثل مصر ترسف في قيود الاحتلال وتستصرخ فرنسا لتعاونها على تحريرها ، كما عاونت أمريكا وايطاليا واليونان وبلجيكا على نيل حريتها من قبل ، وجعل في ذيلها ثلاثة أبيات كتبت بالعربية وكتبت أمامها ترجمتها بالفرنسية

وضع مصطفى الصورة وطبع منها عدة آلاف من النسخ وذهب هو وستة من اخوانه المصريين الذين كانوا مقيمين بباريس الى سراى مجلس النواب يوم الاربعاء ٤ يونية سنة ١٨٩٥ لتقديم الصورة والكتاب المتصل بها ، فقابلهم المسيو بريسون رئيس مجلس النواب ، وتسلم منه الكتاب والصورة ، وأبدى عطفه على الأماني القومية المصرية وأرسل مصطفى عقب المقابلة نسخا من الصورة وللكتاب الى جميع صحف العالم ، كما وزعها على جميع النواب والصحفيين والسياسيين في فرنسا ، وأرسل الآلاف منها لتوزيعها في مصر

كان لهذا العمل دوى هائل في أوربا وفي مصر ، لأنه نداء غير مألوف من أمة كان الظن الغالب أنها راضية بالاحتلال ، وقد نوهت بذلك جميع الصحف الفرنسية وكثير من الصحف في أوربا وأمريكا ، فكان هذا النشر أكبر دعاية للقضية المصرية

وأهمية هذا العمل أنه لفت أنظار العالم الى المسألة المصرية ، وفي الحق ان هذا النداء كان أول صوت للشعب المصرى دوى في أوربا عقب الاحتلال ، مطالبا باستقلال مصر وحريتها ، ولم يكن ممكنا أن يرتفع صوت مصر بأكثر ولا أقوى مما ارتفع وقتئذ بهذا النداء ، وتناقل صداه في

الصحف الى جميع الآفاق ، فلقد كان استصراخا للانسانية يشبه استصراخ بولونيا للعالم ابان محنتها القومية ، وان دعاية الفقيد للقضية المصرية في أوربا بهذه الهمة وهذا الاقدام ، وهو يعد في الحادية والعشرين من عمره ، لأكبر مظهر من مظاهر عبقريته ، فان العمل الذى اضطلع به وحده قد تنوء به الجماعات والأحزاب ، وقد لفت هذا العمل أنظار المصريين الى شجاعة هذا الشاب وعلو همته، ودهشوا لجراته ، اذ نهض لمقاومة الدولة المحتلة في وقت كان أغلب كبراء مصر وعظمائها خاضعين للقنصل البريطاني العام ، فهذه الشجاعة التي بدت من مصطفى قد حببته الى نفوس المصريين ، وأخذ نداء الوطنية والاستقلال يلقى فيهم ملبيا وسميعا

حديثه في جريدة الجورنال

ونشرت له جريدة « الجورنال » الفرنسية وهي من أوسع الصحف انتشارا حديثا سياسيا عن مصر والمسألة المصرية كان له تأثير كبير في تبصير الرأى العام بمساوىء الاحتلال البريطاني ، وعلقت عليه جريدة « الاكلير » الفرنسية بقولها :

« لابد أن سيكون لمصطفى كامل المصرى دور مهم في المسألة المصرية لأن أسلوبه السياسى قائم على الصراحة والحق ، فهو يذكر بشجاعة وجلاء تلك المظالم الواقعة على المصريين من جراء الاحتلال الانجليزى الذى كلما مرت عليه السنون تجسمت فيه صروف الاعتداء على حقوق الناس »

أول خطبة له في أوربا

لم يكتف الفقيد بجهاده بقلمه في الصحف ، بل عمد الى الخطابة في المحافل ، فاقام اجتماعا يوم ٤ يوليه سنة ١٨٩٥ بمدرج كلية الآداب في تولوز التي نال منها شهادة الحقوق ، دعا اليه بعض أساتذة الحقوق وكبار الصحفيين والكتاب وذوي الرأي فيها ، وألقى بالفرنسية خطبة مسهبة ، هي أول خطبة سياسية لمصري في أوربا ، ذكر فيها اعتداء الاحتلال على حقوق مصر واستقلالها ، وأبان مبلغ نقض انجلترا لعهودها في الجلاء وتغلغلها في شئون مصر الداخلية في مختلف الوزارات ، واستنجد بأوربا وفرنسا لمعاونة مصر في استرداد استقلالها ، وشكر المدعوين على عطفهم على القضية المصرية ، فاعربوا له عن عواطفهم نحوه ونحو مصر .

ولقد كان لهذه الخطبة أثر كبير في فرنسا لأنها جاءت صدى للوطنية الصادقة التي يحترمها الجميع في فرنسا

ولم يقتصر مصطفى على الدعاية للقضية المصرية في فرنسا بل قصد الى النمسا ونزل بفينا عاصمتها في يوليه سنة ١٨٩٥ ، واتصل بكبار الصحفيين والسياسيين ، وأخذ ينادي بحق مصر في الاستقلال ويدافع عن كرامتها وحريتها

احرار في بلادنا ، كرماء لضيوفنا

عاد الفقيد الى باريس في ٨ أغسطس سنة ١٨٩٥ ونشر رسالة بالفرنسية بتاريخ ١٤ أغسطس عن « أخطار الاحتلال البريطاني » أبان فيها خطر الاحتلال على حقوق مصر ثم على

ألمصالح الأوربية عامة ، وقد وجه فيها الخطاب الى الرأى العام الأوروبى ليكسب تأييده للقضية المصرية ، وقد طبع هذه الرسالة وبعث بها الى جميع رجال السياسة والصحف الشهيرة فى أوربا ، فكان لها دوى كبير ، وجاءه نحو مائة جواب من مشاهير السياسيين فى فرنسا وغيرها يعلنون له فيها شكرهم وتهنئتهم

وفى هذه الرسالة قال كلمته الخالدة عن شعار مصر ومعاملتها لنزلائها الأجانب : « أحرار فى بلادنا ، كرماء لضيوفنا »

والرسالة تتضمن شرحا وافيا للمسالة المصرية ، وتدل على واسع اطلاعه على تاريخها ودقائقها ، كما تدل على نضجه الفكرى وبعد نظره السياسى

تعرفه الى مدام جولييت آدم

ان تعرف المترجم الى مدام جولييت آدم هو حادث مهم فى حياته السياسية والقومية ، فان مدام آدم هى من أعظم شخصيات فرنسا فى عالم الوطنية والسياسة والأدب ، وهى الكاتبة الكبيرة ذات الشهرة العظيمة والنفوذ الأدبى فى فرنسا ، وكان مشاهير الرجال من نواحى الأرض يرحلون اليها ويجتمع بدارها العلماء والأدباء وكبار القوم وملوك الشعر والأدب والسياسة

ولدت مدام آدم سنة ١٨٣٦ ، وتوفيت عام ١٩٣٦ ، أى أنها عمرت مائة عام ، وهى من أعظم من انجبتهم فرنسا علما وأدبا ووطنية ومكانة سامية ، وظلت موضع احترام مواطنيها طول سنى حياتها ، ووضعت سنة ١٩٢٢ كتابا

.قيما عن مصر أسماه « انجلترا في مصر » ، وهو من خير ما ألف في المسألة المصرية

وقد سعى الفقيد سنة ١٨٩٥ الى التعرف اليها ، اذ أرسل اليها من تولوز أول كتاب له في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥ ، وهو يصور لنا مقدار وطنيته ويصف مبلغ ايمانه برسالته القومية الكبرى ، في أفصح عبارة وأبلغ بيان ، قال :

« سيدتي — اني لا ازال صغيرا ، ولكن لي آمال كبارا ، فاني أريد أن أوقظ في مصر الهرمة مصر الفتاة ، هم يقولون ان وطني لا وجود له ، وأنا أقول يا سيدتي انه موجود واشعر بوجوده بما آنس له في نفسي من الحب الشديد الذي سوف يتغلب على كل حب سواه ، وساجود في سبيله بجميع قواي ، وأفديه بشبابي ، وأجعل حياتي وقفا عليه

« اني أبلغ من العمر احدى وعشرين سنة ، وقد نلت اجازة الحقوق من تولوز قبل سنة ، وأريد أن أكتب واخطب وأنشر الحمية والاخلاص اللذين أشعر بهما في سبيل رفعة الوطن العزيز ، وقد قيل لي أكثر من مرة انى أحاول محالا ، وحقيقة تصبو نفسي الى هذا المحال ، فاغنينيني يا سيدتي ، فانك من الوطنية بمكان يفردك بمزية تقدير قولي وتقوية عزمي وشد أزري ، وتقبلي تحية واحترام
مصطفى كامل ».

وأرسل لها ضمن كتابه رسالته عن « أخطار الاحتلال البريطاني على مصر » ، فلبت مدام آدم نداءه ، وكتبت اليه ترحب بدعوته ، فجاء وقابلها ، وما أن عرفته وأدركت

سمو آماله في تحرير بلاده حتى ازدادت به اعجابا ، وتوثقت بينهما من ذلك الحين أواصر الاتصال الروحي ، اذ كان الفقيد يعدها أما روحية له ، وقد عرفته بكبار السياسيين وأصحاب الصحف والمجلات في فرنسا

خطبته في الجمعية الجغرافية بباريس

وألقى في الجمعية الجغرافية بباريس يوم ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٥ خطبة كبرى بالفرنسية موضوعها « الاحتلال الانجليزي في مصر » ، وذلك في اجتماع حافل حضره مشاهير السياسيين والكتاب والعلماء والنواب في فرنسا ، وكثير من نزلاء باريس ، فقوبلت بالتصفيق والاستحسان ، واقتبست الصحف الباريسية كثيرا من فقراتها ، ومما يذكر عن هذا الاجتماع أن مصطفى كامل دعا اليه ضمن من دعاهم الفيلسوف الفرنسي الشهير (جول سيمون) وكان يبلغ وقتئذ الحادية والثمانين من عمره ، فأرسل اليه كتاب اعتذار قال فيه : « ان كبر سنه وهو في الحادية والثمانين يمنعه عن الحضور ولكنه لا يمنعه من أن يقول انه أكثر الناس حبا لمصر واهتماما بشأنها »

خطابه الى جلادستون في شأن الجلاء

وقد فكر وهو في باريس أن يواجه المستر جلادستون شيخ الأحرار في انجلترا ـ وكان قد اعتزل الوزارة ـ ويذكره بآرائه في الجلاء ، حين كان رئيس الوزارة البريطانية سنة ١٨٨٢ وأدلى بتصريحات عدة في البرلمان

الانجليزى بأن انجلترا لا تنوى نقض عهـودها فى الجلاء ، فأرسل اليه الخطاب الآتى تعريبه :

« باريس فى ٢ يناير سنة ١٨٩٦ ــ سيدى المبجل

« اسمحوا لأحد أبناء وادى النيل ، لوطنى لا أمنية له الا تحرير بلاده ، أن يقصدكم اليوم ليسألكم رأيكم عن حل مسـألة مصر ، فقد كنتم منذ احتلت انجلترا وطننا أشـد نصراء الجـلاء ، وجاهرتم مرارا عديدة بأعلى صـوتكم أنه لا يليـق ببريطـانيا العظمى أن تحتـل مصر الى أجل غير محدود فان عملا كهذا يمس شرفها أشد المساس

« لقد سجلنا كل تصريحاتكم فى هذا الصدد ، ولو أنكم لم تستطيعوا الوفاء بوعودكم عندما كانت السلطة فى يدكم لأسباب نجهلها جهلا تاما ، فاننا لا نزال نظن أن اعتقادكم الآن كاعتقادكم فى سـالف الزمن ، أى أنه ليس لمسـألة مصر الا حل واحد وهو الجلاء

« ولهذا رأيت من المفيـد أن أرجو منكم فى هذا الوقت الذى اضـطربت فيه أحوال المسـألة الشرقية أن تعرفونا حقيقة احساسكم نحو بلادنا

« فان كنتم لا تزالون من نصراء الجلاء كمـا نظـن ذلك فمتى تظنـون أنه يمـكن تحقيق هذا الجلاء المنتظر من عهد بعيد ؟

« وفضلا عن ذلك فان تصريحـا منكم فى مسـألة مصر يكون له أعظم قيمة فى هذه الأيام التى يحسب فيهـا الجم الغفير من أبناء ديننا المسلمين أنكم أكبر عدو رآه الاسلام ،

وانى مع انتظارى الجـواب على كتابى هذا أرجو منكم أيها السيد المبجل أن تتفضلوا بقبول عظيم احترامى »

« مصطفى كامل »

وقد أرسل المستر جلادستون الى الفقيد على غير تعارف بينهما جوابا رقيقا ردا على كتابه ، أقر فيه بأن زمن الجلاء عن مصر قد وافى منذ سنين ، فكان جوابه وثيقة هامة فى المسألة المصرية سـجلت على انجلترا مركزها غير المشروع فى مصر ، كما سجلت لمصر حقهـا فى الجـلاء وهذا تعريب الخطاب :

« سـيدى العـزيز - انى أسـتحسن ما فهمتـه من احساساتكم نحو بلادكم باعتبار كونـكم مصريا ، ولكننى مجرد بالمرة من كل سلطة

« أما آرائى فانهـا لم تتغير قط ، وهى دائما أنه يجب علينـا أن نترك مصر بعـد أن نتمم فيهـا بكل شرف وفى فائدة مصر نفسها العمل الذى من أجله دخلناها

« وان زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنين

« ولما كنت فى منصبى أخيرا رجوت مساعدة الحكومات الاخرى توصلا الى تسوية هذه المسألة المهمة ، والسـلوك الذى اتبعه مسيو وادنجتون فى عام ١٨٩٢ شجع أملى ، غير أن المخابرات لم تخط خطوة واحدة مع عظم ما أملنا اذ ذاك، ولست أدرى لأى سبب

« ولقد جاهرت بكل تصريحاتى فى مجلس النواب سنة ١٨٩٣ ، ولم يبـق عنـدى شىء أضيفه عليهـا ، وقد كنت مستعدا لعمـل كل ما هو حسن فى سـبيل اعطـاء آرائى تاثيرها ، الا أننى تركت المنصـب بالمرة ، ولست الآن الا

أحد أبناء بلادي الخصوصيين ، واني أتشرف بأن أكون لك الخاضع الصادق »

بيارتز في ١٤ يناير سنة ١٨٩٦ » و « جلادستون »

كان لخطاب مصطفى ورد جلادستون دوى كبير في الدوائر السياسية ، اذ جاء حجة على انجلترا في اخلافها عهودها في الجلاء ، وجاء شهادة قيمة من كبير الأحرار الانجليز، الذي وقع الاحتلال في عهد وزارته ، بأن لامسوغ لبقاء الاحتلال ، فكان الرد انتصارا كبيرا لجهاد مصطفى كامل ، وقد تناولت الصحف الأوروبية الخطابين بالتعليق ، وعلا شأن الفقيد اذ ظهر في أوربا بأنه ترجمان مصر المعبر عن آمالها ومطالبها

اول خطبة وطنية له بالاسكندرية

لما عاد مصطفى كامل الى مصر في يناير سنة ١٨٩٦ اتجهت اليه أنظار المصريين وتعلقت به آمالهم ، وتفتحت بتأثير جهاده عواطف الوطنية في قلوبهم ، وتردد صدى خطبه ومقالاته في أرجاء البلاد ، فأخذت القلوب تلتف حوله كزعيم للحركة الوطنية ومحرر للبلاد ، ومناد بالجلاء ، وقد اعتزم عند عودته القاء خطبة وطنية كبرى في مدينة الاسكندرية ليتصل بقلوب الجماهير مباشرة ، ولعله اختار القاءها هناك لما كان يأنسه في أهلها من الحماسة والوطنية

ذهب المترجم الى الاسكندرية يوم ٢٨ فبراير سنة ١٨٩٦ لالقاء خطبته ، ونزل باوتيل (آبات) بالمنشية ، ولكن صديقه اسماعيل بك شيمي ، وكان وقتئذ قاضيا بمحكمة

الاسكندرية المختلطة ، أبى الا أن يستضيفه بمنزله على شاطىء البحر (بجهة الأنفوشى) ، فقبل الدعوة ، ونزل ضيفا كريما بداره ، وما أن علم أعيان الاسكندرية وأهلها بمقدمه حتى أخذوا يتوافدون على دار شيمى بك ليظهروا للفقيد اعجابهم به ، وتقديرهم لجهاده فى سبيل مصر ، وليعربوا له عن تأييده والالتفاف حوله ، فكانت الدار مدة اقامته بها مهوى أفئدة الوطنيين ، وقد ألقى خطبته يوم الثلاثاء ٣ مارس فى المسرح العباسى ، وكان الاجتماع حافلا بالمستمعين من صفوة القوم ، وقد حضره بعض النزلاء الأجانب ، وكان الزحام شديدا اذ لم يبق مكان فى التياترو خاليا ، وارتد المئات من الناس عن بابه من كثرة الزحام ، وقوبلت الخطبة بالتصفيق والحماسة والاستحسان ، وكان موضوعها حث المصريين على التمسك بحقوقهم فى الاستقلال والمطالبة بالجلاء ، واستثارة روح الكرامة والأمل فى قلوبهم ، وقد طلب الخطيب من الحاضرين فى نهاية خطبته أن يقروا نداءه بالجلاء برفع أيديهم ، فأقروا بالاجماع نداءه ، فكانت مظاهرة قومية رائعة

كان لخطبة المترجم دوى عظيم فى الاسكندرية ، تردد صداه فى أرجاء مصر ، وظهر تأثيرها فى نفوس الاسكندريين يوم عودته الى العاصمة ، فكان توديعه بمحطة الاسكندرية مظاهرة وطنية ، اذ اجتمع على رصيف المحطة جمع كبير من الاسكندريين وفى مقدمتهم أعيان المدينة وفضلاؤها لتوديع الضيف الكريم

وقدموا له وساما من الفضة رسم على أحد وجهيه صورة السعف المصرى ومسلة الثغر وكتب على الوجه الآخر هذه

الجملة : « برهان الاخلاص من أهالي الاسكندرية • للوطني الغيور مصطفى كامل »

فتقبل الهدية شاكرا ، وأمطرت عليه باقات الأزهار والرياحين ، وما كاد القطار يتحرك حتى هتف له الجمع الحاشد هتاف الاخلاص والحب وهو يرد التحية شاكرا

كتاب المترجم الى أهالي الاسكندرية

أثرت مظاهر الحفاوة التي لقيها الفقيد من أهالي الاسكندرية في نفسه تأثيرا كبيرا . وأدرك منها أن دعوة الوطنية تلقى من الشعب استعدادا لقبولها ، فنشر في المؤيد كتاب شكر لهم أعرب فيه عن اغتباطه لتلبيتهم داعي الوطنية قال :

« أبناء وطني الأعزاء • يعجز قلمي ولساني أن يؤديا لكم واجب الشكر على ما أظهرتموه نحوي من العواطف الشريفة ، وما أبديتموه لي من علامات الود والاكرام ، ولولا أني معتقد أنكم لم تقصدوا بمظاهرتكم نحو أضعف خدمة الوطن الا اعلاء منار الوطنية ورفع شأن الوطن العزيز لكنت أخجل أن أمسك القلم وأسطر هذه السطور

« وان الأمة المصرية لذاكرة كلها مظاهرة (٣ مارس) الشريفة التي أظهرتم فيها رغائبكم وطالبتم بحريتكم وسعادتكم الاجتماعية ، وبرهنتم على أنكم تقدرون الوطنية الصادقة حق قدرها وتعرفون مزية السكينة والاعتدال في خدمة الأوطان ، فاعملوا دائما بهذه المبادىء السامية لتبلغ الأمال وتشرق لنا شمس السعادة والاقبال

« وما مثلى أمامكم ومثلنا جميعا أمام الوطن العزيز الا كمثل رجل وجد أمه عليلة سقيمة فأحس من نفسه الحنو والشفقة عليها فقام مناديا اخوته للعمل معه لشفاء علتها حيث وجدهم جميعا يحسون نفس احساسه ويشعرون شعوره ، ففرح بهم وفرحوا به واجتمعوا على خير أمهم المحبوبة

« فليتم لنا هذا الاجتماع المرغوب حتى يبرأ الوطن من علته ويسلم من دائه العضال ، دمتم له يا أعز بنيه وأصدق حماته »

مصر فى ١٠ مارس سنة ١٨٩٦

مصطفى كامل

خطبته بالفرنسية فى الاسكندرية

فى أوائل ابريل سنة ١٨٩٦ طلب لفيف من الأوربيين بالاسكندرية من مصطفى كامل أن يلقى خطبة يشرح لهم فيها القضية المصرية وموقف المصريين من الجاليات الاجنبية، فلبى الدعوة ، وألقى بمسرح زيزينيا بالاسكندرية يوم ١٣ ابريل خطبة بالفرنسية ، كانت فوزا كبيرا له وللقضية الوطنية ، فقد ازدحم المسرح بالحاضرين ، وكانوا نحو ألف من خيار النزلاء مختلفى الأجناس رجالا ونساء ، ومنهم بعض الانجليز ، وفى مقدمتهم بعض القناصل والشخصيات البارزة من الجاليات الأجنبية وأعيان التجار ، وجموع كثيرة من صفوة الوطنيين الذين يعرفون اللغات الأجنبية ، وألقى المترجم خطبته بلغة فرنسية فصيحة ، وصوت رنان ، واستمر يخطب ساعة ونصفا ، كان فى خلالها يقابل

بالتصفيق والاستحسان والاعجاب ، مما دل على مبلغ تأثيره في نفوس السامعين ، ومعظمهم من الأوربيين

وكان الموقف حقا يدعو للاعجاب ، لان تلك أول مرة بعد الاحتلال يلقي فيها خطيب مصرى على جمع من الاوربيين في مصر خطبة بلغة أوربية ، مدافعا عن القضية الوطنية ، مناديا بالجلاء ، وقد ظهر هذا الاعجاب فيما كتبته الصحف الأوروبية عن الاجتماع ، قالت جريدة « الفارد الكسندرى » : « عندما ظهر الخطيب على مسرح الخطابة قدم له جماعة من أبناء وطنه باقات كثيرة من الزهور دليلا على حبهم له وتاييدهم لخطته ، فكان يتكلم وسط الزهور والرياحين بلسان بديع في الفرنسية ، وباسلوب خطابى ، وصوت جهورى ، مما أثر تأثيرا قويا في السامعين » ، وقالت جريدة الريفورم : « ان هذا الجهاد الذى يقوم به مصطفى كامل لجدير بالفخر ، فلقد أمكنه أن يتكلم فوق ساعة ونصف بلسان أجنبي عنه ، دون أن يمل سامعوه ، ودون أن يستعمل الفاظا نابية عن الذوق ، وبرعاية وتحفظ تامين ، ومن البديهى أن الذى يبلغ درجة كهذه لابد أن يكون له شأن كبير ، ولقد سمعت بنفسى خصوما مجاهرين بمعارضتهم لآراء مصطفى كامل يعترفون بفضله وكفايته »

استئناف الجهاد في اوربا

وفي اغسطس سنة ١٨٩٦ أبحر الفقيد الى فرنسا ليستأنف جهاده في اوربا ، فنشر الدعاية للقضية المصرية في فرنسا ثم في المانيا والنمسا ثم في تركيا وعاد الى مصر في نوفمبر سنة ١٨٩٦

وقد أنهكه الجهاد في ذلك العام فاستقبل عام ١٨٩٧ وهو على فراش المرض من كثرة أعماله ورحلاته ، وبعد أن أبل من مرضه نصحه الأطباء بالاستجمام فى حلوان لكى يسترد صحته ، فقضى بها نحو أسبوعين ، وما أن عادت اليه قواه حتى عاد الى ميدان الجهاد والنضال

وفى مارس سنة ١٨٩٧ رحل الى أوربا ليرفع فى عواصمها صوت مصر فطاف بفرنسا والنمسا والمجر وألمانيا بعد أن أفاض فى أحاديثه فى الصحف الأوربية دفاعا عن القضية المصرية

وعاد الى مصر فى مايو من تلك السنة ووافقت عودته انتصار الجيش التركى فى الحرب اليونانية

تعلقه بالجلاء

وظهر تعلقه بالجلاء فى برقية بعث بها الى حكومة الآستانة لمناسبة انتهاء الحرب بين تركيا واليونان ، فقد أعرب فيها عن رجائه أن يشترط السلطان على دول أوربا لعقد الصلح جلاء الانجليز عن مصر ، مقابل جلاء الجيش العثمانى عن بلاد اليونان ، وقد كان الاقتراح آية فى الوطنية ، اذ دل على أن قضية استقلال مصر كانت تشغل فؤاده طول حياته ، وقد هاج اليونانيون القاطنون بمصر لهذا التلغراف ، وكتبت جريدة « الفارد الكسندرى » اليونانية ، تعليقا عليه اتهمت فيه الفقيد بكراهيته الشديدة لليونان ، واستندت الى أنه يطلب من السلطان بقاء الجنود التركية فى تساليا ما دام الانجليز فى مصر ، فأرسل الى جريدة « الفارد الكسندرى » ردا على مقالها

كتــابا بتــاريخ ١٦ مايو ســـنة ١٨٩٧ نشرته جريدة « الريفورم » دافع فيه عن موقفه وتساءل لماذا تتدخل أوربا فى المشــكلة التركية اليــونانية ولا تتــدخل فى المســألة المصرية ؟ وقال ان الــدول الأوربيــة التي تريد أن تجبــر تركيا على احترام رغبتها وسحب جنودها من بلاد اليونان يجب عليها أيضــا أن تجبر انجلترا على الجــلاء عن مصر ، وعقب على ذلك بقــوله مخــاطبا مدير جريدة الفــارد الكسندرى ـ وهو من كبار اليونانيين ـ قائلا : « هذا هو رأيى وهذا هو فكرى ، ولعله لا يرضيك ، ولعلك يا حضرة المدير لا توافق على آرائنا وافكارنا ، ولكن يجب عليك أن تحترمها كما أننا نحترم احســاســاتك وآراءك ، فأنت ترى الأشياء من وجهة المصلحة اليونانية ، وأنا أراها من ناحية المصلحة المصرية ، ومن العدل أن يــكون كل منــا لوطنه ، لا لغير وطنه »

وقد رأى من الصحف الأوربية المحلية حملة شعواء على الأمــة المصرية لما أبدته من العطف على تركيــا فى الحــرب اليونانية ، فاعتزم القاء خطبــة فى الاســكندرية دفاعا عن موقف الأمة من هذه المسألة

ألقى هــذه الخطبــة يوم ٨ يونيــه ســنة ١٨٩٧ بمسرح زيزينيا فى اجتماع حافل حضره ألفان من صفوة القوم من الاســكندرية والاقاليم ، وبعض النزلاء الأجانب ، وقوبل أثناء خطبته وبعد انتهائهــا بالتصــفيق والهتــاف ، وكان موضــــوع الخطبــة حث المصريين على التــواصى بالوطنيــة والاخلاص لمصر ، ومحاربة اليأس ، واستثارة روح الكرامة والاباء فى نفوسهم ، ودعا الى البذل والتضحية فى ســبيل مصر ، وحض على دوام الاتحــاد بين المســلمين والاقباط ،

وحبب الى الشباب الاقبال على الحياة الحرة ، والاعراض عن الوظائف ، وأهاب بسراة البلاد وأعيانها أن يبذلوا من أموالهم وجهودهم لنشر التعليم القومي في أرجاء مصر

وسافر الى أوربا في أواخر هذا الشهر ، واستأنف نضاله عن القضية الوطنية في العواصم الأوربية على صفحات الجرائد وفي المحافل والمجتمعات

وعاد الى أرض الوطن في أكتوبر من تلك السنة (١٨٩٧)

ولم يمض يومان على عودته حتى اعتراه مرض أصابه من اجهاد نفسه في العمل والكفاح ، فأنهك قواه ، وأقلق بال اخوانه وأنصاره .. فنصح له الاطباء أن يقضي الشتاء في حلوان كما عمل في العام الماضي ، فعمل بمشورتهم وقصد اليها حتى أبل من مرضه في أواخر شهر نوفمبر ، فعاد منها سليما معافي ، واستأنف جهاده الوطني والسياسي

الصــدمة الأولــى

حادثة فا شودة واتفاقية السودان

الصدمة الأولى

استهل الفقيد عام ١٨٩٨ وقد استرد صحته وكله أمل ونشاط فى الجهاد ، وكان جهاده سنة ١٨٩٧ قد أتى ثمره ، اذ تحركت فى النفوس فكرة الوطنية بتأثير دعوته الصادقة ومقالاته وكلماته وخطبه ورحلاته ورســائله فى الدفاع عن القضية المصرية

بدا أثر هذه الدعوة أوائل سنة ١٨٩٨ ، اذ اتفق الشباب المثقف من طلبـة المدارس العليـا على اقامـة حفلة وطنيـة كبرى كان المترجم خطيبها ورئيسها ، واختاروا لها حديقة الأزبكيـة بالمطعم الذى كان مشـهورا باسـم « سانتى » ، وحددوا لها يوم ٨ يناير عيد جلوس الخديو عباس الثانى ، وألفوا لجنة لتنظيم هذه الحفلة ، وقد أقيمت الحفلة ، فكانت آية فى الجلال والبهاء ، والقى فيها الفقيد خطبة مستفيضة من أعظم خطبه الوطنية ، مجد فيها الوطنية ودعا الشباب الى الحياة الحرة والعزوف عن المناصب الحكومية والاتحاد تحت لواء الجهاد

وفى ابريل من تلك الســنة ظهر كتـابه عن « المســألة الشرقيــة » وهو كتـاب قيم شرح فيــه تطـورات المســألة الشرقية وموقف الدول الأوربية ، وبخاصة انجلترا حيالها ، وأفاض فى تعريف المسألة الشرقية وبيان حوادثها فى القرن الثامن عشر ثم التاسع عشر ، مستطردا الى ذكر اســتقلال اليونان ثم مسألة سورية بين محمــد على وتركيا ، وحرب القـرم ، ومؤتمـر برلين ، ثم شرح المســـألة المصرية ، ثم

المسائل البلغارية واليونانية . ويرمى الكتاب الى تحبيب الاستقلال الى الامه واحياء الشعور الوطني في نفوس قرائه

وسافر من الاسكندرية في يونيه سنة ۱۸۹۸ ليواصل جهاده في أوربا ، ونشر في الصحف الأوربية المقالات والاحاديث دفاعا عن مصر

ثم ألقى بباريس خطبة سياسية في سبتمبر سنة ۱۸۹۸ ، وعاد الى مصر فوصلها يوم ١٨ سبتمبر ، وله في « المؤيد » مقالات قيمة نشرها في سبتمبر من تلك السنة

حادثة فاشودة

وقعت في سنة ۱۸۹۸ حادثة خطيرة كان لها وقع شديد في النفوس وأثر بالغ في مصير المسألة المصرية ، ونعنى بها حادثة (فاشودة) التي اهتزت لها أوربا بأسرها وكادت تؤدى الى نشوب الحرب من أجلها بين فرنسا وانجلترا

اشتد التنافس بين انجلترا وفرنسا على اقتسام مناطق النفوذ في أفريقية ، فاعتزمت فرنسا تجريد حملة لاحتلال مركز هام في أعالي النيل ، وكانت ترمى بهذه الحملة الى صد التيار الانجليزى في باطن أفريقية ، ثم الى فتح باب للمسألة المصرية برمتها واجبار انجلترا على تنفيذ عهودها في الجلاء عن مصر ، ومن هنا جاءت أهمية الحملة المعروفة بحملة مارشان على فاشودة

عهدت فرنسا في سنة ١٨٩٦ الى الكابتن « مارشان » بالزحف على فاشودة الواقعة على النيل واحتلالها ، وقد اختارت هذه النقطة لأهميتها من الوجهة الحربية والجغرافية، فهى تعد مفتاح النيل الأعلى ، اذ تقع على ملتقى الطرق المختلفة الواصلة من الخرطوم والحبشة الى جنوب السودان ،

وعلى مقربة من ملتقى روافد النيل ، كنهر سوباط وبحر الغزال وبحر الزراف ، ومن يملكها يضمن النفوذ فى شمال السودان وجهات خط الاستواء

صدع الكابتن (مارشان) بأمر حكومته : وسار على رأس كتيبة من الجند قاصدا فاشودة ، فقضى عامين فى طريقه اليها يعانى المشاق والمتاعب المضنية فى مجاهل أفريقية ، حتى بلغها واحتلها فى يوم ١٠ يوليه سنة ١٨٩٨، وكان احتلالها ايذانا بفتح باب المسألة المصرية

أدركت انجلترا غرض فرنسا من هذه الحملة ، فبادرت الى العمل لاجلائها ، وهنا ظهرت ـ مؤقتا ـ بمظهر المدافع عن مصر المؤيد لها ، فاعترضت باسمها على هذه الحملة ، واحتجت عليها باعتبار أن فاشودة أرض مصرية ، وسار اليها اللورد كتشنر سردار الجيش المصرى وفتنذ على رأس قوة مؤلفة من ١٨٠٠ جندى مصرى ومائة جندى بريطانى ، فوصلها فى سبتمبر سنة ١٨٩٨ ، وهناك التقى بالكابتن مارشان ، واحتج على احتلاله بلدا مصريا ورفعه العلم الفرنسى « على أملاك سمو الخديو » وأبلغه أن هذا الاحتلال يعد انتهاكا لحقوق مصر ، وأنه قد جاء ليرفع العلم المصرى على فاشودة ، وكان مرشان يعلم أن لا قبل له بمقاومة القوة المصرية التى جاءت لاجلائه عنها اذ لم يكن لديه سوى تسعة ضباط فرنسيين ومائة وعشرين جنديا من أهالى السنغال ، فلم يقاوم ، ورفع المصريون عليها العلم المصرى

اشتدت الأزمة السياسية بين انجلترا وفرنسا على أثر هذه الحادثة ، وكان الظن أن تتمسك فرنسا بموقفها ،

وتفتح باب المسألة المصرية ، وتضطر انجلترا الى الجلاء عن مصر ، مقابل جلاء الفرنسيين عن فاشودة ، وقد استيقن المصريون أن آمالهم فى الجلاء ستتحقق ، اذ كانوا يعتقدون أن فرنسا لا تقدم على هذا التحدي لانجلترا الا وهي مصرة على المضي فى سياستها الى النهاية ، وكذا الخلاف بين الدولتين يصل الى امتشاق الحسام بينهما ، فعظم بذلك شأن المسألة المصرية ، وقويت آمال المصريين فى الاستقلال، ولكن فرنسا تخاذلت وتراجعت آخر الامر ، وخشيت مغبة الحرب ، اذ لم تتقدم حليفتها الروسيا لمعاونتها ، فسلمت بوجهة نظر انجلترا ، وأمرت مارشان بالجلاء عن فاشودة ، وتم جلاؤه عنها يوم ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٨ ، فكان هذا التسليم أكبر صدمة سياسية أصابت الحركة الوطنية ، لأنه دل على أن فرنسا لا تنوى معارضة انجلترا فى احتلال مصر والتصرف فيها كما تشاء ، ودل على نية الانجليز فى دوام احتلالهم لمصر والسودان ، فزلزل هذا الحادث أمل المصريين فى الاستقلال

كان انسحاب مارشان من فاشودة انتصارا كبيرا للسياسة الانجليزية ، وايذانا باصرارها على البقاء فى مصر والسودان ، وتجاهل عهودها في الجلاء ، فجنح معظم رجالات مصر الى الولاء للاحتلال البريطاني واكتساب رضاه ، اذ رأوا فى حادثة فاشودة برهانا جليا على رسوخ أقدامه فى البلاد

وقد كان لها كذلك تاثير كبير فى موقف الخديو ، اذ أخذ يذعن للأمر الواقع ويتودد الى الاحتلال ، وكان أول مظهر لهذه السياسة الجديدة زيارته للندن سنة ١٩٠٠ ، وفى ذلك يقول مصطفى كامل فى رسالته الى مدام جولييت

آدم فى ٢ يونيه سنة ١٩٠٠ : « أبعث اليك مع هذا بمقالة تفصح لك عن شعورى والشعور الأهلى نحو سياحة الخديو فى لندن تلك السياحة التى آلمتنا كثيرا ، وما ذلك وا أسفاه الا نتيجة فاشودة »

والواقع أن حادثة فاشودة كانت فوزا كبيرا للاحتلال وصنائعه فى مصر ، وبعثت اليأس فى نفوس الوطنيين ، واعتقدوا أن لا منجاة لمصر من الاحتلال بعد أن أذعنت فرنسا للسياسة الانجليزية فى تلك الحادثة ، وخمدت جذوة الوطنية فى النفوس ، ولكنها لم تخمد فى نفس مصطفى كامل ، بل ضاعف جهاده وكفاحه ، بمقدار ما ازدادت العقبات والمصاعب فى طريقه ، وأخذ يفكر من ذلك الحين فى انشاء صحيفة يومية تغذى النفوس والعقول بمبادىء الوطنية والكرامة والأمل والجهاد

وقد كان يتألم اذ يرى كبار المصريين وذوى الشخصيات البارزة منصرفين عن الجهاد ، ويرى نفسه يكاد يكون وحيدا فى الميدان ، لكنه مع ذلك يثابر فى جهاده بالرغم من العوامل المثبطة التى تكتنفه

لا معنى للحياة مع اليأس

وألقى فى ديسمبر سنة ١٨٩٨ خطبة وطنية بالتياترو الطليانى بالأزبكية موضوعها (واجبات المصريين نحو وطنهم العزيز) ، كانت بمثابة رد فعل لحادثة فاشودة ، فحمل على اليأس حملة صادقة ، واستثار فى النفوس روح الأمل والواجب ، وفى هذه الخطبة قال كلمته المأثورة : « لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة » ، وأعرب

عن أمله من روح النفعية والتردد والهزيمة التى كانت فاشية فى المجتمع

ثم دعا الى قيام كل مصرى بواجباته الوطنية ، والى نشر التعليم القـومى وتربيـة النشء تربية وطنية دينية ، وفى الجمـلة كانت هذه الخطبـة من أقوى خطبه ودلت على مبلغ ما كان يعانيه من المتاعب والآلام فى بعث الحركة الوطنية فى جو مشـبع بروح التخـاذل والاستسلام وايثار المصـالح الشخصية على المصلحة القومية

اتفاقية السودان ـ ١٨٩٩

صدمت الحركة الوطنية فى مستهل سنة ١٨٩٩ صـدمة جديدة بتوقيع اتفـاقية السودان فى سـنة ١٨٩٩ ، تلك الاتفاقية المشئومة التى خولت انجلترا رسميا حق الاشتراك فى ادارة شؤون الحكم فى السودان ورفع العـلم الانجليزى بجانب العلم المصرى فى أرجائه كافة ، وتعيين حـاكم عام للسودان بناء على طلب الحكومة البريطانية ، ونتيجـة ذلك ولا ريب هو سلخ السودان فعلا عن مصر واستئثار الحكومة الانجليزية بحكمه وادارته ، وقد جاءت هذه الاتفاقية منافية للحجج التى كانت انجلترا تتذرع بها فى حادثة فاشودة ، فان حجتها الظاهرة فى تلك الحـادثة انه لا يحق لفرنسـا احتلال فاشودة لأنها أرض مصرية ، وهكذا أعلنت الحكومة الانجليزية بين أرجاء العالم أن السـودان جزء لا يتجزأ من مصر ، وصرح اللورد سالسبرى وزير خارجية بريطانيا فى هذا الصدد : « بأن وادى النيـل كان ولا يزال ملكا ثابتـا لمصر ، وأن حجج الحكومة المصرية فى ملكية مجرى النيل وان

اخفاها نجاح المهدى الا أنها ليست محلا للنزاع منذ انتصار الجنود المصرية على الدراويش » ، وهكذا كانت انجلترا تنادى باحترامها لحقوق مصر ، وتعلن أن السودان أرض مصرية وتنكر على فرنسا احتلالها فاشودة باعتبارها بقعة مصرية ، ولكنها ما لبثت أن تنكرت لهذه الحقوق بعد انسحاب فرنسا من أعالى النيل ، فكان أول اعتداء منها على هذه الحقوق اكراهها الحكومة المصرية على توقيع اتفاقية السودان فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، قبل أن تمضى أشهر معدودة على انسحاب الكابتن مارشان من فاشودة ، وليس يخفى أن هذه الاتفاقية فيها الاعتداء الصارخ على وحدة مصر والسودان ، وفيها فصم لعرى الارتباط الوثيق بين جزئين لا يتجزءان من أرض الوطن الواحد ، ولكن استسلام وزارة مصطفى فهمى باشا جعلها تقبل كل ما أراده الانجليز

فوجئت الأمة بامضاء هذه الاتفاقية ، بعد أن وقع عليها بطرس باشا غالى بالنيابة عن الحكومة المصرية ، باعتباره وزير خارجيتها ، واللورد كرومر بالنيابة عن الحكومة الانجليزية ، ولم يذع أمرها الا عقب امضائها ، وكانت الصحف تجهل أمرها ، ولم تنشر شيئا عن مقدماتها ولا المفاوضات بشأنها ، بل لم تحصل مفاوضات ما فى صددها ، وانما هى ارادة اللورد كرومر أملاها على وزارة مصطفى فهمى باشا ، فقبلتها بلا مناقشة ولا شعور بالواجب

وقد احتج الفقيد على هذه الاتفاقية الباطلة وأسمع العالم صوته المدوى كعادته فى الدفاع عن القضية الوطنية

دعوته الى نشر التعليم القومى

اتجهت عزيمة المترجم منـذ سـنة ١٨٩٩ الى حث الأمة على نشر التعليم القومى فى أرجاء البـلاد لكى تقوى الروح الوطنية فى نفوس الجيل الجديد ويستعد الشباب للاضطلاع بأعباء الجهاد .

وكان من أثر دعوتـه الى نشر التعليم القـومى أن هزت الأريحية اثنين من الشبان الوطنيين فاسسا فى سنة ١٨٩٩ فى جهة باب الشعرية مدرسة أهلية سمياها باسم الفقيـد ثم تولاها بنفسه واضطلع بادارتهـا ونفقاتها ، وقد قبـل هذا العبء الى جانب أعبائه السياسية والوطنية ، لآنه رأى فى انشاء هذه المدرسة وادارتها توجيها للنشء الجديد الى التربية القومية التى تغرس فى نفوسهم الفضائل الوطنيـة والدينيـة ، وعنى الفقيـد بأمر هذه المدرسـة ووضـع لها برنامجا صالحا يجمع بين التعليم وتهذيب الاخلاق ، وكان يقيم فى ختام كل عام دراسى احتفالا سنويا لتوزيع الجوائز على النابغين فى المدرسة تشـجيعا لهم على الاسـتزادة من العلم ، وكانت هذه الاحتفالات تجمع أكابر القوم ، وكان المترجم يلقى فيها خطبا جامعـة تزيد من روعتها وتعلى من قدرها .

والقى يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩ خطبة رائعة بالتياترو الطليانى كان لهـا دوى كبير فى جميع المحافل والدوائر ، افتتحها بالكلام عن مصر فى عهد الاحتلال قائلا : « انه كلما تقادم هذا العهد تضاعفت واجباتنا نحو الوطن العزيز ، فقد ظهر للعالم أجمع أن انجلترا تعمل للاستيلاء على مصر ووادى

النيل ، وترمى الى نزع كل سلطة من أيدى المصريين ، وتحقق للعامة والخاصة أن المدنية الانجليزية لا تعرف في سياستها مع الأمم الضعيفة معنى للوعود والعهود ، ولا ترعى حرمة للعدل والانصاف »

وطعن فى سياسة أوربا قائلا :

« كنا نود من صميم أفئدتنا أن يقوم الانجليز بوفاء وعودهم واحترام شرف عهودهم ، وأن يبرهنوا للعالمين أن المدنية الصحيحة هى المدنية القائمة على الفضائل الحقيقية ، المنافية لاغتيال حقوق الأمم ، ولكن من سوء حظ النوع البشرى أن المدنية الحاضرة أبطلت الرق فى الأفراد وأعلنته فى الشعوب واستهجنت مخالفة الذمة والشرف فى المعاملات الشخصية وسمحت بها فى المعاملات الدولية »

ثم انتقل الى الكلام عن حالة الأمة المصرية وما هى عليه من التأخر قائلا :

« ان المسألة المصرية الحقيقية ليست هى مسألة الاحتلال ، ولكنها مسألة تأخر الأمة المصرية ، واستحكام الشقاق بين أفرادها ، وما مسألة الاحتلال الانجليزى الا مسألة فرعية بالنسبة لها ، فان بقاء الأمة متأخرة منحلة الأعضاء يعرضها الى كافة الأخطار فى سائر الأزمان ، وتقدمها فى طريق العرفان واتفاق بنيها على خدمتها وتساعدهم على اسعادها يحميها من الطوارىء والنوازل ويقيها شر الأعداء »

ودعا الى تعميم التربية والتعليم

الجهاد الأكبر

ظهور اللواء :

بدأ مصطفى كامل حياته الصحفية وهو بعد فى مدرسة الحقوق ، اذ أصدر مجلة (المدرسة) فى فبراير سنة ١٨٩٣ ، كما تقدم بيانه ، ثم أخذ يرسل مقالاته الى الصحف من مصرية وأوربية كما أسلفنا ، وقد رأى أن لابد له من جريدة يومية يتصل بالرأى العام بواسطتها باستمرار ، ويغذى بها عقول القراء ونفوسهم ، ثم تكون علما للحركة الوطنية التى بعثها واقتاد زمامها ، وقد اختار لهذه الجريدة اسم (اللواء) ، فكان اختيارا موفقا ، اذ كان اللواء هو الراية التى التف حولها الوطنيون سنين عديدة طول حياته ، وبعد وفاته ، وكان ظهور اللواء من أبرز أعمال الفقيد وأكبرها أثرا فى الشعب وفى الحركة الوطنية ، حتى صار أكبر تعريف له بين معاصريه أنه (صاحب اللواء) ، وعلت منزلة (اللواء) فى نفوس الشعب ، وصار اسمه محببا للنفوس ، حتى سمى باسمه كثير من محلات التجارة والمقاهى والمعاهد، والى الآن لا يزال اسم (بار اللواء) علما للمقهى المعروف بهذا الاسم أمام دار الأهرام ، واسم (أجزاخانة اللواء) علما على الصيدلية الموجودة بباب اللوق الخ

أعد المترجم معدات (اللواء) عام ١٨٩٩ ، وصدر العدد الأول منه يوم الثلاثاء ٢ يناير سنة ١٩٠٠ ، وكانت داره الاولى بالمنزل رقم ١٣ بشارع فهمى بجوار محطة باب اللوق

ثم انتقل بعد حوالى عامين الى المنزل الفخم رقم ٢٩ بشارع الدواوين (نوبار باشا الآن) ، أمام وزارة العدل ، وهو المنزل الذى عرف بدار اللواء ، وتوفى فيه الفقيد ، وقد غلا شأن الجريدة فى عالم الصحافة من أول ظهورها ، وأخذت مكانتها فى نفوس الشعب ، ولا غرو فان شخصية صاحبها قد حببتها الى القلوب ، وأضفت عليها روعة ومكانة سامية ، وكان المترجم لطول خبرته بالصحافة واتصاله المستمر بها سواء فى مصر أو فى أوربا قد أكتمل نضجه الصحفى ، فضلا عن كفايته وذكائه ومقدرته الفطرية فى التحرير والادارة ، فظهر الفن الصحفى فى اللواء كاملا ، مما كان له أثره فى انتشاره وعلو مكانته ، وكان يصدر يوميا باستمرار حتى فى يوم الجمعة ، ولا يحتجب عن القراء الا فى اليوم الاول من عيد الفطر وعيد الأضحى ، ثم أخذ يحتجب يوم الجمعة ابتداء من شهر مايو سنة ١٩٠١ ، وكان يصدر فى أربع صفحات ، ثم فى ثمانى صفحات باستمرار منذ أواخر سنة ١٩٠٦ ، بعد أن أحضر له آلة طباعة كبرى تطبع فى الساعة الواحدة ١٢٠٠٠ نسخة

وكان الفقيد يكتب افتتاحية اللواء فى أكثر الايام ويوقع عليها بامضائه ، ومن كانوا يكتبون فيه المغفور له محمد بك فريد ، وشوقى بك أمير الشعراء ، واسماعيل باشا صبرى ، وخليل بك مطران ، ومصطفى بك نجيب ، واسماعيل بك شيمى ، والاستاذ ويصا واصف ، والاستاذ محمد فريد وجدى ، ومحمد بك لبيب البتانونى ، ومحمود بك سالم ، وفؤاد بك سليم (باشا) الخ ، ثم أخذ تلاميذه يكتبون فيه منذ سنة ١٩٠٦ ، وصار اللواء شبه مدرسة تعلم المصريين حقوقهم وواجباتهم ، وتبث فيهم روح الوطنية والاخلاق ، وتبصرهم بحقائق بلادهم ومساوىء الاحتلال

وصنائعه ، وتستحثهم على الجهاد فى سبيل الاستقلال ، وكان الفقيد لا يفتأ يذكرهم على صفحاته بعبر التاريخ ، ويحيى ذكريات الحوادث الماضية ، من مفاخر وهزائم ، كذكرى تنصيب محمد على بارادة الشعب ، وهزيمة الانجليز فى معركة رشيد سنة ١٨٠٧ ، ثم ذكريات ضرب الاسكندرية سنة ١٨٨٢ ، واحتلال الانجليز العاصمة ، وكان أيضا يفسح صحائف اللواء لبيان جهاد الأمم فى سبيل حريتها ، ويضرب الأمثال للأمة بما يجب أن يكون عليه الجهاد والعمل ، فضلا عن البحوث العلمية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية ، فغذى بذلك عقول المصريين ونفوسهم بروح الوطنية

خطبة الفقيد بالاسكندرية

لم تصرف الفقيد أعماله فى الصحافة عن توجيه الرأى العام بخطبه الوطنية التى كان لها من الوقع والأثر فى النفوس أضعاف ما كان للقلم والكتابة ، فألقى مساء ٢ يونيه سنه ١٩٠٠ خطبة سياسية بتياترو زيزينيا بالاسكندريه ، فى جمع كبير من الوطنيين ، وحضرها كثير من الأجانب ، وكان موضوعها شرح الحالة السياسيه فى ذلك الحين ، وشحذ العزائم لمتابعه الجهاد والاشادة بالوطنية ، ثم الرد على حملات الصحف الاوربية فى ذلك الحين على الاسلام

وأقام يوم أول أكتوبر سنه ١٩٠٠ احتفالا فخما فى مدرسته لتوزيع الجوائز على النابغين من تلاميذها ، وقد أمه جمع كبير من صفوة القوم دل على ما ناله فى نفوس المصريين من محبه واحترام وتقدير لجهاده فى سبيل الوطن، وكان فى مقدمه الحاضرين اسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين فى ذلك العهد

وألقى الفقيد خطبة نوه فيها بفضل العلم ، وجعل موضوعها وجوب اعتماد الأمة على نفسها في نهضتها ، قال في هذا الصدد :

« لست الآن واقفا أمامكم موقف المتباهي بعمله المعجب بصنعه ، ولكنني واقف موقف الخادم لأمته ، المفدى نفسه براحته ، فقد أسست هذه المدرسة غير مفكر في صعوبة العمل وخطورة الأمر ، غير ملتفت الى أقوال المثبطين للهمم ، المميتين للعزائم ، ونهضت بها مدفوعا باعتقاد تملك فؤادى وهو أن كل فرد في هذه الأمة مطالب بخدمتها مهما قصر الآخرون وأهملها المهملون ، وسرت في طريقى هذا معتمدا على فاطر الأرض والسماء ، نصير العاملين ، وعون المجتهدين »

الى أن قال : « أن كل فرد مهما كان صغيرا مطالب بواجب يؤديه لبلاده ووطنه وأمته ، ولو ترك كل مصرى لأبنائه من بعده حب العمل وعدم الاعتماد على الغير ارثا ، لأصبحنا وفينا حياة طيبة تحيى الآمال ، وتبعث العزائم عند الرجال ، وانى لست أرى لبلادى آفة تهددها بالفناء مثل اعتقاد أبنائها أن الحكومة هي كل شيء ، وبيدها كل أمر وعليها كل واجب ، وأنهم لا يسالون عن هذا الوطن أبدا ، على حين أن التاريخ ينطق بأفصح بيان . أن الأمة التي تعتمد في كل شئونها على حكومتها أمة منزلتها من الحكومة منزلة العبد من سيده ، أما الأمة التي تظهر في ميدان الحياة بنشاطها وجهادها وأعمالها ، متحدة مع الحكومة تارة ، عاملة وحدها تارة أخرى ، فهي الأمة التي منزلة الحكومة منها منزلة

العبد من سيده ، وها هى ذى الأمم الغربية تجدها تسبق حكوماتها فى فتح المدارس وانشاء المكاتب وتأسيس المستشفيات والقيام بكل عمل خطير ، مع أن حكوماتها من الثروة وقوة السلطان بمكان »

ودعا فى اللواء الى احياء الصناعة فى مصر ونشر التعليم الصناعى فى عدد ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠

وكان لايفتأ يدعو الأمة الى احياء ذكرى العظماء والأفذاذ الذين خدموها فى نهضتها ، ويرى فى ذلك دليلا على حياة الأمة ، وقد كتب فى عدد ١٠ مارس سنة ١٩٠١ يؤنب الأمة على أهمالها تخليد ذكرى فقيد المعارف على باشا مبارك

وسافر الى باريس فى صيف سنة ١٩٠١ ، وانتهز الفرصة لرفع صوت مصر فى الصحافة الأوربية ، وكانت حادثة فاشودة وما انتهت اليه من تراجع فرنسا وانصرافها عن فتح باب المسألة المصرية قد أوجدت جوا من اليأس من نجاح مصر فى جهادها ، فرفع الفقيد صوتها من جديد ليعلن عن أمانى قومه ومثابرته على الجهاد

احتفال برياسة الأمير محمد ابراهيم

علت منزلة المترجم فى نفوس المصريين لثباته فى مجاهدة الاحتلال ، وازداد اقبال القراء على اللواء ، وبدت هذه المنزلة فى الاحتفال الذى أقامه لتوزيع الجوائز على النابغين من مدرسته يوم الخميس ٢٧ فبراير سنة ١٩٠٢ ، فقد حضر الاحتفال نحو أربعة آلاف مدعو ، حتى ضاقت بهم



الزعيم الخالد مصطفى كامل فى الثلاثين من عمره

ساحة المدرسة ، واجتذبت وطنيته الى ميدان العمل أميرا من خيرة أمراء الأسرة العلوية ، وهو الأمير محمد ابراهيم ليرأس الاحتفال ، فكان أول أمير رأس حفلة علمية أقامها زعيم الحركة الوطنية ، وهذا يدلك على وطنية الأمير محمد ابراهيم ، كما يدل على قوة التأثير المعنوى للفقيد ، وهذا التأثير من خصائص الزعيم الوطنى ، وقد حضر الاحتفال جمع كبير من الشخصيات الكبيرة فى المجتمع ، نذكر منهم: يحيى افندى قاضى قضاة مصر ، الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية ، الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر ، الشيخ محمد بخيت ، حسن باشا عاصم ، اسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين ، اسماعيل باشا صبرى الشاعر المشهور (وكيل وزارة الحقانية) ، محمود شكرى باشا ، فيضى باشا ، عبد الحميد باشا صادق ، عبد السلام باشا المويلحى . هذا وكانت لجنة الشرف التى تولت توزيع الجوائز مؤلفة من الأمير محمد ابراهيم رئيسها ، وحسن باشا عاصم ومحمود شكرى باشا عضويها

وقد خطب فى الاحتفال على بك فهمى كامل شقيق الفقيد ومدير المدرسة عن اطراد سير التعليم فيها ونجاحها ونوه بالقسم المجانى فيها

والقى المترجم خطبة فياضة شكر فيها الأمير محمد ابراهيم والمدعوين على حضور الاحتفال بعبارة بليغة ، ثم عرج على دعوته الوطنية يبثها فى النفوس ، وأشاد بنهضة مصر العلمية منذ عهد محمد على ، ثم دعا الى التضامن

وتوحيد الكلمة والثقة فى الأمة ، ووقف الأمير محمد ابراهيم وألقى بلغة عربية فصيحة خطبة قيمة كان لها تأثير كبير فى الحاضرين

وقد كانت هذه الحفلة وما حفها من المهابة والجلال ، ورياسة أمير من الأسرة العلوية لها ، وخطبته ، وخطبة الفقيد فيها وحضور جمع كبير من أعلام مصر وأقطابها ، كل أولئك كان مظهرا واضحا بارزا للمكانة العالية التى بلغها مصطفى كامل بين الطبقة الممتازة من المجتمع ، وهذه المكانة كانت فوزا له وفوزا للحركة الوطنية التى صارت مرادفة لاسمه

الاحتفال بالعيد المئينى لمحمد على

اقترح المترجم على صفحات اللواء اقامة احتفال قومى كبير يوم ١٣ صفر سنة ١٣٢٠ هـ (٢١ مايو سنة ١٩٠٢) تذكارا لمرور مائة عام هجرى على اختيار زعماء الشعب محمد على واليا على مصر

وفى الحق ان ابتكار الفقيد هذه الفكرة يدل على وطنية عالية ونظر صادق وفكر ناضج ، لأن خير ما يحفز الأمم الى الجهاد فى سبيل استقلالها المسلوب هو الاحتفال بذكريات مجدها وعظمتها ، ففى تلك الذكريات تقارن بين ماضيها وحاضرها ، وتدرك الفرق بينهما ، فتتضاعف عزيمتها فى الجهاد للتخلص من حاضرها المهين ، واستعادة مجدها التليد ، فلا غرو أن قوبل الاقتراح بالارتياح من الوطنيين ، كما قابله الاحتلال بالحقد والسخط ، لأن هذا

الاحتفال كان فى حقيقته مظاهرة تاريخية قومية ضد الاحتلال

وقد نجحت الفكرة نجاحا رائعا ، وألقى مصطفى كامل بمسرح زيزينيا بالاسكندرية خطبة كبرى يوم ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ (١٣ صفر سنة ١٣٢٠) وهو يوم التذكار المئيني لولاية محمد على ، موضوعها (عمل محمد على وواجبات المصريين نحو وطنهم) ، ضمنها ما عمله محمد على لاحياء مصر ، وقارن بين مجدها فى عهده ، وما صارت اليه من الذل والمهانة فى عهد الاحتلال ، وناشد المصريين أن يهبوا لاحياء مجد مصر واستقلالها ودستورها ، وقد كان الاقبال على سماع الخطيب عظيما ، اذ حضر الاجتماع ثلاثة آلاف ونيف من وجوه البلاد وأعيانها وفضلائها وموظفيها وشبابها ، وهرع اليه كثيرون من مختلف الأقاليم حتى من اسوان ، وقوبلت الخطبة فى معظم مواضعها بالتصفيق والاستحسان ، وبخاصة عندما ذكر الخطيب ضرورة انشاء مجلس نيابى لمراقبة أعمال الحكومة وتقييد أعمالها ، فكانت دعوة الفقيد الى المجلس النيابى فى هذا الاحتفال الكبير أكبر دعاية للدستور

دعوته الى الدستور

كان مصطفى كامل مع دعوته الى الجلاء لا يفتأ يدعو الى الدستور ليكون أداة الحكم الصالح فى مصر ، كتب فى عدد ١٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠ من (اللواء) مقالة بعنوان (الحكومة والأمة فى مصر) ذكر فيها وعد اللورد دوفرين باسم

حكومته أن يؤسس في مصر مجلس نيابي واخلاف الحكومة البريطانية هذا الوعد ، كاخلاف وعودها في الجلاء

ودعا الى الدستور في خطبته في العيد المئيني لمحمد على يوم (٢١ مايو سنة ١٩٠٢) كما تقدم بيانه ، وكان على صفحات اللواء يدعو الى المجلس النيابي كأداة لاصلاح عيوب الحكم ، كتب في عدد ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٢ مقالة تحت عنوان (افلاس الاحتلال) اظهر فيها فساد الأداة الحكومية في المعارف والداخلية ، وختمها بالمطالبة بالدستور

وعاد في عدد ٩ مارس سنة ١٩٠٤ من اللواء الى المطالبة بالدستور وكتب في ذلك مقالة مستفيضة تحت عنوان (انشاء مجلس نيابي)ختمها بقوله : « ليس للاحتلال مصلحة في ايجاد مجلس نيابي لهذه البلاد ، ولكن صوت الأمة يعلو على صوته اذا تمسكت به ودعت اليه وطالبت وجاهدت بقوة الرأى والفكر والثبات التى هى أكبر القوى الفعالة في حياة الامم ، فلتفعل فانما هى تخطو بالوصول اليه أكبر خطوة في طريق الاستقلال »

مجيء مدام آدم الى مصر

رغب مصطفى الى مدام جولييت آدم المجيء الى مصر ليوطد علاقة الود والحب بينها وبين الوطن المصرى ، فلبت الدعوة وجاءت في يناير سنة ١٩٠٤ ، واستقبلها استقبالا حافلا ، وقد استضافها عمر بك سلطان (باشا) بالمنيا ، وصحبها الفقيد في هذه الرحلة ومعه الأمير حيدر فاضل

لمشاهدة آثار بني حسن ، وذهبوا الى أسيوط حيث استقبلهم حسين بك فهمي المحامي وأحمد بك خشبة والسيد كامل بك خشبة ، وذهبوا الى البلينا ، حيث تناولوا الشاى بمنزل عبد اللطيف بك أبو ستيت ، ثم الى الاقصر حيث استقبلهم بالحفاوة عبد الكريم بك العماري ويسى بك أندراوس ، وشاهدوا الآثار المصرية ، وذهبوا الى اسنا ، فتناولوا الشاى بمنزل متولى بك حزين ومدنى أفندى حزين ، ووصلوا فى رحلتهم الى أسوان فكانوا يقابلون فى كل مكان بالحفاوة والاكرام

وحضرت احتفال توزيع الجوائز فى مدرسة مصطفى كامل يوم ١٩ فبراير سنة ١٩٠٤ ، وكان احتفالا فخما حضره من شخصيات مصر البارزة يحيى أفندى قاضى القضاة ، والشيخ محمد بخيت ، والسيد عمر مكرم ، وحسين باشا واصف ، واللواء بليغ باشا ، ودانينوس باشا ، وحضرت مدام آدم تصحبها مدام يونج زميلتها فى السفر وبعض كبار الأوربيين ، وألقى مصطفى كامل فى هذا الاحتفال خطبة من خطبه الرنانة ، ضمنها وجوب تعليم النشء تاريخ بلاده والعناية بالتربية والاخلاق فى المدارس

وقصدت الفيوم فى أواخر فبراير ، يصحبها مصطفى كامل ومحمد فريد ومدام يونج والكونتس دى كولتور ودانينوس باشا ، ونزلوا ضيوفا على خالد باشا لطفى

وقد رحب بها الفقيد ترحيبا عظيما

وأولم لها الخديو عباس الثانى وليمة عشاء فاخرة فى قصر القبة مساء ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤ ، حضرها ستة عشر

مدعوا من الأمراء والكبراء ، وتناول معها الخديو هو وضيوفه طعام العشاء تكريما للضيفة العظيمة

وذهبت صحبة مدام يونج والمترجم وحسين باشا واصف الى بورسعيد ، فأقيمت لهم حفلة فخمة في المدرسة الواصفية خطب فيها الفقيد خطبة شيقة ، وكان المجتمعون يبلغون عدة آلاف جاءوا تكريما لضيفة مصطفى كامل

وغادرت مصر يوم ٤ مارس سنة ١٩٠٤ ، بعد أن أقامت في مصر ستة أسابيع رأت فيها من الفقيد ومن أنصاره ومن الأمة المصرية غاية الحفاوة والاكرام ، وشاهدت مظاهر الحركة الوطنية التي بعثها مصطفى ، وقد تأثرت بما لقيته في مصر من الحفاوة ، وما شاهدته من عظمة آثارها القديمة، وكتبت في جريدة (الجولوا) الفرنسية مقالة عن الأثر الاول لمشاهدتها قالت فيها :

« ان أرض مصر تضم كل المدنيات السابقة ، وسماء مصر هي أول سماء مزقت فيها السحب حيث سمح بذلك للانسان أن يشعر بوجود الخالق ، ولم يعهد التاريخ أمة بلغت من القوة والعظمة ما بلغته الأمة المصرية حتى صبغت العناصر الاخرى بصبغتها ، وبقيت في آن واحد في حالة الفطرة الاولى ، مالكة نفسها على مر الزمان ، ولم يتحكم الاجنبي في أمة كما تحكم فيها ، ولم تتخلص أمة من الأجنبي بصورة مستمرة كما تخلصت هي ، وان استرداد مصر لنفسها أمر تكرر الى حد أنه صار قانونا في تاريخها ، وانه ليمكن للانسان أن يؤكد أن مصر ستبقى الى الأبد مصر ! »

الصدمة الثانية

الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا

وقع فى سنة ١٩٠٤ حادث سياسى خطير كان له أسوأ الأثر فى اتجاه المسألة المصرية ، وكان بمثابة صدمة شديدة للحركة الوطنية ، ونعنى به العهد المعروف « بالاتفاق الودى » Entente Cordiale المبرم بين فرنسا وانجلترا فى ٨ ابريل سنة ١٩٠٤

كانت العلاقات بين الدولتين تزداد جفاء على أثر انسحاب فرنسا من فاشودة ، فرأى بعض رجال السياسة فى كلتا الدولتين أن يسعوا فى ازالة أوجه الخلاف بينهما ، لكى تقاوما نفوذ ألمانيا الآخذ فى الازدياد فى أوربا والعالم وقتئذ ، والذى كان يهدد مصالح الدولتين ، وكان للملك ادوارد السابع الذى تولى عرش انجلترا سنة ١٩٠١ دخل كبير فى توجيه هذه السياسة ، لما كان يشعر به من الميول نحو فرنسا ، واعتبرت زيارته لباريس سنة ١٩٠٣ فاتحة عهد الاتفاق بين الدولتين ، وأخذت الحكومتان فى تسوية المسائل المختلف عليها بينهما ، وأسفرت مفاوضاتهما عن ابرام « الاتفاق الودى » بينهما فى ٨ ابريل سنة ١٩٠٤ ، وصار هذا الاتفاق عاملا مهما فى اتجاه السياسة الدولية اذ كان تكملة للمحالفة بين فرنسا وروسيا ، لمقاومة التحالف الثلاثى بين ألمانيا والنمسا وايطاليا

وكان الجزء الخاص بمصر هو أهم نصوص هذا الاتفاق ، فقد أعلنت انجلترا فى المادة الأولى منه انه « ليس فى نيتها

تغيير الحالة السياسية لمصر » ، وتعهدت الحكومة الفرنسية من جانبهـا « بأن لا تعرقل عمـل انجلترا فى هـذه البلاد لا بطلب تحديد اجل للاحتـلال البريطاني ولا بأى صـورة أخرى » ، وهـذا الالتزام من جـانب الحـكومة الفرنسـية مقابل التزام الحكومة البريطانية أن لا تعرقل عمل فرنسا في مراكش ، وتعهدت الحـكومة الفرنسـية بأن توافق على مشروع الدكريتو الخديوى المرافق للاتفاق ، والمحتـوى على الضمانات التي رؤيت ضرورية لصيانة مصالح حملة أسهم الدين المصرى ، وأهم هذه الضـمانات تخصـيص ضرائب الأطيان لخدمة الدين العـام بدلا من الايرادات المختلفة التى كانت مخصصـــة لها من قبـل وهى السـكك الحـديدية والتلغرافات وميناء الاسكندرية والجمارك وأربع مديريات ، وتعهدت الحكومة المصرية بعدم تخفيض ضرائب الأطيان الى ما دون أربعة ملايين جنيه فى السنة الا بعد موافقة الدول ، وفى مقـابل ذلك ترك للحـكومة المصرية المال الاحتيـاطى المتوفر فى صندوق الدين وقدره خمسة ملايين جنيه ونصف تتصرف فيه كمـا تشاء ، واتفقت الدولتان على بقـاء ادارة الآثار المصرية مسـندة الى عالم فرنسى ، وتتمتـع المدارس الفرنسية فى مصر بنفس الحرية التي تمتعت بها فى الماضى ، وصرحت الحكومة البريطـانية فى الاتفـاق بأنها تستعمل نفوذها لكيلا تكون حالة الموظفين الفرنسـيين الموجودين فى خدمة الحكومة المصرية دون حالة الموظفين الانجليز بها

ومعنى هذا الاتفاق اقرار فرنسا للاحتلال البريطانى فى مصر ، وعدولهـا عن مطالبتهـا بالجـلاء ، وتبـدو من ثنايا نصوصه وعباراته روح الحماية التي انتحلتهـا انجلترا على

مصر ، لأنها تعاقدت عنها وعن شئونها المهمة دون دخل لها ، واتفقت عليهـا دون رضـاها أو علمهـا ، وهـذا من أخص امتيازات الدولة الحامية

تأثير الاتفاق في مصر

كان هذا الاتفاق من المؤامرات الاستعمارية التى اتفقت عليها الدول الأوربية لسلب الأمم واغتصاب استقلالها وحقوقها ، وكان من نتائجه أن قوى مركز انجلترا فى مصر، وظهر تقرير اللورد كرومر فى ابريل سنة ١٩٠٤ فبدت فيه روح السيطرة ، وتكلم فيه بلسان الحاكم المطلق التصرف ، وطعن فى المصريين بأن رماهم بعدم الكفاية للحكم الذاتى ، وكان من نتائجه المعنوية أن رجح فى نفوس الخاصـة كفة اليأس ، فتفشت فيهم نزعة الضعف والتخاذل والنفعية ، والانصراف عن متابعة الحركة الوطنية ، اذ رأوها تتعثر فى طريقها ولا تصادف نجاحا ، ورأى أكثرهم أن الخير لهم فى الانضواء تحت لواء الاحتلال ، فجنحوا لسياسة الخضـوع والاستسلام وتملق الانجليـز ، وابتغـاء الزلفى لديهم ، وسرت هذه الروح الهـادمة للحـركة الوطنية من صفوف الخاصة الى طبقات العامة

أما مصطفى كامل فلم يتراجع أمام الاتفاق ، ولم يتزعزع يقينه في الجهاد ، لأنه كان قد نفض يده من مساعدة فرنسا منذ حادثة فاشودة سنة ١٨٩٨ ، تلك الحادثة التى أدت الى انسحاب فرنسا فعلا أمام انجلترا وتركها تفعل ما تشاء فى وادى النيل ، وما كان اتفاق سنة ١٩٠٤ غير توكيد رسمى لما سارت عليه فرنسا فعلا بعد حادثة فاشودة ، فلا غرابة

أن قابل الفقيد هذا الاتفاق بالثبـات والجلـد ، ومضى فى جهـاده لا يلوى على شيء ، وقد كان هذا الحـادث السياسى امتحـانا جديدا لعقيـدته وثبـاته ، فبرهن على أن وطنيته راسخة كالطود ، ثابتة كالجبال ، وبلغ بذلك قمة الوطنيـة الصـادقة ، واسـتثار فى النفـوس من جديد روح الأمل والجهاد ، ولقد نشر المقالات على صـفحات اللواء يدعو الأمة الى الثبات في ميدان الكفاح

خطبته بالاسـكندرية

كان الموقف السياسى يستدعى خطبة من خطب الفقيـد يحيى فيها العزائم ويحفز النفوس الى الجهاد ، رغم الاتفاق الانجليزى الفرنسى الذى فت فى عضد الكثيرين

فالقى خطبـة وطنيـة كبـرى في الاسـكندرية بمسرح (زيزينيا) مساء الثلاثاء ٧ يونيـه سـنة ١٩٠٤ ، جعـل موضوعها « الموقف السياسى لمصر ، وواجبات المصريين »

واتخذ من عقد الاتفاق الودى دليلا ساقته الحـوادث على دحض مزاعم من كانوا يدعون أن القائمين بالحركة الوطنية محرضون من حزب الاسـتعمار الفرنسى ، فقد بطلت هذه الدعوى بعد أن أصبحت فرنسا صديقة لانجلترا ، « ونحن نحن على حالنا ندافع عن المبـادىء التى أعلناها للملأ كله من أول عهدنا بالسياسة الى اليوم »

ودعا الى التضحية والثبات وأعلن أن الوطنية لا تنثنى أمام العقبات

وتـكلم عن ثمـار الشـعور الوطنى الذى دب فى الأمة

وما ظهر من نتائجه فى رقى الأمة وأخذها بأسباب النهوض واتساع حركة التعليم القومي وبذل الأفراد والجمعيات أموالهم للمنشآ العامة وظهور قوة الرأى العام فى اتجاهه الى التعلق بالاستقلال والسخط على الاحتلال

وأوضح سياسة الاحتلال وما ترمى اليه من قتل الروح الاستقلالية فى الأمة

وختم خطبته بالدعوة الى الاتحاد وبث روح الوطنية فى النفوس والجهاد فى سبيل الاستقلال

وقد قوبلت الخطبة بالتصفيق والاعجاب والحماسة والهتاف العالى من الحاضرين الذين كان يبلغ عددهم أربعة آلاف ، فتأثر الخطيب من هذه المظاهرة الرائعة ، وشكرهم شكرا مكررا قائلا لهم : « انى أعد التفاتكم الى وتعضيدكم لى دينا على ، ربما أعجز عن الوفاء به ، ولكنى أقابلكم على هذا الالتفات وهذه العناية بأن أكون فى المستقبل كما كنت فى الماضى : خادم الوطن الأمين »

وكان الاجتماع نجاحا باهرا للفقيد ، كما كان لخطبته دوى كبير فى المحافل والدوائر الوطنية والأوربية، لأنه كان أول صوت جهير لمصر ارتفع بعد الاتفاق الودى الانجليزى الفرنسى ، وتردد صداه فى الخارج

الاحتفال بعرض الجيش الانجليزى

كان من عادة الانجليز أن يحتفلوا بعيد مولد الملكة فيكتوريا ثم عيد الملك ادوارد السابع بعرض الجيش البريطانى بميدان عابدين برياسة اللورد كرومر ، ولم

يكن الخديو عباس الثانى يحضر هذا الاحتفال ، ولكنه بدأ يحضره لأول مرة فى عيد ميلاد الملك ادوارد السابع يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩٠٤ ، اذ جاء الميدان مرتديا بذلة التشريفة الكبرى يحيط به ياورانه ، ووقف تحت العلم البريطانى بجوار اللورد كرومر ، وشهد العرض حتى نهايته ، فكان لحضوره هذا الاحتفال ـ الذى يمثل الاحتلال الأجنبى تمثيلا مهينا للكرامة القومية ـ أثر أليم فى النفوس ، وكان موضع انتقاد الوطنيين فى مجالسهم وأحاديثهم ، مما اضطر « المعية » الى اصدار بلاغ رسمى تنسب فيه حضوره الى مصادفة وجوده بسراى عابدين يوم العرض

على أن الاعتذار بالمصادفة فى بلاغ المعية لا صحة له ، لأن الخديو قد حضر العرض البريطانى للمرة الثانية فى نوفمبر سنة ١٩٠٥ ، ووقف تحت العلم الانجليزى ، بين قائد جيش الاحتلال واللورد كرومر ، وشهد العرض حتى نهايته

زيارات اللورد كرومر وتقاريره

وكان من نتائج الاتفاق الانجليزى الفرنسى أن أخذ اللورد كرومر يظهر علنا بمظهر صاحب السيطرة والحكم النافذ فى البلاد ، بعد أن كان يكتفى بتحريك الأداة الحكومية والسيطرة على البلاد من ورائها

ومن علامات هذا المظهر الجديد زياراته لعواصم المديريات، فكان يقابل من المديرين وبعض كبار الأعيان بالحفاوة والاكرام ، مما يقابل به الملوك ورؤساء الدول

زار الفيوم فى فبراير سنة ١٩٠٥ ، فقابله المدير محمد

بك محب والأعيـــان والعمـــد ، وخطب فيهم متكلمـا عن مشروعات الحكومة وأعمالها باعتباره صـــاحب النفوذ الفعلى فيها ، فتكلم عما تبذله الحكومة فى مكافحة الجراد ، وابادة دودة القطـن ، وانشـاء صـناديق التوفير وما الى ذلك من المسائل الداخلية الحكومية ، وشكره أحد الأعيـان بالنيابة عن المديرية على زيارته الفيـوم وعلى النصائح التى ألقـاها عليهم ، وزار دور الحكومة كالمستشفى الأميرى ، والمدرسـة الأميرية ، وامتحن بعض تلاميذها ، ثم زار المركز والسجن والمجلس البلدى ، وكان فى انتظـاره أعيـان المدينـة ، ثم المحكمة الأهلية حيث استقبله القضاة وأعضاء النيابة ، ثم شرب الشاى فى دار المدير ، وكان الموظفون وكبار الأعيان فى ركابه !

وكان الأعيان الموالون للاحتـلال يترددون من قبـل فى اظهار ولائهم له ، فلمـا أبرم الاتفـاق الودى سـفروا فى ولائهم وتسابقوا فى ابتغاء الزلفى لديه

واستمر اللورد كرومر فى رحلته الاحتلالية ، فزار المنيا فاسـيوط فأبو تيج فنجع حمـادى ، حيث كان يسـتقبله المديرون والأعيان بالحفاوة البالغة

وكان ظهوره بهذا المظهر من الحوادث المؤلمة المهينة للكرامة الوطنية المعرقلة للحركة القومية ، وقد احتج عليها الفقيد على صفحات اللواء وحمل عليها حملة صادقة

وكان من نتائج « الاتفـاق الودى » أن تقـارير اللورد كرومر السنوية التى كان يرفعها الى الحكومة البريطانية عن شئون مصر والسودان أخذت تزداد منزلة ومكانة ، بحيث

صـــارت من أهم الوثائق عن أحـوال مصر السـيـاسية والاجتماعية والادارية ، وصـار لها من الشـأن ما لتقارير حكام المستعمرات الانجليزية ، وكان يخوض فيهـا فى كل ما له مساس بشئون الحكومة المصرية والبلاد ، مما لا يصدر الا عن صاحب السيطرة والنفوذ الفعال فى الحكومة ، وكتب فى تقـريره الـذى ظهـر فى مارس سـنة ١٩٠٥ أن وعد بريطانيا بالجلاء عن مصر كان قبل أن تعلم الحـالة فى مصر تماما ، فلما عرفتها علمت أن وعدها كان فى غير محله وان تنفيذه يفضى الى أضرار جسيمة

وبلغ من تدخل الانجليز فى المعية الخديوية أن عين فى تلك السـنة (سـنة ١٩٠٥) ياور انجليزى للخـديو وهو الكولونل وطسن باشا

كتاب « المصريون والانجليز »

Egyptiens et Anglais

جمع الفقيد فى صيف سنة ١٩٠٥ خطبه التى ألقاها عن المسألة المصرية ، والرسـائل التى تبودلت بينه وبين كبار الساسة ، وترجمها الى الفرنسية ، وطبعهـا بباريس كتابا ظهر فى ديسمبر سنة ١٩٠٥ بعنوان (المصريون والانجليز) فى ثلاثمائة وعشرين صفحة ، ثم وزعه فى كل جهات العالم، ليعرف الأمم كافة بالحركة الوطنية المصرية وميول المصريين ، وحقيقة مقاصـد الحزب الوطنى ، فكان خير دعاية عالميـة للمسـألة المصرية ، وقد وضـعت مدام جولييت آدم مقدمة هذا الكتاب ، ومما قالته عن الفقيد :

« انه يجاهد بكل الصور والأشكال ضد : اليأس والقنوط ، وعدم الاكتراث بشئون البلاد ، وقلة الوطنية ، تلك الآفات الثلاث التي تتهدد مصر كما تتهدد فرنسا نفسها ، والتى هى أشد خطرا على الأمم من المغيرين »

وقالت فى موضع آخر عن الحركة الوطنية : « انى أنا التى رأيت مصر وأدركت أسرارها وأحببتها وأعجبت بها ، أعتقد بخصوبتها العقلية الأهلية الأبدية الخالدة كآثارها الفخمة ، تلك الخصوبة المستعدة لأن تنتج أكبر النتائج بفضل معارف الوطنيين من أبنائها ، كما يرى الانسان خصوبة أرضها ظاهرة ومحصولاتها ناضجة فى أسابيع معدودة بفضل فلاحيها »

وكتبت الصحف الأوربية نبذا كثيرة عن الكتاب ومناحيه

حادثة دنشواى

واثرها فى الحركة الوطنية

لا مراء فى أن حادثة دنشواى هى من حوادث مصر التاريخية التى لا تنسى على مر السنين ، لما كان لها من الأثر البليغ فى تطور الحركة الوطنية ، وفى مركز الاحتلال الانجليزى ، فهى نهاية عهد كان الاحتلال يتمتع فيه بالاستقرار والطمأنينة ، وبداية مرحلة جديدة من مراحل الجهاد القومى عم فيها الشعور الوطنى بعد أن كان الظن أن سواد الأمة راض عن الاحتلال

وتفصيل هذه الحادثة أن بعض الضباط من جيش الاحتلال وبعض الموظفين البريطانيين كانت لهم عادة أن يتجولوا فى بعض القرى والبلاد ليصطادوا الطيور ببنادقهم ، ففى يوم الاثنين ١١ يونيه سنة ١٩٠٦ غادرت كتيبة من نحو ١٥٠ جنديا بريطانيا القاهرة متجهة بطريق البر الى الاسكندرية، وبعد مسيرة يومين وصلت يوم الأربعاء ٣١ يونيه الى منوف ، فأبلغ خمسة من ضباطها مأمور المركز انهم يرغبون الصيد فى بلدة (دنشواى) وهى بلدة صغيرة تابعة لنقطة بوليس الشهداء بمركز شبين الكوم ، ومشهورة بكثرة حمامها ، فطلب المأمور من عبد المجيد بك سلطان أحد أعيان بلدة (الواط) أن يعد لهم مركبات عند السكة

الزراعية الموصلة لبلدة (دنشواى) ، ففعل ، فلما وصلوا الى (كمشوش) وقفوا هنيهة وعسكروا بها مع بقية الجند ، ثم ركب الخمسة الضباط المركبات التى أعدها عبد المجيد سلطان مبتدئين من معدية الباجورية ، مارين على ناحية سرسنا ، ومنها الى (دنشواى) وكان يرافقهم أومباشى من بوليس نقطة الشهداء ، وترجمان مصرى ، وذهب الأومباشى الى العمدة ليبلغه خبر قدوم الضباط لكى يتخذ التحوطات التى تكفل عدم احتكاكهم بالأهلين ، ولكنه ألفى العمدة غائبا ، ولم ينتظر الضباط حضوره ، ولا رجوع الأومباشى ، وانقسموا فريقين ، فريق وقف على السكة الزراعية لصيد الحمام من خلال الأشجار الملتفة هناك ، وهؤلاء لم يصبهم أحد بسوء ، والفريق الآخر جاس خلال أجران القمح فى دنشواى ليصطادوا ما بها من الحمام ، فاتفق أن حمامتين كانتا واقفتين على جرن مملوك لمحمد عبد النبى مؤذن القرية ، وكان يشتغل به أخوه شحاته عبد النبى ، فجاء أحد الضباط الانجليز وصوب بندقيته على الحمام ، فصاح به شيخ طاعن فى السن يبلغ الخامسة والسبعين من العمر اسمه حسن على محفوظ (وهو أول من حكمت عليهم المحكمة المخصوصة بالاعدام) طالبا منه أن يكف عن اطلاق البندقية ، والا احترق الجرن ، وكذلك صاح به شحاته عبد النبى ، فلم يعبأ الضابط ، وأطلق العيار ، قاصدا اصابة الحمام ، فأخطأ المرمى ، وأصاب امرأة تدعى أم محمد زوجة محمد عبد النبى المؤذن ، كما أصاب الجرن ، فسقطت المرأة جريحة تتخبط فى دمها ، واشتعلت النار فى الجرن ، فأخذ شحاته يصيح ويستغيث ، وهجم على الضابط وتجاذب

واياه بندقيته ، واقبل الرجال والنسوة والأطفال هائجين ، واحاطوا بالضـابط ، وجاء بقية الضـباط الانجليز لانقاذ زميلهم ، فتكاثرت جموع الأهلين ، ووصل في الوقت نفسه شيخ الخفر ومعه الخفراء لتفريق الجموع ، وانقاذ الضابط ، فتوهم هؤلاء أنهم جاءوا يريدون بهم شرا ، فاطلقوا عليهم العيارات النارية ، فأصاب واحد منها شيخ الخفر في فخذه فسقط على الارض ، وأصاب عيـار آخر اثنين أحدهما من الخفـراء ، وحمـل الأهالى على الضـابط بالطـوب والعصى الغليظة واثخنوا من لحقوا بهم من الضباط الانجليز ضربا ، فاصـيب أحـدهم بكسر في ذراعه ، وجـرح اثنان جروحا خفيفة ، وأحاط بهم الخفراء مع زميل رابع لهم وأخذوا منهم أسـلحتهم وحجـزوهم حتى جاء ملاحظ بوليس النقطـة وأوصلهم الى المعسكر

أما الضابطان الآخران فتركا مكان الواقعة ، وكان الاول منهما (الكابتن بول) قد أصيب اصابة شديدة في رأسه ، وأخذا يعدوان حتى قطعا نحو ثمانية كيلو مترات في حمارة القيظ ، اذ كانت الواقعـة في صـميم الصـيف ، فلم يكد الكابتن بول يصل الى باب سوق (سرسنا) حتى سقط من الاعياء ، ومات بعـد ذلك متـأثرا من ضربة الشمس ، ولما سقط تركه زميله وأخذ يعدو حتى وصـل معسكر الكتيبة بناحية كمشوش على ضفة الترعة الباجورية

وما كاد نبـأ الحـادثة يصـل الى بقيـة جنـود الكتيبة الانجليزية في كمشوش حتى سارع الجنود الراكبـون الى

مكان الواقعة ، ولم يكادوا يقطعون بضعة كيلو مترات حتى بلغوا (سرسنا) وظنوا أنها دنشواى ، وهناك وجدوا ضابطهم ملقى على الثرى ، ورأوا فلاحا مصريا هو (سيد احمد سعيد) يقدم اليه قدحا من الماء ، فظنوه من الضاربين، فأنحوا عليه ببنادقهم طعنا ووخزا حتى هشموا رأسه ، ومات بين أيديهم ، وذهب دمه هدرا ، ولم يحاكم أحد ممن قتله ، وقد عرف هذا القتيل بشهيد سرسنا

وصل نبأ هذه الحادثة يوم وقوعها الى ولاة الأمور في المنوفية والقاهرة ، وما أن علم بها رجال الاحتلال وعرفوا أن الكابتن (بول) قد مات عقب الحادثة ، وأصيب الضباط الآخرون ، حتى تولاهم الغضب ، وعولوا على الانتقام من أهل القرية التي وقعت فيها الحادثة انتقاما ذريعا شنيعا

ثارت ثائرة الاحتلال من وقوع الحادثة ، على أنها فى الواقع راجعة أولا الى اقتحام الضباط البريطانيين بغير حق حقول الأهالى وأجرانهم لاصطياد الحمام المملوك لهم ، وذهب المستر متشل مستشار وزارة الداخلية الى مكان الحادثة يوم وقوعها ، وجرى التحقيق فيها بمنتهى السرعة ، وأخذ ولاة الأمور يقبضون على الأهلين جزافا ، ونشرت احدى الصحف الموالية للاحتلال يوم ١٨ يونيه قبل أن ينتهى التحقيق أن الأوامر صدرت باعداد المشانق وارسالها الى مكان الواقعة ! فدهش الجمهور لهذا النبأ ، وتوقع أن أحكاما صارمة بالاعدام ستصدرها المحكمة المخصوصة ، وأن المحاكمة انما هى مهزلة صورية لا ظل فيها للعدل ، ولا حرمة للقانون

وكان الأمر العالى الصادر فى ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٥ بتأليف المحكمة المخصوصة التى تحكم فيما يقع من الأهالى من الجنايات والجنح على عساكر أو ضباط جيش الاحتلال لا يزال قائما ، ففى يوم ٢٠ يونيه سنة ١٩٠٦ أى قبل انقضاء سبعة أيام على وقوع الحادثة ، أصدر وزير الحقانية بالنيابة (بطرس غالى) قرارا بتشكيل المحكمة المخصوصة لمحاكمة المتهمين فيها برياسة بطرس غالى ذاته وعضوية كل من المستر هتر نائب المستشار القضائى ، والمستر بوند وكيل محكمة الاستئناف الاهلية ، والقائمقام لادلو القائم بأعمال المحاماة بجيش الاحتلال ، واحمد فتحى زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية ، وأن يكون انعقادها فى شبين الكوم يوم الأحد ٢٤ يونيه ، وعين عثمان مرتضى رئيس أقلام وزارة الحقانية سكرتيرا للمحكمة ، وبلغ عدد من قدمتهم الادارة لمحاكمتهم فى هذه الحادثة اثنين وخمسين متهما ، قدموا جميعا مقبوضا عليهم ، وسبعة من الغائبين

انعقدت المحكمة المخصوصة بهيئتها السالف ذكرها يوم الأحد ٢٤ يونيه بسراى المديرية بشبين الكوم الساعة العاشرة صباحا ، وكان يحيط بها جو من الرهبة يملأ النفوس فزعا ، والقلوب جزعا ، والجنود الانجليز والمصريون يرابطون حولها وعلى مقربة منها ، وأخذت فى سماع أقوال الشهود ، وقد ثبت من شهادة الدكتور تولن الطبيب الشرعى أمام المحكمة ، وكان انجليزيا ، أن وفاة الكابتن بول راجعة مباشرة الى ضربة الشمس ، وأنه لو لم يصب بها لما حدثت الوفاة من اصابة الرأس التى أصابته فى الحادثة

وكان تحامل المحكمة على المتهمين باديا أثناء سماع الشهود ، حتى أنه حين أخذ أحد الشهود واسمه عبد العال صقر يروى الحادثة بما يدل على تحذيره الضباط الانجليز من الصيد داخل القرية ، قال له المستر بوند : « ألا تعرف أن هذه المحكمة تعاقب شهود الزور ؟ » · قال (نعم) · فقال المستر بوند : « أنا أعرف المصريين أمثالك كيف تكون شهادتهم ! » ، واستمرت المحكمة فى سماع الشهود والدفاع ثلاثة أيام حتى يوم ٢٦ يونيه

وانعقدت المحكمة في صباح اليوم الرابع (الأربعاء ٢٧ يونيه) وتلا سكرتير الجلسة الحكم ، وهو يقضى على كل من:

أولا ـ حسن على محفوظ ، ويوسف حسن سليم ، والسيد عيسى سالم ، ومحمد درويش زهران · بالاعدام شنقا فى قرية دنشواى

ثانيا ـ محمد عبد النبى مؤذن القرية ، واحمد عبد العال محفوظ · بالأشغال الشاقة المؤبدة

ثالثا ـ احمد محمد السيسى بالأشغال الشاقة خمس عشرة سنة

رابعا ـ محمد على أبو سمك ، وعبده البقلى ، وعلى على شعلان ، ومحمد مصطفى محفوظ ، وسلامة السيد على ، والعيسوى محمد محفوظ بالأشغال الشاقة سبع سنين

خامسا ـ حسن اسماعيل السيسى ، وابراهيم حسنين السيسى ، ومحمد الغباشى السيد على · بالحبس مع التشغيل سنة واحدة · وبجلد كل واحد منهم خمسين جلدة وأن ينفذ الجلد أولا بقرية دنشواى

سادسا ـ السيد العوفى ، وعزب عمر محفوظ ، والسيد سليمان خير الله ، وعبد الهادى حسن شاهين ، ومحمد احمد السيسى • بجلد كل واحد خمسين جلدة بقرية دنشواى ، مع تكليف مَدير المنوفية بتنفيذ الحكم فورا

فيكون مجموع من حكم عليهم واحدا وعشرين متهما ، حكم بالاعدام على أربعة منهم ، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين ، وبها لمدة خمس عشرة سنة على واحد ، وبالسجن سبع سنوات على ستة ، وبالحبس مع التشغيل مدة سنة مع الجلد خمسين جلدة على ثلاثة ، وبالجلد خمسين جلدة على خمسة

قوبل هذا الحكم بالدهشة لصرامته ، ولأنه فاق كل ماكان يتوقعه المتشائمون ، وخلا من كل انصاف وعدل ، اذ كانت الحادثة راجعة أصلا الى عدوان الضباط البريطانيين ، ولم يقع اعتداء من الأهلين الا بعد أن أصيبت احدى نسائهم وحرق جرن لهم ، ولم يمت من الضباط الانجليز سوى ضابط واحد ثبت من تقرير الطبيب الشرعى الانجليزى أن السبب المباشر لوفاته هو ضربة الشمس التى أصابته من شدة الحر ، وقد دل هذا الحكم على أن العدل الانجليزى لا يؤمن جانبه اذا كانت الخصومة تمس صالحا انجليزيا

ونفذ الحكم بطريقة وحشية ، زادت فظاعة المحاكمة ، وفاقت كل ما يتصوره العقل ، من وسائل الانتقام والتعذيب ، وكان التنفيذ فى اليوم التالى لصدور الحكم ، فى المكان الذى مات فيه الكابتن بول ، وفى مثل الساعة التىوقعت فيها الحادثة ، ففى الساعة الرابعة بعد منتصف

الليل سيق المحكوم عليهم بالاعدام والمحكوم عليهم بالجلد الى نقطة الشهداء ، على مسافة نحو عشرين كيلو مترا من شبين الكوم وأربعة كيلو مترات من قرية دنشواى ، وأنزلوا بها بحراسة الجنود البريطانيين والمصريين ، حتى اذا اقتربت الساعة الاولى بعد الظهر جيء بهم الى دنشواى ، وهناك نصبت المشنقة وآلة الجلد ، ونفذ الحكم بقسوة وفظاعة فبدأ التنفيذ في منتصف الساعة الثانية بعد الظهر ، ونفذ الحكم في المشنوق الاول علنا ، على مرأى من أهله وذويه ، وبين صياح النساء ونواحهن ، وبقى معلقا بينما نفذ حكم الجلد في اثنين ، ثم شنق الثانى بهذه الطريقة ، يليه جلد اثنين آخرين ، وهكذا حتى تمت المجزرة

مصطفى كامل وحادثة دنشواى

كان الفقيد في أوربا حين صدور حكم المحكمة المخصوصة في قضية دنشواى ، وقد بلغته أنباء المحاكمة والتنفيذ وهو في باريس ، وكانت النفوس في مصر واجمة ، يحز فيها الألم وهى ساكنة ، كانت تألم ، ولكن الم اليائس المستضعف ، أمام جبروت الاحتلال وبطشه

وصف المرحوم « قاسم أمين » هذه الحالة النفسية يوم تنفيذ حكم دنشواى بقوله : « رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا وزورا مخنوقا ، ودهشة عصبية بادية في الأيدى وفى الأصوات ، كان الحزن على جميع الوجوه ، حزن ساكن مستسلم للقوة ، مختلط بشيء من الدهشة والذهول، ترى الناس يتكلمون بصوت خافت ، وعبارات متقطعة ، وهيئة يائسة ، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار

ميت ، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف في كل مكان من المدينة ، ولكن هذا الاتحاد في الشعور بقي مكتوما في النفوس لم يجد سبيلا يخرج منه فلم يبرز بروزا واضحا حتى يراه كل انسان »

فهذا اليأس ، وهذا السكوت ، وهذا الاستسلام والوجوم الذى استولى على النفوس بعد حادثة دنشواى ، وهذا الشعور الذى بقى مكتوما ، على حد تعبير قاسم أمين ، لم يكن لينهض بالامة ، ولا ليوقظ فيها روح الكرامة والاباء، بل كان من شأنه لودام أن يزيدها يأسا وهوانا واستسلاما، ولكن عبقرية مصطفى كامل هى التى أبدلت من هذا اليأس قوة ، ومن هذا السكون حياة وثورة

لقد كان لابد من صوت عال يهز قلب الانسانية ، ويشهد العالم على تلك الفظائع ، ويستثير الرأى العام فى مصر وأوربا ضد الاحتلال عامة ، كان ذلك هو صوت الفقيد ، ورغم أنه ذهب الى أوربا للاستشفاء ونصح له الأطباء أن يلزم الراحة والهدوء ، فانه لم يكد يتلقى أنباء المحاكمة حتى ثارت نفسه وتحرك قلبه الكبير الى العمل والجهاد ، ونهض بكل قوته لكي يسمع العالم صوت مصر ، ويعلن حربا شعواء على الاحتلال وسياسته ، فكتب فى جريدة (الفيجارو) الفرنسية الشهيرة مقالة كبرى نشرت في صدر الجريدة بعنوان (الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن) ، عرض فيها حادثة دنشواى على الضمير الانسانى فى العالم ، فكانت من أقوى وأبلغ ما كتب الفقيد بلسان مصر ، وقد استطرد فيها الى جهاد المصريين فى سبيل

الاستقلال ، وأبان أن حادثة دنشواى قد قضت على مزاعم اللورد كرومر فيما كان يذيعه من أن الفلاحين محبين للاحتلال الانجليزى ، وأسمع العالم صوت مصر عاليا مدويا اذ قال :

« ان مقصدنا الذى نرمى اليه هو استقلال وطننا ، ومحال أن يوجد شىء ينسينا ذلك المقصد »

دوت المقالة فى أوربا دويا عظيما ، وتناقلتها الصحف فى مختلف البلدان ، وكان لبلاغتها وعباراتها المؤثرة ، وصدورها من زعيم الحركة الوطنية ، والتعليق عليها فى معظم الصحف الأوربية والبريطانية ، صدى بعيد فى الرأى العام الأوربى والانجليزى وتزلزل من بعدها مركز اللورد كرومر فى مصر وانجلترا

ونصحت جريدة (التربيون) الانجليزية بوجوب منح مصر حكومة مستقلة ، وكتبت مجلة المجلات الانجليزية بقلم الكاتب الانجليزى الشهير المستر ستيد مقالة ذكر الانجليز فيها بوعودهم لمصر منذ بدء الاحتلال ، وأخذت الصحف العالمية الأخرى تنشر الفصول المسهبة عن مصر والمسألة المصرية

وكان للمقالة وللحملة الفقيد عامة صدى فى البرلمان البريطانى ، فانبرى بعض النواب الأحرار يلقون على اللورد كرومر تبعة الحادثة ، ويستنكرون المحاكمة والتنفيذ • وتغير الموقف حيال الحادثة ، فقد كان السير ادوارد جراى وزير خارجية انجلترا قد أسكت البرلمان بتصريح له يوم ٥ يوليه سنه ١٩٠٦ اذ طلب بلهجة شديدة عدم البحث فى

مسألة دنشواى بحجة أن التعصب الدينى شارب أطنابه فى مصر وأنه لولاه لما وقع الاعتداء على الضباط الانجليز ، ومرت فترة جمود بعد هذا التصريح ، ولكن لم يكد صوت مصطفى كامل يدوى فى أوربا استنكارا لفظائع الاحتلال فى الحادثة حتى أعلن بعض النواب الأحرار أنهم لا يقيدون أنفسهم بالسكوت فى مسألة تهم الانسانية والعدالة وشرف انجلترا ، وقد ساعدهم على الخروج من صمتهم أن مصطفى كامل قد نفى بحجج بليغة تهمة التعصب الدينى عن المصريين

بعد أن نشر الفقيد مقالته عن حادثة دنشواى فى جريدة الفيجارو ، قصد لندن ليستمر فى نضاله ، وليرفع صوت مصر فى عاصمة الدولة المحتلة ، فوصلها يوم ١٤ يوليه ، وقابل الكثيرين من رجال السياسة وأعضاء البرلمان البريطانى والصحفيين ، وحادثهم فى حادثة دنشواى وحوادث مصر وسياسة انجلترا فيها ، ومطالب المصريين ، ونفى عنهم تهمة التعصب الدينى التى كان يروجها ضدهم دعاة السوء ، وانتهز فرصة هذه الحادثة ليرفع صوت مصر عاليا مطالبا باستقلالها ، فهو لم يحصر دعايته فى الحادثة بذاتها ، بل وسع نطاق الجهاد ، واتخذها سببا للمناداة بحقوق مصر واستقلالها ، وترجم مقالته (الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن) الى الانجليزية ، ووزعها على جميع الوزراء وأعضاء البرلمان ورجال الصحافة

ونشرت جريدة (الديلى كرونكل) حديثا له فى عددها الصادر يوم ٢٠ يوليه سنة ١٩٠٦ وقدمت له بمقدمة قالت فيها :

« وفد مصطفى باشا كامل رئيس الحزب الوطنى فى مصر الى لندن أخيرا بقصد عرض مقاصد وسياسة مواطنيه المحبين لبلادهم على الأمة الانجليزية ، وهو شاب مصرى متعلم تعليما أوربيا عاليا بحيث يصعب تمييز الفرنسى المتعلم تعليما عاليا والمتربى تربية سامية عنه ، سواء فى المعرفة والعلم واللغة أو الأفكار بوجه عام ، وهو صاحب ومحرر جريدة عربية تصدر فى القاهرة تسمى (اللواء) وهى أهم الصحف العربية وفى مقدمة الصحف التى تعد لسان حال السواد الأعظم من المصريين الذين مبدؤهم « مصر للمصريين »

ونشرت الحديث ، وهو يدور حول دحض تهمة التعصب الدينى التى أراد خصوم الحركة الوطنية أن يصفوها به ، وبرهن على تسامح المصريين الدينى ، وعرج على حادثة دنشواى وفظاعة المحاكمة والتنفيذ فيها ، ثم سأله محرر الجريدة عن برنامج الحزب الوطنى ، فأجاب : « بأن أول غرض يرمى اليه هو طبعا العمل لاستقلال مصر ، وقد وعدت الحكومة الانجليزية المرة بعد المرة وعدا مقدسا سواء فى البرلمان أو فى المكاتبات الرسمية بأن ترد مصر للمصريين ، وبقطع النظر عن هذه الوعود فان المصريين عامة متحدون فى طلب الاستقلال ، وهل تظنون أن أى انجليزى يستطيع أن يتحمل ضياع حريته وفقدانها كما نتحمل نحن ذلك الآن ؟ لا شك أنه لا يوجد انجليزى يحتمل ذلك

واعجب الشرقيون عامة بدفاع الفقيد عن قضية مصر واستقلالها وكرامتها ، وأكبروا فيه البطوله والاقدام ، اذ

رأوه يجوب العواصم ويرفع صوت مصر جهيرا عاليا فى أوربا وانجلترا ، ورأوا فى جهاده مفخرة لكل شرقى ، فلما جاء لندن أقامت جمعية الوحدة الاسلامية الهندية حفلة كبرى لتكريمه يوم ٢٤ يوليه سنة ١٩٠٦ بفندق (كريتريون) ، حضرها لفيف من عظماء الشرقيين والانجليز

والقى رئيس الجمعية خطبة فى تحية الفقيد ، ونهض مصطفى كامل وألقى خطبة أعرب فيها عن آماله فى نهضة الأمم الشرقية والاسلامية ، وكانت هذه الحفلة من أعظم ما لقيه الفقيد تكريما لجهاده فى سبيل مصر

وأقام وليمة فاخرة بلندن فى فندق كارلتون يوم الخميس ٢٦ يوليه سنة ١٩٠٦ ، دعا اليها بعض الشخصيات ذات النفوذ فى المحيط السياسى البريطانى ، من أعضاء مجلس اللوردات ومجلس العموم والصحفيين ، وبعد أن تناولوا الطعام وقف خطيبا ، وألقى بالفرنسية خطبة جامعة ، أفصح فيها عن مطالب مصر فى الجلاء ومقاومتها للاحتلال

وما انتهى الخطيب من خطبته حتى دوى التصفيق فى القاعة كلها ، وقام المستر جون روبرتسون النائب الحر بمجلس العموم الانجليزى ، ورد على خطبته بكلمة هى مزيج بين تأييد الخطيب والدفاع عن وجهة النظر الانجليزية ، قال :

« يا حضرة الباشا • انى أتكلم باسم زملائى وأبناء وطنى لأؤكد لكم أننا سمعنا خطبتكم باهتمام ممزوج بالعطف ، وأننا نبحث قبل كل شىء عن معرفة حقيقة الأحوال فى بلادكم ، ولذلك نريد أن نسمع صوت الجهتين (أى المصريين

والانجليز) ، واننا نؤمل أن أبناء وطنكم يخاطبوننا دائما بصراحة ويعرفوننا أفكارهم وشكاواهم ، لأن مقصدنا وغرضنا هو خير مصر ليس الا بمراقبة الادارة العمومية ما دام لنا نفوذ فيها ، وما دمنا محتلين البلاد ، ومن رأينا أن المراقبة الانجليزية أفادت المالية المصرية كثيرا ، وانا نريد أن نفعل مثل ذلك في الحياة الاجتماعية والتربية والادارة والعدالة ، اذ يجب ألا تبقى انجلترا هناك لمصلحتها نفسها

« أما مسألة دنشواى فانكم يا حضرة الباشا تعرفون جيدا مقدارَ القلق الذى قوبلت به أخبارها ، واننا لا يمكننا أن نتكلم فى هذا الصدد ما دمنا لم نر التقارير الرسمية ، ولكن يمكننى أن أؤكد لكم وجود الانعطاف الفعلى الخالص من قبل العدد الأكبر والأعظم من الشعب البريطانى ، واننا نقدر آمالكم ومطالبكم حق قدرها ، ونؤمل على الدوام أن نرى يوما بفضل التبصر والتدبر تحقيق بغية الانجليز والمصريين ، وأتمنى الاستقلال المضمون لمصر »

وقد كان لهذه الوليمة وخطبة الفقيد فيها دوى هائل فى مصر ، ونالت اعجاب الرأى العام ، اذ أكبرت الأمة من زعيمها المجاهرة بحقوق مصر فى العاصمة البريطانية وبين جمع من كبار الانجليز ، ونفدت نسخ اللواء الذى نشرت فيه الخطبة ، وانهالت الطلبات على ادارته بطبعها فى كراسة على حدة ، وتوزيعها على الجمهور ، كما تلقى اللواء تلغرافات ورسائل عديدة بتاييد موقف الفقيد والاعجاب بجهاده ، وزادهم اعجابا أنه قام يناضل بمفرده عن حقوق بلاده ، ويرفع صوت مصر فى عواصم أوربا ، ويقوم بعمل كان يجب على رجالات الأمة أن يشاركوه فيه ويحتملوا معه عبئه

وقد أجهد الفقيد صحته فى نضاله صيف سنة ١٩٠٦ ، فغادر لندن وقصد الى فيشى للاستشفاء ، وهنـاك استقبله المصريون المصطافون بها بالحفاوة البالغة والحماسة ، وهنأوه على فوزه فى جهاده ، وكان فى حاجة الى الراحة بعد العناء ، على أنه لم يترك الكتابة والدفاع عن قضـية مصر ، فما أن رأى فى جريدة (الديلى جرافيـك) الانجليزية مقـالة عن المسألة المصرية زعمت فيهـا أن المصريين يعملون على تغيير النير الانجليزى بالنير التـركى ، حتى انبرى للرد عليهـا بمقـالة عنوانهـا (مصر للمصريين) ، نشرت فى عدد ١٥ أغسـطس سـنة ١٩٠٦ ، فند فيهـا هذه المزاعم ، وصرح « بأننا نريد أن تكون (مصر للمصريين) ونرفض قطعيا كل نير أجنبى وكل سيادة أجنبية وأن الذين يظنون أن الشعب المصرى يمقت انجلترا لأنها دولة مسيحية ليسوا الا مخطئين خطأ جسـيما ، فان الشـعب المصرى يمقت المحتـل الذى قوض دعائم اسـتقلال وطنه ، واذا كانت مصر محتلـة بأى دولة أخرى لـكان شـعور المصريين هو ذاته ، لأن ضـياع الاستقلال لا يمكن احتماله بأى حال من الأحوال »

وقد كتب هـذه المقـالة وهـو فى حـاجة الى العـلاج والاستشفاء فى فيشى ، ولكنه لم يكن يعرف لنفسـه راحة وهوادة الى جانب أداء الواجب نحو الوطن

أكبرت الأمة جهاد المترجم أثناء مقـامه فى أوربا صيف ١٩٠٦ ، فسرت فى النفوس فكرة الاحتفال به عنـد عودته تكريما له ، اذ رفع صوت مصر عاليـا ورفع رأس الأمة فى أوربا والعالم ، وتألفت لجنة فى أغسطس سنة ١٩٠٦ بدعوة

من المغفور له محمد بك فريد لجمع اكتتاب عام لهذا الغرض ودعوته الى وليمة كبرى عند رجوعه واهدائه هدية فاخرة اعرابا له عن تكريمه ، وبدأت اللجنة تجمع الاكتتابات ، فلما علم الفقيد بنبأ هذا المشروع أرسل من باريس خطابا بتاريخ ٢٤ سبتمبر الى فريد بك يعتذر فيه من عدم قبول هذا التكريم ، ويطلب أن تقوم اللجنة بدعوة الأمة الى انشاء كلية (جامعة أهلية) ، وأن تتحد الجهود لتنفيذ هذا المشروع

وقد قوبل الخطاب بالارتياح والاعجاب وتحول المشروع الى المساهمة في جمع الاكتتاب لتأسيس الجامعة المصرية

ووصل الفقيد الى الاسكندرية صباح يوم الاثنين ١٥ اكتوبر سنة ١٩٠٦ ، وقدم توا الى العاصمة بقطار الساعة التاسعة صباحا ، فاهتزت مصر لمقدمه ، وأخذت الوفود والجماعات والأفراد تؤم دار اللواء لتحية الزعيم والاعراب له عن شكر الأمة واعجابها بجهاده

نتائج حادثة دنشواى

اسلفنا القول بأن حادثة دنشواى من الحوادث التاريخية التى لا تنسى على مر السنين ، لما كان لها من الأثر البليغ فى تطور الحركة الوطنية ، ونريد هنا ان نذكر ما هو ذلك الأثر البليغ ، أو بعبارة أخرى ما هى نتائج حادثة دنشواى ، واذا تكلمنا عن نتائج حادثة دنشواى فكأننا نتكلم عن نتائج (جهاد مصطفى كامل فى حادثة دنشواى) ، لأن من الحق أن يقال انه لولا هذا الجهاد لما كان للحادثة من نتيجة سوى تغلغل روح الخضوع والرهبة فى نفوس المصريين ، وقد كان هذا ما يقصده الاحتلال اذ أراد أن يضرب الحركة الوطنية

بانتقام فظيع يلقى الرعب فى النفوس ويجعل الأمة تستشعر سوء المصير لكل من تحدثه نفسه بمقاومة الاحتلال ، ولكن جهاد مصطفى كامل فوت على الانجليز قصدهم ، فكان للحادثة من النتائج غير ما ظنوا وتوقعوا

١ ـ اشتداد ساعد الحركة الوطنية

فاولى هذه النتائج أن الحركة الوطنية اشتد ساعدها بانضمام جمهرة المصريين اليها ، اذ شعروا بأن مصطفى كامل كان على حق فى جهاده للاستقلال ، وأن المصرى لا كرامة له حقا بازاء الاحتلال الاجنبى ، ولا مراء فى أن سريان هذا الشعور هو فوز كبير للحركة الوطنية

لقد كان الاحتلال قبل هذه الحادثة مطمئنا الى ثقة السواد الأعظم من المزارعين والأعيان فى عدله وانصافه ، حتى أن اللورد كرومر كان يعتز بأن مؤيديه من أصحاب « الجلاليب الزرقاء » ـ يقصد الفلاحين ـ ولكن حادثة دنشواى كشفت عن حقيقة نيات الاحتلال وهى أنه لا يرضيه من المصرى سوى الخضوع والاستسلام ولا يرضى منه أن يشعر يوما بالعزة والكرامة ، واذا تحرك فيه هذا الشعور كان جزاؤه الظلم والتنكيل ، فالحادثة اذن قد حببت الاستقلال الى نفوس المصريين ، وجعلتهم يعتقدون أنه لا كرامة للأمة ولا لأى فرد منها الا فى ظل الاستقلال ، وهذا فوز وتأييد للفكرة الوطنية واخفاق لأنصار الاحتلال وصنائعه

٢ ـ اهتمام الصحف العالمية بالمسألة المصرية

وثمة نتيجة ثانية ، وهى اهتمام الصحف الأوربية

والأنجليزية بالمسألة المصرية ، فقد بدأت تكتب المقالات والرسائل والبحوث المستفيضة عن شئون مصر ومطالبها

كان الرأى العام فى أوربا قبل أن يرفع مصطفى صوت مصر يعتقد أن مصر من البلاد المتأخرة التى لا تفقه معنى الوطنية والاستقلال ، وأنها لا تختلف عن بقية المستعمرات التى أعدت لأن تحكمها الدول الأوربية ، وكان الظن أن الاحتلال قد استقر فى مصر ، وأن نظام الحكم الذى وضعه اللورد كرومر قد نجح أيما نجاح ، ولكن حادثة دنشواى قد نبهت الأفكار الى فساد هذا النظام والى أن مصر ساخطة عليه ، وأنها تطالب بحريتها واستقلالها ، فعظم بذلك شأن مصر فى نظر العالم ، وازداد المصرى احتراما فى نظر الأوربيين ، لأن أوربا لا تحترم الا الشعوب التى تحرص على حريتها واستقلالها

٣ ـ تغيير سياسة الاحتلال

وأدركت الحكومة البريطانية أن سياستها فى مصر تحتاج الى تبديل وتعديل ، واعتزمت انفاذ هذا التعديل ، ولكنها أخذت الأمور بسنة التدريج ، كما هى عادتها كلما أرادت تغيير سياستها ، وقوام هذا التغيير أن بقاء اللورد كرومر فى منصبه أصبح أمرا غير مرغوب فيه ، وأن الاعتماد على خضوع وزارة مصطفى فهمى للسيطرة الانجليزية لا يفيد الاحتلال فى كل الأحوال ، وأنه لابد من اسناد بعض المناصب الرئيسية الى المصريين واطلاق يدهم فى شئونها ، فلعل ثورة الخواطر تهدأ ، ويخف الضغط البريطانى على الأداة الحكومية ، فيؤدى ذلك الى تخفيف السخط على الاحتلال

٤ ـ تأسيس الجامعة المصرية

نعتقد أن تأسيس الجامعة المصرية كان احدى نتائج حادثة دنشواى ، فقد تنبهت الأفكار عقب الحادثة الى وجوب المساهمة فى كل ما ينهض بالأمة ويرقى بها الى مصاف الأمم الراقية ، لكى تتحرر من العبودية التى وصلت اليها ، فظهر فى اكتوبر سنة ١٩٠٦ أى عقب حادثة دنشواى بنحو ثلاثة أشهر جماعة على رأسهم سعد زغلول وقاسم أمين ، وكانا مستشارين بمحكمة الاستئناف ، يسعون فى تأسيس جامعة مصرية ، فاذا لاحظت ما كتبه قاسم أمين عن شعوره نحو تنفيذ الحكم فى قضية دنشواى أمكنك أن تدرك أن نفسه قد اتجهت حين عظم وقع الحادثة الى المساهمة فى عمل عام ينفع الأمة فى جهادها فاختار العمل لاحياء مشروع الجامعة المصرية

ويلزمنا تقريرا للحقائق وانصافا للعاملين أن نقول ان أول من دعا الى هذا المشروع ومهد له هو مصطفى كامل فقد اقترح فى عدد ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٤ من اللواء انشاء جامعة مصرية بأموال الأمة ، قال فى هذا الصدد ما يأتى :

« مما لا يرتاب فيه انسان أن الأمة المصرية أدركت فى هذا الزمان حقيقة المركز الذى يجب أن يكون لها بين الأمم ، وأبلغ الأدلة على ذلك نهضتها فى مسألة التعليم وقيام عظمائها وكبرائها وأغنيائها بفتح المدارس وتأسيس دور للعلم بأموالهم ومجهوداتهم ، ولكن قد آن لهم أن يفكروا فى الوقت الحاضر فى عمل جديد ، الأمة فى أشد الحاجة اليه ، ألا وهو انشاء جامعة للأمة بأموال الأمة »

وأخذ يبين ضرورة انفاذ هذا المشروع الجليل ، ودعا المفكرين وأصحاب الرأى الى موافاته بآرائهم فيه ، وطرق الوصول الى تحقيقه

وفى يناير سنة ١٩٠٥ عاود الدعوة الى المشروع ، واقترح أن تسمى الجامعة (كلية محمد على) لمناسبة مرور مائة سنة ميلادية على ولاية محمد على الكبير عرش مصر (١٣ مايو سنة ١٨٠٥) ، وكتب عدة مقالات شرحا وتأييدا للمشروع، قال فريد بك فى هذا الصدد فى خطبته يوم ١٧ ابريل سنة ١٩٠٨ : « تعلمون أن المرحوم مصطفى كامل باشا هو صاحب مشروع الجامعة المصرية وقال به من عهد أن شرع فى الاحتفال بمرور مائة سنة على تولية محمد على باشا على مصر »

وقد أيد الأمير (حيدر فاضل) دعوة مصطفى كامل ، فكتب غير مرة سنة ١٩٠٥ فى تحبيذ المشروع ، واستنهض همم الأمراء والأغنياء الى الاكتتاب له ، وجمعت له فعلا فى سنة ١٩٠٥ اكتتابات لهذا الغرض من بعض الأمراء والسراة بلغت نحو ثمانية آلاف جنيه ، ثم وقف المشروع لعدم تعضيد الخديو اياه

وفى سبتمبر سنة ١٩٠٦ حين دعا فريد بك الى تأليف لجنة للاحتفال بعودة الفقيد الى مصر عقب جهاده فى حادثة دنشواى كتب اليه من باريس الخطاب الذى نوهنا اليه بتاريخ ٢٤ سبتمبر يعتذر فيه من عدم قبول هذا الاحتفال ويقترح فتح اكتتاب عام لتأسيس الجامعة المصرية

تجددت الفكرة كما أسلفنا عقب حادثة دنشواى ، وكان

أول من تبرع للمشروع مصطفى بك كامل الغمراوى أحد سراة بني سويف ، اذ تبرع من تلقاء نفسه بخمسمائة جنيه ، ودعا سراة البلاد وأعيانها الى أن يجود كل منهم بمثل هذا المبلغ ، ثم تألفت لجنة تأسيس الجامعة ، واجتمعت لأول مرة بمنزل سعد بك زغلول (وكان لا يزال مستشارا بمحكمة الاستئناف) يوم الجمعة ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ ، واختير سعد زغلول وكيلا للرئيس ، وقاسم أمين سكرتيرا للجنة ، وتركت الرئاسة ليتولاها أحد الأمراء ، ونشرت الدعوة الى الاكتتاب وبدأت به فعلا فى أول جلسة ، وكان هذا الاجتماع نواة تنفيذ المشروع

٥ ـ تعيين سعد زغلول وزيرا للمعارف

مما لا شك فيه أن تعيين سعد زغلول وزيرا للمعارف كان من النتائج المباشرة لحادثة دنشواى ، فقد أرادت الحكومة البريطانية تعديل سياستها فى مصر ، وكانت تعلم أن من أسباب سخط الأمة على هذه السياسة حصر السلطة فى يد المعتمد البريطانى والمستشارين الانجليز ، فأرادت أن تسند بعض المناصب الكبيرة الى الأكفاء من المصريين ، وتترك لهم جانبا من السلطة ، لعلها بذلك تخفف من سخط الأمة على الاحتلال ، وتجتذب فى الوقت نفسه الى صفها بعض رجالات مصر ، ومن المحقق أن اللورد كرومر هو المقترح تعيين سعد زغلول بك وزيرا للمعارف ، وهذه واقعة مسلم بها من الجميع ، وقد صدر الأمر العالى بتعيينه فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٠٦ ، فملابسات تعيينه تدل على أنه نتيجة من نتائج حادثة دنشواى ، لأن سعد بك زغلول

كان مستشارا بمحكمة الاستئناف منذ سنة ١٨٩٢ ، واللورد كرومر كان معتمدا لانجلترا في مصر منذ سنة ١٨٨٣ ، ومع ذلك لم يفكر في اسناد الوزارة الى سعد زغلول المستشار ، الذى كان منقطعا الى قضائه في محكمة الاستئناف ، فالتفكير في تعيينه بعد وقوع حادثة دنشواى بنحو أربعة أشهر دليل على أنه أثر من آثارها ، وهو جزء من التغيير الذى انتوت الحكومة البريطانية ادخاله في سياستها بمصر عقب الحادثة ، ومن هنا يمكنك أن تدرك ما لمصطفى كامل من الفضل في هذا التعيين

٦ ـ استقالة اللورد كرومر

كان لحملات الفقيد على سياسة الاحتلال في حادثة دنشواى وفي شئون مصر عامة صدى كبير في الرأى العام الأوربى والبريطانى ، وألقت حادثة دنشواى على شخصية اللورد كرومر عبئا كبيرا من التبعات الجسام ، لا من الوجهة السياسية فحسب ، بل من الوجهة الانسانية ، فرأت الحكومة البريطانية اقصاءه عن منصبه ، انقاذا لسمعتها أمام العالم المتمدن ، وتخفيفا لهياج الشعور الوطنى في مصر ، وقد استقر رأى الوزارة البريطانية (وكان يرأسها وقتئذ السير هنرى كامبل بانرمان زعيم الأحرار) على هذه النية عقب استفاضة الأنباء عن فظائع التنفيذ ، ولكنها أرجأت تنفيذ نيتها حتى يعود اللورد كرومر الى مصر استبقاء لكرامة رجالها ، وقد عاد الى مصر مزودا بتعليمات جديدة تبعا لتغيير سياسة الاحتلال كما أسلفنا ، ثم قدم

استقالته فى ابريل سنة ١٩٠٧ عقب تقديمه آخر تقرير له عن شئون مصر سنة ١٩٠٦

كان استعفاء اللورد كرومر انتصارا كبيرا للحركة الوطنية ، فقد تولى منصبه في مصر منذ سنة ١٨٨٣ ، وبقى فيه الى سنة ١٩٠٧ ، أى أنه ظل يشغل هذا المركز مدة أربع وعشرين سنة كان فى خلالها الحاكم المطلق لمصر ، فلا شك أن اقصاءه عن هذه السلطة بعد هذه المدة الطويلة هو اعتراف بقوة الحركة الوطنية

كتب الفقيد في عدد ١٢ ابريل سنة ١٩٠٧ من اللواء تحت عنوان « استعفاء اللورد كرومر » مقالة افتتحها بقوله:

« ما حدثت حادثة دنشواى ودوى دويها في العالم كله وقامت لها قيامة الأحرار في انجلترا وعرف المتمدنون في أنحاء الأرض مقدار بشاعتها وفظاعتها وشدة انفعال المصريين من الحكم والتنفيذ فيها حتى ذاع وشاع أن مدة اقامة اللورد كرومر في مصر محدودة وانه لا يلبث أن يترك وظيفته لما أصاب سياسته من الخيبة والفشل »

وقال ذاكرا خلاصة تاريخ اللورد كرومر فى مصر :

« ماذا نذكر من سياسة اللورد كرومر وخطته في مصر ؟ نذكر أنه الضارب لعرش الخديوية بيد من حديد ، نذكر أنه الذى سلب الحكومة المصرية والوزارة الأهلية كل وجود ونفوذ وحياة ، نذكر أنه الذى حرم الفقراء من التعليم فى مدارس الحكومة ، وحارب اللغة العربية ، نذكر أنه الذى قرب الذين يضحون بأشرف العواطف لخدمة المطامع الذاتية، نذكر أنه الذى رمى المصريين بكل جهل وتقصير ، وأعلن

للملأ وجوب سيادة الانجليزى على المصرى ولو كان هذا رئيس ذاك ، نذكر أنه الطاعن على الدين الاسلامى فى تقريره الأخير ذلك الطعن الذى هاجت له عواطف المسيحين مثل المسلمين ، نذكر أنه الذى عمل بما فى وسعه لمقاومة المطالب الوطنية وانكار كفاءة الأمة واستعدادها لنيل الحقوق النيابية ، نذكر أنه الذى سعى لقتل العواطف الوطنية بالمال وظن أن الثروة وحدها كافية لارضاء أمة وشراء ضمائر شعب ، نذكر بنوع خاص أنه الذى أراد الانتقام من شعور الناشئة المصرية فى حادثة اضراب الطلبة ، فرقى دنلوب مستشارا للمعارف ، وأراد الانتقام من عواطف الأمة كلها ، فكان ما كان فى دنشواى مما يذكره الخاص والعام ، نذكر أنه لم يكتف بذلك كله بل تعمد أمام هذه الأمة وهى حزينة كئيبة على منكوبى دنشواى ، مكافاة من سلكوا فى هذه الحادثة المشئومة المسلك الذى يحبه جنابه وتنفر منه الأمة كلها »

وقد كان الفقيد منصفا فى مقاله ، اذ ذكر للورد كرومر ما له بعد أن ذكر ما عليه ، قال :

« هذا ما نذكره للورد كرومر ويذكره له كل المصريين ، ولكننا نذكر له بكل انصاف أنه لبث طول حياته مثالا للنزاهة الذاتية ، حتى يصح أن تضرب به الأمثال من هذه الوجهة لكل الحكام وذوى السلطة ، ولو شاء جنابه لكان أغنى أغنياء الأرض بما فى قبضته من جاه ونفوذ ، ولكنه فضل الشرف الذاتى على المال وخيرا فعل »

ثم قال : « ونذكر له أيضا انه عمل ما عمل فى مصر ليجعلها مستعمرة انجليزية ، ان لم يكن اسما ففعلا ، فهو

كان على خلاف تام مع احرار الانجليز الذين يرون فى مصافاة المصريين نفعا لانجلترا أكبر وأسمى من معاداتهم بسلب حقوقهم »

وختم الفقيد مقالته بالدعوة الى توحيد الصفوف ، قال :

« مهما كانت الخطة التى تنوى الدولة الانجليزية اتباعها فى مصر فاننا لا نرى لبلادنا سلامة ونجاحا الا فى اتفاق المصريين واتحادهم وتضامنهم فى المطالبة بحقوقهم والمناداة بميولهم بكل همة وصراحة وبلا خوف ولا حياء ، لأن الأمة لا تبلغ مأربها الا اذا كانت قادرة على نيله ، وليس فى مظاهر القوة مظهر أرقى وأسمى من المجاهرة بالحق والدفاع عن مصالح الأوطان بكل قلم ولسان »

الحركة الوطنية
وتأسيس الحزب الوطنى

الحركة الوطنية عام ١٩٠٧ :

خطت الحركة الوطنية سنة ١٩٠٧ خطوات موفقة ، وحفلت بالجهود الجبارة التى بذلها الفقيد فى بث روح الوطنية فى النفوس والدفاع عن حقوق مصر ، وكانت هذه السنة فوزا كبيرا ونصرا مبينا للحركة الوطنية .

ففيها عظم اهتمام الرأى العام فى أوربا وانجلترا بالمسألة المصرية ، على أثر دعاية الفقيد العظيمة ، وظهر تيار من الاستنكار العام لسياسة الاحتلال فى مصر بفضل ما نشره عن فظائع دنشواى ، واشتد تأييد الأمة لدعوته ، وازداد اقبال القراء على اللواء ، اذ رأوا فيه صوت الوطنية الحقة وعلمها الخفاق ، وتضاعفت منزلة الفقيد فى نفوس الأمة مما ظهر فى الحفاوة البالغة التى قوبل بها عند عودته من أوربا فى اكتوبر من تلك السنة

وفيها أصدر الفقيد جريدتى « ليتندار اجبسيان » و « ذى اجبشنيان ستاندرد » بعد أن أسس لهما شركة كانت أكبر شركة صحفية تألفت حتى ذلك الحين فى مصر والشرق

اعتزم مصطفى بعد حادثة دنشواى اصدار صحيفتين

يوميتين : احداهما بالفرنسية والأخرى بالانجليزية ، للدفاع عن حقوق مصر واطلاع الرأى العام الأوربى على حقائق الشئون المصرية ورد المفتريات عن مصر ، وقد تولدت عنده هذه الفكرة عقب زيارته للندن فى يوليه سنة ١٩٠٦ ، فكاشف بها صديقه وزميله فى الجهاد محمد بك فريد فى (فيشى) صيف هذا العام ، فحبذ المشروع وشجعه على تنفيذه ، وهو مشروع ضخم يستدعى همة كبيرة وكفاية عالية ومقدرة فى الادارة والتحرير ، وقوة فى المال ، وقد اضطلع الفقيد بهذا العمل الكبير الى جانب اصداره اللواء وقيادته للحركة الوطنية ومراسلته لأهم الصحف الأوربية العالمية

وقد أسس من أجل ذلك فى نوفمبر سنة ١٩٠٦ شركة مساهمة لاصدار الجريدتين تألف رأس مالها من عشرين ألف جنيه اكتتب بها المساهمون فيها ، وكلهم من صفوة المصريين ، وحنق اللورد كرومر من هذا المشروع ، فزعم بلسان الصحافة الانجليزية أن الخديو عباس الثانى هو الذى بذل المال لمصطفى لانشاء الجريدتين ، فدحض الفقيد هذه المزاعم الباطلة ، ونشر أسماء المساهمين ومقدار ما اكتتبوا به وهم : مصطفى كامل باشا ، محمد بك فريد ، عمر سلطان باشا ، محمود بك أنيس ، على بك فهمى كامل ، محمد بك أحمد الشريف ، اسماعيل بك صادق ، ابراهيم بك حليم ، أحمد فايق باشا ، حسن حارس باشا ، سيف الله يسرى باشا ، محمود بك أبو النصر ، محمد بك سعاد ، مصطفى بك رشيد ، يوسف بك حافظ ، محمد بك عبد اللطيف ، اسماعيل أفندى كامل ، أحمد بك حجازى ، حسن محسن باشا ، محمد بك خورشيد ، عثمان بك

أبو شبب ، فؤاد بك المنشاوى ، اسماعيل أفندى حافظ ، خالد بك سعيد ، عبد الحميد بك عمار ، ابراهيم أفنـــدى نيازى ، حسن بك جمجوم ، يوسف بك ذهنى ، قلينى باشا فهمى ، جلال الدين بك عارف ، توفيق بك حمودة ، حافظ أفندى مصطفى

واختار لتحرير الصحيفتين محـررين من خيرة الكتـاب الأوربيين ، وذهب خصـيصا الى أوربا يصـحبه المغفور له محمد بك فريد فى ديسمبر سنة ١٩٠٦ لاستقدام المحررين واستحضار معدات الصـحفيين ، وبدأ ظهورهما فى مارس سنة ١٩٠٧ ، فكانت ليتندار أجبسيان تصدر فى المســاء وذى اجبشيان ستاندرد فى الصباح

ظهـرت ليتنـــدار يوم ٢ مارس ســـنة ١٩٠٧ ، وذى اجبشيان ستاندرد صباح اليوم التالى ، وفى صدرهما مقالة للفقيد ختمها بقوله :

« ليس فى جهادنا لحرية وطننا ما يخيف أحدا من الناس، فان التسامح والكرم من الصفات التى تفتخر بها مصر على الدوام ، وأن هذا المكان لمتسع لكل العـاملين وكل الرجال المستقيمين النزيهين ، وسيرى جميع الذين يعيشون فوق أرض مصر البديعة مقدار تمسـكنا فى الحـال والاستقبال بمبدئنا الذى تضمنته هذه الـكلمة : (أحرار فى بلادنا • كرماء لضيوفنا) ! »

وأقام المترجم بفندق الكونتننتال يوم ٢ مارس احتفــالا لمناسـبة ظهور الجريدتين جمع صـفوة القـوم من مصريين وأجانب ، وألقى فيه خطبة بالفرنسية قال فيها :

« ان قصدنا من تأسيس هاتين الجريدتين هو احاطة العالم المتمدن وكل الذين يهتمون بشئون مصر علما بخطتنا الوطنية التي غير خصومها شكلها وقلبوا حقيقتها فقد مثلونا في أغلب الاحيان كأننا أعداء لاوربا نريد جمع قوى الاسلام كافة ضدها ، واحداث انقلاب عام ،وأظهرونا لمن يجهلون لغتنا كأننا ننادى بالبغضاء والتعصب الديني فنحن جئنا اليوم نكذب بصورة قطعية هذه التهم الدنيئة ونثبت للعالم كله أن مطلبنا الوحيد بل مطلبنا العالى السامى هو أن نرد لمصر مكانة في العالم تليق بتاريخها وماضيها ومركزها ، وان كل مجهوداتنا موجهة لهذه الغاية »

وختم خطبته بقوله : « ان العمل الذى نعمل له يرمى الى جعل مصر بلادا كبيرة كريمة ، وان الاتفاق بين المصريين والاوربيين هو من أهم مبادئنا الاساسية ، فاسمحوا لى اذن أيها السادة أن أدعوكم لان تحيوا معي ذلك اليوم الذى لابد من مجيئه والذى يرى فيه العالم طرا شروق شمس الحرية والاستقلال فى مصر » •

وخطب بعده المسيوسانت أوجان أحد محررى ليتندار والمستر شارل رودى المحرر بجريدة ذى اجبشيان ستاندرد •

ثم وقف الفقيد وخطب للمرة الثانية باللغة العربية خطبة قال فيها :

« ان اصدار جريدتين بلغتين أجنبيتين فى وادى النيل يعد عملا صغيرا وكبيرا فى آن واحد ، انه أيها السادة صغير فى جانب اهتمامكم به ، ولكنه عظيم لانه من الاعمال التى تقوم بها هذه الامة فى سبيل الخدمة الوطنية ،وهو

صغير فى جانب آمالنا العظيمة وأمانينـــا الكبرى وهى المطالبة بالاستقلال ! (تصفيق طويل) » .

« أيها السادة ! اسمحوا لى أن أقول لكم انكم تخجلوننى بهذا التصفيق الطويل لانى أرانى لم أقدم شخصيا لهذه البلاد خدمة وطنية جديرة بهذا الاهتمام ، وانى أرى نفسى فى (ألف باء) من خدمة تلك الامة العزيزة ، وأرجوكم أن تطلبوا منى المزيد ، لا أن تصفقوا لى ، فلربما عاقنى هذا الاستحسان عن الاستمرار فى تلك الخدمة الشريفة »

ثم قال : « ان البلاد أصابتها مصيبة انقســم أهلها الى فريقين ، فريق الامل وفريق اليــأس ، فــكونوا أيهـا السادة من الفريق الاول ، واعلموا اننى لا أسألكم سوى أن تكونوا من هذا الفريق ، أسألكم أيها السادة أن يكون لكم أمل ، أسألكم أن تقولوا ان لنا أملا وقوة ثقــة بالله ويقينا بالمستقبل »

الى أن قال : « أيها السادة ، لم يتطلع العالم المتمدن لاحوال هذه البلاد ولم يتنبه لشئونها مثل تطلعه وتنبهه فى هذه الايام ، فقد ظهرت آثار هذا الاهتمام فى ســائر المظاهر ولم تخف على أحد ، فاعلموا أن أول واجب عليكم نحو هذا الوطن العزيز هو واجب الاتحاد ، لان الاتحـاد قوة ليس وراءها قوة ، ليتــرك كل وطنى الحــزازات والضغائن الصغيرة ، لان هناك شعورا أقوى وأشرف من تلك الامور ، الا وهو انقاذ الوطن المصرى ، اعلموا أيهـا المصريون الاعزاء انكم اذا أردتم أن تنالوا غايتكم وتصلوا الى غرضكم فليس لكم الا الاتحاد وهو الغرس الذى ينبت

ثمره قبل أن تفرغوا من زرعه ، ان الله سبحانه وتعالى خلقكم لتكونوا أحرارا سعداء ، لا أرقاء تعساء ، فاذا عملتم بأوامره تعالى نلتم هذه الامنية الكبرى وفزتم بالنجاح ، فكونوا كلكم أملا ، واعملوا لهذا الغرض الشريف وتلك الغاية السامية ، وأنا الكفيل لكم بالوصول الى الاستقلال المنشود لا محالة ان شاء الله » .

وقد قوطعت كلمات الفقيد بالتصفيق الشديد ، وبعد أن أتم خطبته دعا الحاضرين الى تناول الشاى ولبثوا يتحادثون الى منتصف الساعة السابعة مساء ، وانتهت الحفلة فى أبهى رونق من الجمال والجلال .

خطاب المترجم الى رئيس الوزارة البريطانية

فى خريف سنة ١٩٠٧ أرسل الفقيد كتابا مفتوحا الى السير هنرى كامبل بانرمان رئيس الوزارة البريطانية بتاريخ ١٤ سبتمبر ، لمناسبة ذكرى احتلال الانجليز القاهرة سنة ١٨٨٢ ، جاهر فيه بالاحتجاج على استمرار الاحتلال ، وطالب الحكومة البريطانية بلغة رصينة متزنة بتحقيق وعودها فى الجلاء ، ولما كان هذا الكتاب من الوثائق المهمة فى تاريخ الحركة الوطنية فاننا ننشر ترجمته ، قال :

« يا حضرة الرئيس .. ان هذا اليوم يوم ١٤ سبتمبر هو يوم مخلد الذكر فى التاريخ ، سواء بالنسبة لمصر أو لانجلترا .

« فاسمحوا لى أن أذكركم بأنه فى آن واحد تذكار مرور مائة عام على جلاء الجنود البريطانية عن مصر ،ذلك الحادث

الذى وقع يوم ١٤ سبتمبر عام ١٨٠٧ ، والتذكار الخامس والعشرون لدخولها مدينة القاهرة ، الذى حصل يوم ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢ ، فلهـــذا التذكار شأنان ، واذا كان يذكر المصريين بمجد آبائهم الذين عرفوا كيف يدافعون عن الوطن ويجبرون انجلترا على العدول عن غزو مصر من قرن مضى ، فانه يحملهم أيضا على التفكير فى تلك التصريحات الرسمية التى صدرت عن حصول الاحتلال الحالى لبلادهم، وفى كلمة الشرف والتعهدات التى أخذتها على نفســــها بريطانيا العظمى .

« ان لانجلترا يا حضرة الرئيس فى تذكار ١٤ سبتمبر هذامن الفخار أقل مما لمصر ، فان الشعب المصرى لم يجد فى انجلترا فاتحا غزا بلاده بقوة السلاح ،بل دولة صديقة أرادت مساعدة الخديو على توطيد الامن والنظـام ووعدت علنا بمغادرة البلاد متى توطدت أركان الامن ، ولقد مضت خمس وعشرون سنة ولم ينفذ هذا الوعد ، وان القليل من الانجليز ليفكرون الآن فى الاقسام التى فاهت بها الملكة فيكتوريا والخطب التى ألقاها وزراؤها وأكدوا فيهــا أن استمرار الاحتلال الانجليزى فى مصر يكون عارا على التاج والشرف البريطانيين .

« ولكننا نحن معاشر المصريين نفكر فى هذه الاقســام وتلك الخطب ، نفكر فى ذلك العهد الذى يســمو على كل المعاهدات ، وهذا العقد الذى يعلو كل العقود ، ورغما عمن يقولون أن السياسة ليست الا (كذبا واحتيالا وخداعا). فاننا نظن أنه لا يمكن لامة متمـدنة كبيرة أن تفكـر فى

تشويه تاريخها باختلاس لا مثيل له ، ولا يمكن تعريفها لجسامته ، وها هو التاريخ يقول بأعلى صوت ويبين الخطر الذى تلحقه مصر بالدول الطامعة اللواتى حاولن امتلاكها ولم تفلح واحدة منهن فى استعبادها بصفة نهائية ، ولكن لعل دروس التاريخ لا تكفى فى نظر أنصار التوسع فى الاستعمار من الانجليز لان تثبت أنه لا يمكن أن يملك مصر أحد سوى المصريين ، الا أن يقظة الامة المصرية من شأنها أن تظهر لهم من الآن مستقبلها القائم على الحرية والاستقلال ، وأن مصر تحافظ على آمالها أكثر مما كان ذلك فى أى زمان ، وترقب المستقبل بثقة لا يزعزعها شيء ، وذلك رغما عن المصائب كافة ، وعن جميع التدابير السياسية والمناورات الدولية ، بل أؤكد أن المصائب قد قوت الروح الوطنية المصرية ، وكل العارفين بأحوال مصر يعترفون بأن (دنشواى) أفادت فى تقدم (الوطنية) أكثر من المجهودات الكبرى التى بذلها الوطنيون .

« وان المسالة المطروحة اليوم أمامكم يا حضرة الرئيس وأمام الامة الانجليزية هى معرفة ما اذا كانت انجلترا تريد أن تجعل مصر صديقة أو عدوة لها ، هى معرفة ما اذا كانت انجلترا تدرك مصالحها العالية وتقدر الفوائد التى تكتسبها من الاتفاق مع أمة تزداد كل يوم عددا وثروة وقوة ، فتوفى بوعدها وتحترم شرفها ، أو اذا كانت تصر على العناد وتحارب كرامتها ، وتجاهد ضد أمة تفيض حياة ومصرة على نيل حريتها .

« وانه اذا كانت انجلترا قد اعتبرت الجلاء ممكنا فى عام ١٨٩٠ وحددت هذا الميعاد فى اتفاقية «درومندوولف»

لانسحاب الجنود البريطانية ، فكيف يمكنها أن تدعى أن وقوع هذا الامر الموافق للشرف ولحقوق الشعب المصرى غير ممكن الآن ؟ أى انجليزى حر يستطيع أن يزعم بجد أن ساعة الجلاء عن مصر لم تأذن بعد ، فى حين أن المستر جلادستون قد اعترف في خطابيه اللذين كتبهما لى فى عام ١٨٩٦ أن ساعة الجلاء آذنت من علاة اعوام » ؟

« يقول السير ادوارد جراى انه لو تركت انجلترا مصر للمصريين لسادت الفوضى والرشوة فى البلاد ، وهذا التأكيد لا يفسر الا بشيء فاضح ، وهو عدم اقتدارانجلترا بعد احتلال دام خمسة وعشرين عاما على القيام بمهمتها فى مصر ، أو القضاء على الأمة المصرية بأنها ليست أمة قادرة على حكم نفسها بنفسها وخليقة بأن تنال مكانتها بين الشعوب المتمدنة ، ومن المحال أن يقبل رجل عادل مستقل الفكر هذه النظرية التى هى مسبة مزدوجة لانجلترا ولمصر، وفضلا عن ذلك فانه لا يجهل أحد من الناس أننا نطلب لمصر حكومة دستورية حرة ، وأننا لا نقبل حكم الاهواء والاستبداد أبدا ، وأن الارادة الوحيدة التى نريد أن نخضع لها هى ارادة الامة ، وان العقل لا يقبل مطلقا أن السلطة المطلقة المتقلبة حسب الاغراض والاهواء ، التى يتصرف بها المعتمد البريطانى ، تكون أفضل وأنفع من من دستور أهلى مؤسس على المبادىء الحرة ، اذ القول بذلك يعادل القول بأن حكومة الصين خير من حكومة انجلترا ، وأنكم قلتم يا حضرة الرئيس فى احدى خطبكم انه لا يمكن أبدا أن تعوض حكومة حسنة حكومة أهلية ، وأقول أنا أيضا انه لا يوجد شيء فى العالم ينسى الاستقلال

لشعب عارف بحقوقه ، وان حكومة الاجنبى ، ولو كانت مثال اللطف والرقة ، بخلاف ما هى فى مصر ، مبغوضة وممقوتة على الدوام ، لان سلاسل الاستعباد هى سلاسل على كل حال ، سواء أكانت من ذهب أم من حديد .

« ولا أظننى مبالغا اذا أكدت يا حضرة الرئيس أن أفضل صديق لانجلترا هو الذى ينصحها باحترام شرفها ووعودها ، ويقول لها بكل اخلاص ان كل ما تستطيع عمله ضد مصر لا يوقف بلادنا فى طريق التقدم والحرية الذى سلكته بكل عزم ، وان أمة كأمتنا ، جمعت مدة قرون عدة ، قوى من الصبر والهمة والارادة ، لا تعرف اليأس ولا تقف أمام أى أحد لاسترداد استقلالها ، وان لانجلترا الحرة أن تقرر اذا كان هذا الاستقلال سيتم بارادتها أو ضدها ، ولقد رأيت من الضرورى يا حضرة الرئيس أن أذكركم فى هذا اليوم المخلد الذكر بالنسبة لكم وبالنسبة لنا بوعود الحكومة البريطانية وبما تنتظره مصر الوطنية من المستقبل .

« واننا تألمنا كثيرا من (كذب السياسة) . فلا نلجأ للمهارة والاحتيال والكذب ، وان كرامتنا وشرف قضيتنا ليحتمان علينا الصراحة والصدق والاستقامة .

« وتفضلوا يا حضرة الرئيس بقبول عظيم احترامى
« مصطفى كامل »

باريس فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧

نشرت جريدة « الفيجارو » هذا الكتاب فى صدر عددها المؤرخ ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧ ، فكان بمثابة بعث

جديد للمسألة المصرية ، لان شخصية الفقيد ، وحججه الدامغة ، استرعت الانظار الى قوة الكتاب وصاحبه ، وقد تناقلته الصحف الفرنسية الكبرى كالطان والديبا والاكلير والايكو دى باريس وغيرها ، وعلقت عليه باستحسان عام ونقلت كبريات الصحف الانجليزية كالتيمس والستاندرد والمورننج بوست والديلى نيوز خلاصته ضمن الرسائل التلغرافية الواردة اليها من مراسليها بباريس ، وعلقت الديلى نيوز عليه تعليقا مشربا بروح الود والتأييد ، وعارضته التيمس في مقال لها ، وتردد صداه في الصحف الالمانية والنمسوية والايطالية ، وكان له دوى كبير فى مصر ، اذ جاء على أثر نجاح الفقيد فى بعث قضية دنشواى فى العالم ، فكان حديث الناس فى المجالس والصحف ، ووجه الحركة الوطنية وجهة الجلاء ، أى فى الطريق الذى رسمه الفقيد من قبل •

عظم منزلة الفقيد

أكبرت الامة جهاد مصطفى كامل في أوربا سنة ١٩٠٧ ، بعد جهاده عقب حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦ ، فلم يكد يعلم الجمهور بحضوره الى الاسكندرية ومجيئه الى القاهرة حتى ذهبت جماهير الوطنيين جماعات ووحدانا الى محطة العاصمة قبيل وصوله اليها يوم ٧ اكتوبر سنة ١٩٠٧ ، دون دعوة أو سابق اتفاق لاستقبال الزعيم ، وأخذ اقبال جماعات المستقبلين يشتد ويتعاظم قبل قدوم القطار ، حتى صار كل من شاهد هذه الجموع الزاخرة يدهش لكثرة الزحام ، وكأن كلا منهم كان على موعد مع الآخرين ، مع أنه لم يكن ثمة موعد ولا اتفاق ، وهال

موظفى المحطة ذلك الزحام الذى لم يسبق له نظير ،ووجد عمال صرف تذاكر المقابلة حيرة كبيرة فى تلبية رغبـــات طالبى التذاكر ، وقبيل قدوم القطار بلغ الزحام أشده على أرصفة المحطة ، وبلغ عدد المستقبلين ثلاثة آلاف ونيفا ، بحيث كان هذا الجمع الزاخر يستوقف النظر لكثرة عدد المجتمعين ، وحضورهم جميعا مسوقين بشـــعور تكريم صاحب اللواء ، دون أن يدعوهم الى ذلك داع من لجنة أو جماعة أو أفراد .

وكان معظمهم من علية القوم وصفوة الشباب ، يتقدمهم المغفور له محمد بك فريد ، وما كاد القطار يصل الى افريز المحطة حتى دهش الفقيد لكثرة هذه الجمـوع التى جاءت لتحيته ، واغرورقت عيناه بالدموع من التأثر . ولم يكد يقف القطار حتى ضج الجمع بالهتاف : « ليحيى صاحب اللواء ، ليحيى الرئيس ، ليحيى الباشا » ، وكرروا هذا الهتاف قبل وقوف القطار وبعد وقوفه ، ولما تقدم أصدقاء الزعيم وأخصاؤه لتحيته تعذر الوصـــول اليه لانه كان محوطا بسور من الجماهير المتلاحمة المتزاحمة ، الى حـد جعل الجباه تتصبب عرقا ، وما زالت الجماهير تحيط به الى أن وصل خارج المحطة وهناك وقف قائلا :

« انى أشكركم من صميم فؤادى على مظاهرتكم السامية وأدعوكم لان تقـولوا : (لتحيـا مصر) .. أنـكم تعرفون جميعا انى لست الا أضعف خـادم لهذه البـلاد العزيزة ، وأنى انما أقوم ببعض الواجب لها ، فـكل تحية منـكم هى موجهة لها بالذات ، ولا يمكننى أن أقبلها الا بهذه الصفة، فاسمحوا لى أن أشكركم باسم مصر شكرا جزيلا ، واسأل

الله أن يحقق آمالى وأدعوكم لان تقولوا معى : لتحيا مصر ، ليحيا الاستقلال » ، فرددت الجموع هذا الهتاف عاليا ، وقد وقفت حركة المحطة نحو نصف ساعة ، لم يستطع فيها أحد من ركاب القطار على ما فيه من الكبراء والعظماء أن يبرح مكانه ، حتى انصرفت تلك الجموع ، وكان هذا الاستقبال هو الاول من نوعه فى الاستقبالات الوطنية الرائعة ، اذ لم يسبق أن قوبل زعيم فى عهد الاحتلال بمثل هذه المظاهرة الكبرى ، وبخاصة لانها حصلت من غير سابق اتفاق أو دعوة أو دعاية أو توريط ، بل كانت وحى الشعور الوطنى الصادق الذى انطبع فى نفوس المصريين ، تقديرا لجهاد الفقيد وتشبعا بروحه الوطنية .

تاسيس الحزب الوطنى : حزب الجلاء

كان اسم « الحزب الوطنى » يطلق منذ بداية ظهور مصطفى كامل على جماعة الوطنيين الذين ينادون بالاستقلال والجلاء ، وكان الفقيد يعتبره موجودا منذ الساعة الاولى ، والصحف الاوربية تعبر عن أنصاره بالحزب الوطنى ، على أنه لم يكن ثمة حزب منظم له رئيس وأعضاء ومجلس ادارة ، لكنه كان موجودا بالفعل كفكرة تضم حولها الانصار والمجاهدين ، قال مصطفى كامل فى هذا الصدد فى لواء ١٠ إكتوبر سنة ١٩٠٧ : « ان الحزب الوطنى المصرى الذى جعل أول مراميه وأسمى غاياته استقلال مصر ورد حقوقها اليها موجود فيها فعلا من ثلاثة عشر عاما مضت ، فهو وان لم يظهر بشكل نظامى وبلائحة ولجنة ادارة قد ظهر بأعماله حيث اتفق أعضاؤه على خدمة البلاد

بكل قوة ، قاوم الاحتلال فى أوربا ومصر مقاومة شهدها كل المصريين والغربيين ، وارتبط بروابط أكيدة مع جملة من سواس أوربا ، ولما حدثت حادثه (فاشودة) ضعفت همم بعض رجال الحزب ، كلما انفصل عنه بعض أفراد لتمكن اليأس من قلوبهم ، وثبت فى موقفه من اعتقد أن فى نهضة الامة بنفسها سلامتها وبلوغها كل مآربها » .

وقال فريد بك فى هذا الصدد:« قضى رحمه الله خمس عشرة سنة من حياته ، اى منذ كانت سنه تسعة عشر عاما فى تكوين الحزب الوطنى ، فابتدأ بأن جمع حوله بعض اخوانه المخلصين وكون منهم جماعة مخلصة له ولعمله »

ثم فكر سنة ١٩٠٠ فى جعل الحزب حزبا منظما على غرار الاحزاب الاخرى الاوروبية ، وكتب فى عدد ٢ يوليه سنة ١٩٠٠ من اللواء مقالا بعنوان : « حزب وطنى حر فى مصر » أعرب فيه عن أمنيته فى تأسيس هذا الحزب ، كتب مقاله هذا من « بودابست » ، حيث أعجبه ما رآه من وطنية الشعب المجرى ، وقال فى هذا الصدد :

« ان تاريخ هذا الوطن المجرى هو اكبر مدرسة لرجل مثلى وهب حياته لخدمة وطنه واعلاء شأنه » ، وختم مقاله بقوله : « هل يسمح لى الزمان بأن أرى فى مصر هذا الحزب الوطنى الحر الشريف المبادىء ، المتحد الاعضاء ، الناهض بالأمة الى مراقى النجاح والفلاح ؟ انى أعرف ان اليائسين سيقولون : ان تأسيس حزب كهذا أمر محال . ولكنى اذا كنت لا أيأس من خلاص بلادى فمحال على أن أيأس من تحقيق هذا الامر الجليل » .

وفي سنة ١٩٠٧ اعتزم تنفيذ فكرته بوضــــع نظـام للحزب الوطني ، وفي ذلك يقول في لواء ١٠ اكتوبر سنة ١٩٠٧ : « ولما كان لكل عمـــل وقت فقد جاء الوقت لان يوضع للحزب الوطنى نظام تام يجمع كل رجاله وأنصاره ومحبيه الذين مضوا السنوات وهم مشـــاركون لنا فى العمـل بكل أنواع المشـاركة ، وانى من ســاعة وصـولى الاسكندرية (٧ أكتوبر سنة ١٩٠٧) الى هــذه الساعة وكل واحد من رجال هذا الحزب وأبطاله الكرام يطالبني بوضع هذا النظام بصورة نهائية. حتى يتم التعـاون بين جميع المخلصين لبلادهم المحبين لامتهم المتشربين مبادىء الشهامة والارادة والصدق والاقدام فتكون الخدمة أجـل وأكبر ، والعمل أفيد وأعظم » .

خطبته الكبرى بالاسكندرية

وقد اعتزم عقب عودته من أوربا في اكتوبر سنة ١٩٠٧ القاء خطبة كبرى بالاسكندرية ، جعلها بمثابة دعوة عامة الى الانضمام الى الحزب الوطنى ، واتخذ « الجلاء » مبدأ للحزب ، حتى صار أصبح تعريف له أنه « حزب الجلاء »

كانت هذه الخطبة أكبر خطبة سياسية وطنية ألقاها فى حياته ، وأحدثت من التأثير ما لم تحدثه أية خطبــة أخرى ، وهى لا تزال ماثلة فى الاذهان أكثر من أية خطابة أو كتابة للفقيد ، وقد حدد لالقائها مســـاء الثلاثاء ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ بمسرح زيزينيا ، وما أن أعلن اللواء عن موعد القائها حتى انهالت الطلبـــات من الراغبين فى سماعها ، وفى مساء ذلك اليوم ازدحم المسرح على سعته بالحاضرين الذين جاءوا من كل صوب لسماع تلك الخطبة.

وجلهم من علية القوم وفضلائهم وذوى المكانة الادبية ، والشباب المثقف ، وكل ذى وطنية صادقة ، حتى زخر المكان بهم ، ولم يتسع لهم ، فوقف الكثيرون منهم فى حديقة المسرح وفى الشوارع المجاورة له ،وبلغ عدد الحاضرين نحو سبعة آلاف ، وهو أكبر عدد اجتمع لسماع الخطيب ، وما أن ظهر على منصة الخطابة فى منتصف الساعة التاسعة مساء حتى ضج المكان بالتهليل والتصفيق الشديد ، وهتفوا جميعا : « لتحيا مصر ، ليحيا خدام الوطن ، لتحيا الوطنية » .

ثم أخذ الخطيب يلقى خطبته ، ولم يكن يقف عند موضع يحسن الوقوف عنده الا دوى المكان بالتصفيق واظهار علامات الرضا والاستحسان ، ولما تكرر التصفيق اضطر الفقيد أن يتقدم الى السامعين بالرجاء ألا يصفقوا ففعلوا ، ثم عادوا الى التصفيق ، واستغرق القاء الخطبة نحو ساعة ونصف ساعة .

والخطبة هى أقوى خطب الفقيد وأعظمها شانا ، بل كانت أعظم خطبة ألقيت فى مصر والشرق منذ أقدم العصور ، بدأها بشكر الحاضرين ، ثم تكلم عن حياة مصر الوطنية بعد الاتفاق الودى الفرنسى الانجليزى ، ونوه بالخطوات الواسعة التى خطتها الحركة الوطنية برغم هذا الاتفاق ، بعد أن كان الانجليز يظنون أنه سيقضى على أمل الامة ، وأبان أن اعتماد الامة على نفسها هو سبيلها الى الاستقلال .

قال فى هذا الصدد : « ان العزلة التى صرنا اليها بعثت فينا روحا جديدة وأرشدتنا الى الحقيقة التى لا قوام لشعب بدونها ولا حياة لأمة بغيرها ولا وجود لنفر من

الناس اذا لم يتبعوها ، وهى أن الامم لا تنهض الا بنفسها ولا تسترد استقلالها الا بمجهوداتها ، وأن الشعب كالفرد لا يكون آمنا على نفسه الا اذا كان قويا بنفسه ، مستجمعا لكل عدد الدفاع وآلات الذوب عن الشرف والمال والحيـاة »

ودعا الامة فى خطبته الى الانضمام الى الحزب الوطنى

اول جمعية عمومية للحزب الوطنى

وما أن دعا الفقيد الامة الى الانضمام للحزب الوطنى حتى انهالت طلبات الانضمام اليه من كل جانب ، وعقدت أول جمعية للحزب بمصر يوم الجمعة ٢٧ ديسمبر سـنة ١٩٠٧ بدار اللواء ، وكان اجتماعا حافلا تمثلت فيه طبقات الامة من أعيان ومزارعين وسراة ومحامين وتجار وأطبـاء ومهندسين وأرباب أعمال وصناع وغيرهم ، وأحصـيت تذاكر الدعوة التى قدمها المجتمعـون فكان عددها ١٠١٩ تذكرة ، وبلغ عدد الاعتذارات البرقية والبـريدية ٨٤٦ اعتذارا ، وافتتح مصطفى كامل الجمعية العمومية بخطبة نوه فيها بوجود الحزب الوطنى من قديم ، ثم أشـار الى ضرورة تنظيمه ، وقال عن أغراض الحزب : « اننا لسنا حزبا سياسيا فقط ، بل نحن قبل كل شىء حزب حيـاة للامة وانهاض لها ، فلا نغفل التعليم بين سـائر الطبقات لحظة واحدة، فالحزب يرمى الى أن الاستقلال أس كل سعادة ويعمل لنشر التعليم حتى لا يبقى مصرى جاهلا تحت سماء مصر ، ويسعى للوفاق بين الامة وتقريب المسـافة بينها وبين الشـعوب الاخرى ، هو يرمى قبل كل شىء الى أن يكون المصرى انسانا بأسمى معانى الكلمـة ، وأقصـد

بالمصرى ليس فقط ذلك الذى نراه فى المدائن يجد ويعمل، بل أقصد بنوع خاص ذلك الفلاح الذى قضى القرون من السنين وهو يعتقد أنه ملك للحاكم ومتاع لا ارادة له ، فأسمى عمل نقوم به هو انهاض ذلك الفلاح العزيز واعلاء مكانته ، فهو هو ممثل النشاط المصرى ، ومصدر كل خير ونعيم ، فليحيى عصر ينطق فيه التاريخ بأن الفلاح ألقى أثقال القرون الماضية وصار رجلا حرا بفضل أبناء وطنه المتعلمين المجاهدين فى سبيل حريته وسعادته » ٠

ثم قال : « اننا اذا دعونا الناس للدخول فى هـــذا الحزب لا ندعوهم باسم سلطة عالية أو حاكم نافذ الكلمة، بل ندعوهم باسم وطنيتهم ، باسم شرفهم ، باسم حقوق وطنهم ، باسم كرامة الانسان ، باســـم ذكريات آبائهم وأجدادهم ، باسم مصالح أبنائهم وأحفادهم » ٠

ثم نفى تهمة الثورة التى ينسبها بعض خصومه اليه ، وحمل على سياسة الاستسلام للاحتلال ، واستنكر الحكم المطلق ، ودعا الى التمسك بالنظام الدستورى ، وحث على الثبات والاتحاد ، وقد قوبلت الخطبة بالتصفيق الشديد والاستحسان المتواصل ٠

ثم ألقى الاستاذ محمود أنيس كلمة مجد فيها أعمـال الفقيد وجهاده فى سـبيل مصر ، وانتخب الحـــاضرون بالاجماع مصطفى كامل رئيسا للحزب الوطنى مدى الحياة فوقف الفقيد وارتجل فيهم الكلمة الآتية :

« أيها الاخوان : انكم حملتمونى طول حيـــاتى حملا ثقيلا على كاهلى ، فأنا قبل كل شىء أشكر لكم ثقتكم بى ،

هذه الثقة التى كانت عونا لى فى أعمالى ، وأقول لكم انكم أنتم قوتى وساعدى بصفتكم من خير أمة أوقفت لخدمتها حياتى وقواى وعقلى وقلبى وقلمى ولسانى وصحتى ،وكم من صديق قال لى : اشفق على صحتك التى لا تدخر وسعا فى بذلها • ولكن الواجب لبلادى ووطنى ينسينى هـذه النصائح الثمينة ، فأنا الان اذا قبلت اختياركم لى رئيسا فانما هو لثقتى بان كل واحد منكم أصبح حياتى وشعورى واعتمادى ، صار كل منكم فى الشعور الوطنى أكبر من « مصطفى كامل »

ثم وقف فؤاد سليم (باشا) وأخذ يتلو لائحة الحـزب مادة فمادة والحاضرون يبدون رأيهم فيها ، وبعد المناقشة صدقوا على نصها النهائى ، وأهم ما جاء فيها أن رئيس الحزب هو مصطفى كامل مدى الحياة •

الافراج عن مسجونى دنشواى

ما فتىء الفقيد يطالب بالعفو عن مسجونى دنشـواى لكى يمحى أثر من آثار الظلم الذى وقع بالابرياء من شهداء هذه الحادثة ، ودعا المصريين الى تقديم العـرائض الى الخديو بهذا الطلب ، وقد لبت الامة دعوته وأقبل المصريون على رفع العرائض الاجماعية الى الخديو فى هذا الصـدد وبلغت عدتها ١٤٨ عريضة وقع عليها ١٢٦٧٠ من المصريين وتردد صدى هذه الحركة فى أوربا وانجلترا ، اذ طالب بعض النواب الاحرار فى البرلمان البريطانى بالافراج عن مسجونى هذه الحادثة ، وكان من نتائج هـذه الحـركة المزدوجة أن تقرر فى شهر ديسمبر سنة ١٩٠٧ العفـو

عنهم ، على أن ينفذ العفو في يوم عيد الجلوس الخديوى (٨ يناير سنة ١٩٠٨) ، وكان اللواء أول من زف الى الامة هذه البشرى ، ولما اجتمعت الجمعية العمومية للحـــزب الوطنى فى يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ بدار اللواء كان من قراراتها ارسال كتاب شكر الى الخديو على هذا العفو، وارسال تلغرافات شكر الى السير هنرى كامبل باترمان رئيس الوزارة الانجليزية والمستر نورمن النائب بالبرلمان الانجليزى والى مدير جريدة الديلى نيوز على سـعيهم فى استصدار هذا العفو .

وقد أفرج عن المسجونين الباقين يوم ٧ يناير لا يوم ٨ لكيلا تحدث مظاهرات فى اليوم المحدد للافـــراج عنهم ، وكان عددهم تسعة ، منهم ثلاثة كانوا فى سجن الدلتـا وهم : محمد عبد النبى ، وأحمد عبد العال محفـوظ . وكان محكوما عليهما بالاشغال الشاقة المؤبدة ، ومحمـد مصطفى محفوظ ، وكان محكوما عليه بالسـجن سـبع سنوات ، وواحد كان فى سجن أبى زعبل وهو العيسوى محمد محفوظ وكان محكوما عليه بســبع ســنوات ، وخمسة كانوا بليمان طره : منهم واحد كان محكوما علي بالاشغال الشاقة خمس عشرة سنة وهو أحمـد محمـد السيسى ، والباقون كان محكوما على كل منهم بالسـجن سبع سنوات وهم : عبده البقلى ورسلان السيد على وعلى سمك وعلى على شعلان .

وقد قوبل نبأ الافراج عنهم بالاستحسان والابتهـاج العام فى البلاد ، وهرع الذين خرجوا من الســجن الى القاهرة قاصدين دار « اللواء » ليقابلوا الفقيد ويقدموا له شكرهم على دفاعه المجيد عنهم ، ويعربوا له عن اعترافهم

بجميله ، اذ كان صاحب الفضـــل فى اطلاق سراحهم ، ولكن الزعيم كان طريح الفراش فى مرضـه الاخير ، فلم يستطيعوا مقابلته وأعربوا للواء عن شعورهم نحو منقذهم العظيم .

وفاة الزعيم

كانت صحة الزعيم يعتريها التعب والاعتلال من الجهد الذى حملها اياه ، وتدل رسائله الخاصة على أن صـحته كانت فى حاجة الى الراحة والعـلاج قبل الوفاة بعـدة سنوات ، ولكنه كان ماضيا فى سبيله ، لا يبالى أن يحملها مالا تطيق من التعب والعناء .

كتب الى مدام جولييت آدم من فيشى فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٠٣ يقول :

« يجب أن أقضى معظم هذا الشهر فى (التيرول) مع صديقى فريد (بك) الذى تشرفت بتعريفه اليك من سنتين، لان الاطباء قد رأوا أنه من الواجب أن أمضى فى الجبـل بعض الزمن ، اذ أخذ التعب يستولى على أعصابى ، ولهم الحق فى ذلك فانى لم أشفق على نفسى » .

وكتب اليها فى ٢٥ يونيه سنة ١٩٠٥ كتابا قال فيه :
« ان العمل قد أضنانى الى حد أشعر معه بسرعة الحاجة الى ترك الوسط الذى أعيش فيه . وكأن الطبيعـة قد خالفت سنتها ، اذ جعلت قوة روحى أكبر من قوة جسمى »

وقد سافر فى يوليه من تلك السنة الى أوربا وقصـد الى لوزان وعرض نفسه على الدكتور بورجيه ليعالجه من مرض فى أمعائه كان يشتد به أحيانا فيؤلمه كثيرا ، وفى

صيف سنة ١٩٠٦ ذهب الى أوربا للاستشفاء والعلاج ، وكان في حاجة قصوى الى الراحة ، ولكن حادثة دنشواى جعلته يقطع على نفسه سبيل الراحة والعلاج ، فنهض نهضة الاسد ، وبذل تلك الجهود الهائلة التى لا تصدر الا عن أقوى الناس صحة وجسما ، ولما سافر الى باريس ولندن في شتاء سنة ١٩٠٦ يصحبه محمد فريد لاختيار محررى جريدتى لتيندار اجبسيان وذى أجبشيان ستنندارد عاوده المرض في أثناء الرحلة ، ولزم الفراش بباريس عدة أيام عاد بعدها الى الجهاد والكفاح .

وفى صيف سنة ١٩٠٧ ذهب الى فرنسا كعادته كل عام للاستشفاء والجهاد ، وكانت هذه آخر رحلة له بأوربا ، وكا يشعر بدبيب المرض يعتريه أحيانا . ذكر المسيو أدولف ادرير (مراسل الاتيندار في باريس) أنه قابله وقتئذ بباريس فكان يقول له : « انى أشعر بأن المرض قد دب الى ، ترى هل أعيش حتى أرى أول نجاح لجهودى؟ ليحصد الاخرون نتائج جهودي ، ولكن ليكن لى وقت كاف للغرس والزرع ، وكان هذا القول نذيرا بخطورة مرضه ، وقد قابله في شهر أغسطس في افيان على بحيرة جنيف حيث قصدها للعلاج ، وكان يلزمه أن يمكث بها واحدا وعشرين يوما للاستشفاء بحماماتها ، ولكنه لم يمكث غير عشرة أيام لشعوره بضعف قواه ، فسافر الى أعالى جبال سويسرا ، ولم يلبث بها غير بضعة أيام ، لانه لم يكن يستريح أينما توجه ، قال المسيو ادرير : « وجاء شهر سبتمبر فعدت وإياه الى باريس ولم أتركه حتى ساعة سفره ، وكان دائما متوعك الصحة ، فكنت أرى هذا الوجه



مصطفى كامل على فراش المرض

التى ترتسم عليه الشجاعة والذكاءوالاقدام ممتقعا شاحبا وقد سافر منهوكا الى حيث لا يعود الينا أبدا » ..

وقد عاد الفقيد الى مصر فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ ،فقابله الشعب بأعظم مظاهرة قوبل بها فى حياته ، وأخذ يبذل الجهود الجبارة لتنظيم الحزب الوطنى ، حتى اذا لم يكن فى عمره متسع ،لا يخشى عليه من الانحلال ، وألقى خطبته الشهيرة بالاسكندرية يوم ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ وعلامات الضعف بادية على محياه ، وقد لمحها أصدقاؤه الاقربون، وفى ذلك يقول أحمد شوقى أمير الشعراء :

اذكروا الخطبة التى   هى من آيه الكبر
لم ير النـاس قبلها   منبرا تحت محتضر

واشتدت به العلة قبل وفاته بثلاثة أشهر ، ولكنه كان يغالب المرض ويجاهد جهاد الابطال ، ولما حان موعد اجتماع الجمعية التأسيسية للحزب الوطنى يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، ترك سرير مرضه ونزل الى ساحة دار اللواء حيث اجتمعت الجمعية العمومية ، القى خطبته كاقدر واقوى خطيب ، حتى دهش السامعون لبلاغته وبراعة القائه وقوة جنانه ، مع ما كان باديا عليه من الضعف ، وكانت هذه آخر خطبة القاها رحمه الله ، ثم اشتد به المرض عقب الاجتماع وعاد الى غرفته مريضا ، ولم يغادرها ، وقد بلغه فى صباح اليوم التالى للاجتماع نبأ وفاة صديقه ونصيره الكبير لطيف سليم احد مؤسسى الحزب الوطنى وأحد أعلام الحركة الوطنية ، فجزع لوفاته جزعا شديدا ، وازداد ما به من المرض حزنا على صديقه العظيم .

وكان وهو على سرير المرض لا يدع العمل والتفكير ، فقد أرسل وهو طريح الفراش قبل وفاته بخمسة أيام احتجاجا برقيا قويا ضد تصريحات فاه بها السير ادوارد جراى فى مجلس العموم البريطانى اتهم فيها المصريين بعدم الكفاية للحكم الذاتى ، فرد عليه بأن مصر تماثل فى الاستعداد للحكم الذاتى كثيرا من الامم الاوربية ، وان مصر ستظل تجاهد فى سبيل حريتها واستقلالها حتى تنالهما .

وأخذ المرض يشتد ويلح عليه حتى أعيى الاطباء ، الى أن حم القضاء ، وأسلم الفقيد الروح فى الساعة الرابعة من عصر يوم الاثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ (٨ المحرم سنة ١٣٢٦) ، فانتشر نعيه بسرعة البرق فى العاصمة والاقاليم ، وطيرت الاسلاك البرقية خبره الى الخارج ، وملأ النبأ الفاجع جنبات وادى النيل ، وما كاد يذيع نعيه حتى عم الحزن أرجاء مصر ، فكان له فى كل نفس مناحة، وفى كل قلب مأتم .

جنازة الزعيم

كان الاحتفال بتشييع جنازة مصطفى كامل يوما مشهودا فى تاريخ الحركة الوطنية ، كان مظهرا رائعا لشعور الوطن نحو الزعيم ، انبعث من القلوب المكلومة والافئدة الحزينة لفقده ، أرادت الامة أن تشيعه الى مقره الاخير ، وأن تظهر وفاءها لباعث نهضتها الوطنية ، وموقظها من رقدتها ، وأدرك الناس كافة حتى الذين كانوا لا يؤمنون برسالة مصطفى أن بطلها وزعيمها الشاب جدير حقا بتقدير الوطن ، ولم يكن هذا الشعور مقصورا

على طبقة دون أخرى ، بل تناول طبقات الامة كافة ، شمل المتعلمين وغير المتعلمين ، وتناول الكبــار والصــغار ، والرجال والنساء •

لم يكد يذيع خبر الوفاة بين طلبة المدارس حتى قرروا بمحض شعورهم اعتبار يوم تشييع الجنازة يوم حداد عام عطلت فيه المدارس كلها حزنا على الزعيم ، وقرروا جميعا الاشتراك في الجنازة التي حدد لها عصر يوم الثلاثاء ١١ فبراير ، فسرنا فيها جميعا مدفوعين بشــعور واحد ، شعور الحزن للفجيعة ، والوداع للراحل العظيم •

ومع عظم منزلة الفقيد ، لم يكن متوقعا أن تكون الجنازة بالضخامة والروعة والعظمة التي تجلت فيها ، وكان مقررا أن تسير من طــريق سراى عابدين ومنها الى باب الخلق فمدافن الامام الشــافعي ، واختير هذا الطريق بدلا من طريق السيدة زينب ، التماسا لاتساع الشوارع وطولها منعا للزحام ، ولكن بوادر الحال دلت على أن هذه الشوارع مهما اتسعت فانها لا تكفي للجمـــوع الزاخرة والالوف المؤلفــة التي قــدمت من نواحي العاصــمة كافة ، ومن الضواحي والثغور والاقاليم ، واكتظت بها الشــوارع المحيطة بدار اللواء قبل الموعد المحدد لتشييع الجنــازة بأربع ساعات ، فرؤى الغاء القرار السابق واختيار أطول طريق للجنازة بين دار اللواء ومدافن الامام ، ليتســنى للجموع الحاشدة الاشتراك فيها ، وهو طريق شــارع الدواوين (نوبار باشــا الآن) حيث كانت دار اللواء ، فشارع المدابغ فشارع المناخ فميدان الاوبرا فشــارع البوستة فميدان العتبة الخضراء (محمد على الكبير الآن)

فشارع محمد على فميدان المنشية ومنه الى مدافن الامام ، وهذه المسافة لا تقل عن اثنى عشر كيلو متراً ، وخصصت حكمدارية بوليس العاصمة أكبر قوة من العساكر المشاة والفرسان ، وأضافت اليها عددا كبيرا من جنود الاحتياطى وقلم المرور ، لتنظيم سير الجنازة ، وأوقفت عددا اخر من البوليس فى منافذ الطرق على طول الخط للمحافظة على النظام ، ولكن كل تقدير لعظم الموكب كان أقل من الواقع

وأخذ العظماء والكبراء والمثقفون وطبقات الامة كافة يفدون الى دار اللواء ، حتى غصت بهم على سعتها ، وفاض جمعهم المتدفق الى شارع الدواوين فملأوه ، ثم ضاق بجموعهم الزاخرة ، فامتلأت بهم الشوارع المجاورة، وتعطل المرور من جميع الشوارع التى تتصل بطريق الجنازة ، وأوقفت مركبات الترام فى جميع خطوط العاصمة ، ولما حانت الساعة الثالثة بعد الظهر وهو الوقت المحدد للبدء بسير الجنازة حتى لم يبق موضع لقدم وبدأت الجنازة فى المسير ، فتقدم المشهد طلبة المدارس ، ثم نعش الزعيم مغطى بالراية المصرية ، محمولا على أعناق طلبة المدارس العليا، وكانت كل مدرسة تحمل علما مجللا بالسواد وفيه شارة تدل عليها ، وقد صنعت هذه الرايات خصيصا للاشتراك فى الجنازة ، ثم سار المشيعون خلف النعش ، يتقدمهم المرحوم محمد (بك) فريد ، وكان عددهم فى بدء الجنازة يزيد على عشرات الالوف ، الا أن ذلك الجمع الهائل لم يكن الا قطرة من بحر ممن انضم الى الجنازة أثناء مسيرها ، حتى زخرت الشوارع بالمشيعين ، ولما تعذر سيرهم فى موكب الجنازة

وقف معظمهم على جانبى الشوارع من دار اللواء الى مدافن الفقيد ، وبلغ عدد المشيعين نحو ٢٥٠٫٠٠٠ نفس ، عدا الالوف الذين كانوا على جانبى الطريق ، وفى نوافذ المنازل والفنادق وشرفاتها ، وفوق أسطحها ، وفى المنعطفات المترامية الاطراف ، وجملة القول ان الشوارع الواقعة بين دار اللواء وقبر الفقيد كانت العين لا تقع فيها الا على أجسام متراصة من المشيعين ، أو كتعبير المسيو ريمون كولرا رئيس تحرير جريدة « ايجبت » فى وصف الجنازة: « ان شوارع القاهرة فيما بين دار الفقيد وقبره كانت مفروشة ببساط احمر » ، اشارة الى الطرابيش الحمراء، ومع اشتداد الزحام الذى لم يسبق له نظير ، كان النظام مستتبا ، والسكون شاملا رهيبا ، ولم يكن يسمع أثناء سير الجنازة سوى بكاء الباكين والباكيات وزفراتهم ، ونواحهم الصادر من أعماق قلوبهم ، وكلهم يبكى شباب الزعيم ووطنيته ، فكان هذا الاحتفال الرهيب أعظم وأروع جنازة فى تاريخ مصر الحديث ، وصفها المرحوم قاسم أمين بقوله : « ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ ! يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل ، هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق ، المرة الأولى كان يوم تنفيذ حكم دنشواى أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب « اللواء » فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى قوة جماله ، وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ووصل صدى دويها الى جميع أنحاء القطر ، هذا الاحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذى خرج من احشاء الامة ، من دمها وأعصابها ، هو

الامل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة ، هو المستقبل»

سارت الجنازة حتى جامع « قيسون » بشارع محمد على حيث اقيمت الصلاة على الفقيد ، ثم تابعت سيرها فى بحر زاخر من الجموع والدموع حتى مدفن الزعيم ، وانزل جثمانه الى مثواه الاخير ، وعادت الجموع تبكى زعيم الحركة الوطنية ، ولبست العاصمة فى ذلك اليوم الرهيب ثوب الحداد العام .

مصطفى كامل والخديو عباس الثانى

يرتبط تاريخ مصر السياسى فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى بتاريخها الوطنى فى عهد مصطفى كامل ، فقد بدأت نشأة مصطفى الوطنية عام ١٨٩٠ كما أسلفنا، وتقع هذه السنة فى أواخر عهد الخديو توفيق ، قبل وفاته بعامين ، فتاريخ هذه النشأة يدل على أنها غرس الهام الفقيد وعبقريته ، اذ لم يكن فى ذلك الحين عوامل أخرى تساعد على ظهورها ثم تولى عباس الثانى مسند الخديوية فى يناير سنة ١٨٩٢ ، وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، وقلبه مملوء آمالا كبارا فى أن تسترد مصر استقلالها فى عهده ، وساءه أن رأى الانجليز قد وضعوا أيديهم على وزارات الحكومة فاعتزم وضع حد لهذا التدخل غير المشروع ورسم لنفسه فى أول عهده انها سياسة قومية ممدوحة تدل على ميول وطنية طيبة وشجاعة نادرة جعلته وقتا ما يغامر بعرشه .

وجد الخديو عباس فى مصطفى كامل الزعيم الوطنى الشاب الذى استطاع على حداثه سنه أن يحمل علم الجهاد، فأعجب بهذه الشخصية الفذة ، اذ وافقت ميوله وآماله فى بداية حكمه ، فأمدها بالمال والتأييد وقتا ما ، ومن هنا توثقت روابط الود والتعاون بين مصطفى كامل والخديو عباس ، فى السنوات الاولى من حكمه ، ومن واجب المؤرخ المنصف أن يذكر هذه الحقيقة ، وبعدها مأثرة لعباس الثانى ، فانه قام من هذه الناحية بقسط محمود فى تأييد الحركة الوطنية ، والملوك والامراء فى كثير من المواطن لهم فضل على النهضات القومية فى مختلف نواحيها ، الوطنية والسياسية والاقتصادية ، أو العلمية والاجتماعية ، أو الادبية والفنية .

ساهم اذن الخديو عباس فى الحركة الوطنية وقتا ما بماله ونفوذه الادبى ، على أن العلاقة بينه وبين مصطفى كامل قد اعتراها الفتور بعد ذلك ، ثم التقاطع ، وكانت ميزة الفقيد انه احتفظ باستقلاله وعلو نفسه تجاه الخديو، ورأى فى استقلال الحركة الوطنية عنه ما يزيدها قوة وروعة ، كتب فى هذا الصدد الى صديقه وزميله فى الجهاد محمد فريد ضمن كتاب له بتاريخ ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨ يقول :

« باريس فى ٥ اغسطس سنة ١٨٩٨

« أخى الامجد الفريد أعزه الله . اقبلك الف قبلة ، وأهديك أطيب تحية ، وصلنى بالامس خطابك الكريم كما

وصلنى يوم الجمعة الماضية ما طلبته منك ، فلك الشكر مزدوجا ، شرف العزيز وسافر ، وتشرفت بمقابلته جملة مرات ـ هذا الخبر لك وحدك ـ وعلمت منه أمورا جمة سرتنى للغاية ، وشرحت صدرى ، وحققت لى أن الامل ملء فؤاده ، وان ليس لليأس عليه سلطان ، وسأقابله مرة أخرى فى الشهر الاتى ، وقد قابل هنا وهناك كل ذى شأن وكل عظيم ، واستمال من لا يستمال ، فله منا الود والاخلاص والحب الحقيقى ، وانه لجدير بأن نتفانى فى محبته ، ولم أكلفه مدة وجوده ولم أطلب منه شيئا ، ولو ان سفرى لالمانيا سيكلفنى كثيرا ، وذلك لانى لا أود أن أجعله يرتاب فى اخلاصى الخالص له ، وسأبذل جهدى بعد عودتى للوطن المحبوب فى أن أكون مستقلا غاية الاستقلال لنزداد عنده مكانة ونفوذا » .

وهذا الخطاب يلقى شيئاً من الضوء على علاقة مصطفى كامل بالخديو ، ويدل على اخلاص الفقيد وابائه وعلو نفسه ، وليس يخفى أن الخديو قد فترت صلته بالحركة الوطنية ، وتزعزعت ثقته فيها بعد حادثة فاشودة،وضعف أمله فى الجلاء ، فأخذ فى التقرب الى الاحتلال والنزول على ارادته ، وبعدت الشقة تبعا لذلك بينه وبين الفقيد ، على أن مصطفى كامل كان يرى بثاقب نظره الا يقع الانقسام بين الامة والخديو فيستفيد الاحتلال من هذا الانقسام ، كما استفاد من الخلاف الذى شجر بين الخديو توفيق والعرابيين ، لذلك كان يعمل دائما على ايجاد جو من

التفاهم بين الخديو والامة ، ويدعو الى تعلق الامة بالعرش على الرغم من اختلاف وجهتى نظرهما .

ثم جاء الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا فى ابريل سنة ١٩٠٤ ، وظهر انحياز الخديو بشكل واضح الى الاحتلال ، فراى أن يقطع علاقته به ، وأعلن فى اللواء انه اعتزم الابتعاد عنه حتى لا يظن أحد ان عليه شيئا من المسئولية فى جهاده السياسى ، قال فى هذا الصدد : «ان المخلص فى عمله يجب أن يؤدى الواجب عليه ولو ضحى فى سبيله مصلحته الذاتية وأعز ما تميل اليه نفسه » ، وقال :

« وانى لا أشك فى أن كل قارىء بل كل مصرى عرف خطتى وخبر مبادئى يدرك حقيقة مسعاى ومقصدى ، ويعلم انى لم اطلب بذلك الا خدمة البلاد وعرش الخديوية بالثبات الذى لا تتغلب عليه الايام ، والعقيدة الراسخة التى قد تتحول الجبال وهى لا تتحول » .

وقال فى حديث له فى جريدة (البول مول جازت) الانجليزية فى ديسمبر سنة ١٩٠٦ : « لما رأيت رغبة سموه فى توطيد الصلات الحسنة بينه وبين ملك الانجليز وحكومته ، وجدت من واجباتى أن أكون بعيدا عن سموه»

وأرسل عقب عودته من أوربا سنة ١٩٠٤ الكتاب الاتى الى الخديو يصارحه فيه بموقفه حياله ، قال :

« مولاى . تشرفت فى ديفون بالمثول بين يدى سموكم يوم ٢٧ أغسطس الماضى (سنة ١٩٠٤) ورفعت الى مقامكم السامى ان الحالة السياسية الحاضرة تقضى على بأن أكون بعيدا عن فخامتكم ، وأن أتحمل وحدى مسئولية الخطة

التى أتبعها نحو الاحتلال والمحتلين ، منعا لتكدير خاطركم الشريف ، ودفعا لما عساه يقع من الخلاف والنزاع .

« وقد رأيت يا مولاى بعد التفكير أنه صار من المحتم على القيام بهذا الواجب ، وانه أول عمل يلزمنى تأديته عقب عودتى الى الوطن العزيز لان الانجليز أظهروا فى خلال السنوات الاخيرة من التضييق على جنابكم العالى ما يجعل وجود رجل ينتقد سياستهم فى الصباح والمساء بجانب سموكم داعيا لاعتدائهم على حقوق ذاتكم السنية وحجة لتدخل جديد غير محمود .

« وانى بعد أن رأيت احتجاجهم على جنابكم الرفيع بمناسبة المقابلة التى تفضلت جلالة ملكة البرتغال بمنحى اياها ، ومعارضتهم العنيفة لفخامتكم بسبب الاستقبال الودى الذى نالته مدام جولييت آدم من لدنكم ، وتصريحهم بأن انجلترا لاتنسمح لجنابكم العالى باكرام من يعاديها ، وادعائهم بأن كل ما يكتب أو يقال ضدهم موعز به من سموكم ،أعد نفسى مقصرا تقصيرا حقيقيا فى تأدية الواجب نحو مقامكم الرفيع اذا أبقيت صلتى بسموكم على حالها وفضلت نعمة التقريب منكم على القيام بواجب تدعو اليه الوطنية والسياسة .

« وانى أرجو أن يعتقد مولاى حفظه الله انى لم أقصد الا محض خدمته بما قلته لسموه بشأن أولئك المفسدين الذين يلتصقون بالمعية ويضيرون بها أكثر من أعدائها الظاهرين ، ويدخلون اسمكم الكريم فى كل حادث ، غير حاسبين للرأى العام حسابا ، وغير ذاكرين ان عرش

الخديوية هو البقية العزيزة لاستقلال البلاد ، وانه يجب أن يكون على الدوام محاطا بالاحترام التام والاجلال العام، ليقاوم القوتين المحاربتين له الا وهما الاحتلال والزمان .

« وانه ليعلوا لى أن أبقى الى لحظة من حياتى خادما لتلك المبادىء الوطنية العالية التى كنتم سموكم أول الداعين اليها والمنادين بها ، وأن تزداد كل يوم اتساعا الهوة التى بينى وبين الذين ادعوا خدمة الوطن ليخدموا مصالحهم ثم انقلبوا عليه بلا خجل ولا حياء .

« وانى أتشرف يا مولاى بان أرفع الى سدتكم العلية واجبات الشكران على جليل التفاتكم وسامى رعايتكم ، وأقدم الى المقام الرفيع أسمى ما يليق من التجلة والاعظام»

مصر في ٢٤ اكتوبر سنة ١٩٠٤ مصطفى كامل

وهذا الكتاب يدل على اخلاص الفقيد في جهاده ، وهو لعمرى صفحة مشرفة من الشجاعة الادبية ، لان مجاهرة الخديو وهو وقتئذ سيد البلاد الشرعى بقطع علاقته به ، ومقاومة الاحتلال وهو فى أوج سلطانه ، كل أولئك عمل يقتضى حظا كبيرا من الجرأة والاستقلال ، ولا يقدم عليه الا من تغلبت فيه الشجاعة والوطنية ، على كل اعتبار للمصلحة الشخصية .

ومن يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠٤ وهى آخر مقابلة له بالخديو ، انقطعت علاقته به ، وكان انقطاعه عنه مما زاده منزلة ورفعة، اذ ظهر استقلال الحركة الوطنية عن الخديو أكثر من ذى قبل ، ولما أصدر الفقيد جريدة ليتندار أجبسيان الفرنسية وذى أجبشيان استاندرد فى أوائل

سنة ١٩٠٧ حنقت الصحف الانجليزية من ظهـــورهما واتهمت الخديو بالمساهمة فى رأس مالهما ، فنشر الفقيد ردا على هذه المفتريات أسماء المســـاهمين فى رأس مال الجريدتين ومقدار ما اكتتبوا به ، فكان هذا الاعلان قاطعا فى اثبات الا علاقة للخديو بظهور الجريدتين ، ولا صــلة له بهما •

ولما استقال اللورد كرومر فى ابريل سنة ١٩٠٧ وخلفه السير الدون جورست ظهر انحيـــاز الخديو عبــاس الى السياسة البريطانية فى حديثه مع المســـتر ديسى الذى نشرته جريدة الديلى تلغراف فى مايو سنة ١٩٠٧ ، اذ نفى عن نفسه تهمة العمل ضد الاحتلال ، وذكر اللورد كرومر بالخير ، وصرح بأن المعتمد البريطانى لا يستطيع حكم مصر وحده ، وانه مستعد للتعاون معه ، والا فائدة للمصريين من استبدال احتلال باحتلال ، وان الاحتــلال البريطانى افضل من أى احتلال آخر •

ومعنى هذا الحديث فى مجموعه ان الخديو يصرح بأنه يرغب مشاركة المعتمد البريطانى فى حكم البلاد حكمــا مطلقا ، فلم يحجم الفقيد عن انتقاد هذا الحديث انتقــادا حازما ، برغم صدوره من الرئيس الاعلى للدولة ، قال فى هذا الصدد (اللواء ٢٦ مايو سنة ١٩٠٧) :

« مما يجب علينا اعلانه والجهر به أمــام الملأ كله ان تصريحات الجناب العالى لا تقيدنا بأى حال من الأحوال ، لان مركز سموه غير مركزنا ، على أن كل مصرى صــادق الوطنية لا يقبل مطلقا أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديو بمفرده أو بيد المعتمد البريطانى ، أو بيد الاثنين معا ، بل

يطلب ان يكون حكم هذا الوطن العـزيز بيد النـابغين والصادقين من أبنائه ، وان تكون نظـامات الحكـومة دستورية ونيابية » . وقال فى موضع آخر :

« قد قلنا مرارا ان سمو الامير بعيد عن الحركة الوطنية وأن المجاهدين ضـد الاحتلال مستقلون عن سـموه كل الاستقلال ، فهو أن قال كلمة فى صـالح الحركة الوطنية خدم نفسه وعرشه ، واستمال أمته اليه ، وان عمل ضدها أضر بنفسه وبعرشه ، ونفر أمته منه ، ولكنه فى الحالتين لا يستطيع الاضرار بهذه النهضة ، لانها نهضـة المطالبين بالحياة والوجود ، ومثل هذه النهضة لا يضرها انسـان مهما كان قويا وعظيما »

وقال : « ان مصلحة الشعب المصرى تقضى بأن تكـون الحركة الوطنية بعيدة عن الجناب العالى ، حتى يعلم العالم كلـه أن المصريين يطلبـون بانفسـهم وطوعا لعـواطفهم وشعورهم اصلاح حالة بلادهم وترقية شئونهم ومنحهم الدستور ، وان هذه المطالب ليست صادرة بايعاز من كبير أو أمير » .

وقال فى مقال آخر : « لقد اتهموا الحزب الوطنى تارة انه موحى اليه من الدولة العلية ، وطورا من المانيـا ، وتارة أخرى من سمو الخديو ، وقد سـقطت التهمتـان الاوليان من قبل ، وهذه الثالثة قد سقطت الآن معها ، فحان الاوان أن نهنىء انفسنا » .

فى مذكرات الخديو عباس الثانى

توفى الخديو عباس الثانى سنة ١٩٤٤ بجنيف ، وقد دون مذكرات مطولة عن حياته وسـنى حكمـه ، نشرت

صحيفة المصرى فصولا منها سنة ١٩٥١ وقد تناول فيهـا الحديث عن مصطفى كامل وعلاقته به، وأثره فى بعث الحركة الوطنية ، ويطيب لنا أن نورد ما دونه عن الفقيـد فى هذه المذكرات الهامة ٠

« كان مصطفى كامل هو الذى بدأ نشر الفكرة الوطنية فى شباب مصر ، وهو الذى هز الروح المصرية فأيقظها من غفوتها ٠

« كان محيى الوطنية المصرية ، ورسـول تلك الفكرة التى كانت قد خنقت فى مهدها ولكنها ظلت تسـعى الى الامام ، وقد كسب لعقيدته ولحزبه أغلبيـة الموظفين ، وأعيانا ، ومثقفين ، واجماع الطلبة والعمـال ٠ كان فتى خلع عليه الشبـاب كل نعمة ، بما فيها نعمة الوهم المقدس، وكان قد آثر الحياة الروحية على الحياة المـادية ، وكان حديث العهد بذلك البلد القديم الذى لم تكن هالات المجد ترتفع فيه الا على القبور ، ولا يعرف شيئا عن الوضـاعة والمساومات السياسية ٠

« كان بسيطا ومستقيما ، وتحت مظهره اللطيف كانت تختبىء روح متفتحة لكل الاحاسيس ، وقلب حساس لكل ألوان الرقة والحنان ، وزانه الله بالحجى ، وكانت بلاغته واضحة وحارة ، وكان أسلوبه الرشيق ، العامر بالصور يتنقل من البساطة الانجيلية الى بلاغة الخطيب المصـقع العظيم ، وقد أوتى موهبة الاقناع وسحر الاسماع الذى يؤتاه الحواريون والانبياء ، وكان الحب الذى يكنه لوطنه

ينبع من حماسة لا تفقده سيطرته على عقله .

« وليس من شأني أن أسجل حياة ذلك الحوارى الرفيع الذى كانت براءته الطاهرة ـ بقدر ثقافته وجدارته ـ قد فتنت به الجماهير ، ولكني لا يسعني أن أرد نفسى عن توجيه تحية الاجلال الى ذكرى وطنى أدين له بساعات فائقة الجمال ، ومن المؤكد انه كان فى بعض الاحيان يضايقنى ، فاننا ، على اتفاقنا الدائم فى الهدف لم نكن دائما متفقين على الوسائل .

« وكان شباب الزعيم يسمح له بأن يسترد خطاه ويتطور فى لطف حول الاخطاء التى يحفل بها الشباب ، وقد أوشك مصطفى كامل أن يغدو ذات لحظة ضحية الزهو الذى يتربص بكل أولئك الذين يقودون الجماهير ببلاغتهم ،ويحسبون انها معلقة بأفكارهم ،وقد كان مصطفى كامل ، فيما عدا موهبته الفذة كخطيب وكاتب ، وطموحه المشروع ، على خصال وطيدة كانت تكفل له التقدير حيثما ذهب ، كانت له موهبة الملاحظة التى نماها اختلاطه برجال السياسة فى مصر وفى الخارج ، وكان يفهم ، وقد درس وعاش فى أوربا ، أن بلدا طامحا الى الازدهار يجب أن يسهر بعناية على علاقاته مع البلاد الاجنبية ، ولم يهمل مطلقا ذلك الرأى ، فكان صوته بذلك يذهب بعيدا ، وكان يسمع فيما وراء النيل ، وكان قد عرف كيف يهيىء لنفسه فى أوربا ، وفى فرنسا خاصة ، صداقات فعلية ، وفى أخريات حياته كان صوته قد بدأ يسمع فى انجلترا .

« كان نافعا لوطنه ، وكنت أقدره حتى عندما كان

يستحيل على أن أتبعه ، ان مهنة الحاكم ليست دائما بالسهلة ، ففي الوقت الذى يشاء الحاكم أن يطيع صوت قلبه ، يجد نفسه مضطرا الى الاذعان لحق الدولة ، ولقد كان مصطفى كامل حرا ، وكنت أمنحه تأييدى المطلق ، كان يقول بدلا منى مايجب قوله ، وما لم يكن فى الوسع قوله باسمى .

« واذا كان قد حدث فى بعض الاحيان ان اتجاها غير صائب قد عكر صفو عطفى الذى كان فى أغلب الاحيان يذهب الى حد التعاون معه ، فان سوء التفاهم كان دائما يزول سريعا ، اذ يطرد سحائبه الولاء المتصاعد من قوله ومن عمله ، ان فضل مصطفى كامل العظيم هو انه قد حدد المثل الاعلى للامة ، وشجع الجماهير على السعى الى ذلك المثل الاعلى ، ولكن وطنيته كانت تبلغ أحيانا حد التصلب ، واكبر ما كنت آخذه عليه أنه ظل مبتعدا بنفسه، وبارادته عن جميع أولئك الذين كانوا يكافحون حول الراية نفسها ولنفس القضية ، وكنت قد حلمت بتقرب بين الشيخ على يوسف ومصطفى كامل ، ولكنى لم أستطع مطلقا أن أحقق هذا الامل ،اذ كان يفرق بين هذين الرجلين نوع من الكبرياء ، المبالغ فيها ، ولقد كان يسعهما أن يتفاهما دون أن يتحابا ، وكان لهما من المزايا والفضائل ما يكفى لكى يظفر كل منهما من صاحبه بالتقدير .

« لقد كان مع مصطفى كامل الشباب ، والطلبة ، والمستقبل ، على حين كان الشيخ على يوسف يتمتع بالنفوذ على أصحاب المراكز الاجتماعية الهامة . لو أنهما تضامنا

أى شىء كنا نعجز عن تحقيقه ، لو أننا وضـــعنا حماسة أحدهما فى خدمة تجربة الأخر !

« واذا كان مصطفى كامل قد تجلى فى أغلب الاحيان فى صورة الحوارى ، فليس فى هذه الدنيـــا مع الاسـف ، سياسة بلا أخطاء ، وما كان مصطفى كامل الا بشرا ، ومع ذلك فلقد ترك عند موته نموذج حياة كرسها صاحبها كلها لتحرير مصر ، وان جدارة زميله على يوسف ـ لو أنه كان قد عرفه ـ ما كانت لتقلل من شانه ، وما يجدر أن يشتجر الناس على المجد ، عندما يخشى أن يكون الوطن نفسه فدية المعركة .

« وكان هذا المتضرم هوى ببـــلاده ، الذى قدر له أن يموت فى زهرة العمر قبل أن يتاح له الوقت لكبح جماح حماسته بقليل من التجربة ، قد حصل على معظم ماتمنى من رضاء عن ذلك النجاح العجيب لرسالته الوطنية ، وما من ريب فى أنه قد ثمل بعض الثمول بنجاحه، ولو أن ذلك الثمول كان قد اتحد بحكمة الشـــيخ على يوسـف الشرقية ، لكان ذلك قد خدم قضية البلاد فوق ما خدماها متفرقين .

« كان مصطفى كامل ، كلما وسمه العمر بطابعه ، يغدو أكثر قلقا ، وأكثر احساسا بشخصيته وكانت مبـــادئه السياسية ـ بعد أن عانت بضعة تعـديلات ـ قد غدت مصرية دقيقة فى مصريتها ، واذا كان قد تكلم أحيانا عن تركيا أو وجه الى أوربا نداءاته المجلجلة فما كان ذلك الا ليخفى ثورة لو أن تلاميذه لمحوا منها شيئا لكان فى ذلك ما أفقده سلطته .

« ولعل التعهدات المتتابعة التى طبعت نشــاطه كانت

قد نسقت ، ولم يكن يريد أن يقطع صـــلته بالماضي دون فترة انتقال ، وكان يخشى أن يعرض صورة النتائج التى حصل عليها للخطر ، اذ هو بدا فى صورة المجدد المبالغ في تجديده •

« وأيا ما كان الامر ، فان اساس تعليمه لم يكن فى الحقيقة عصريا مفرطا فى عصريته ، بل لعل افكاره كانت أقرب الى التقليـــد الشرقى مما يعتقـــد أكثر النـــاس

« كان قد جرد وطنيته من كل رداء دينى ، ولكنه ظل متدينا ومتعلقا بروح القرآن ، أما على يوسف ، فانه برغم ثقافته الدينية البحت ، قد عرف كيف يتخلص من الطابع الاسلامى ، الذى بقى عند مصطفى كامل ، ومع أنه تربى فى أوربا ، فلقد كان يستخدم النظريات الغربية كوسيلة، ولكنه لا يعتبرها غاية فى ذاتها •

« ومات الزعيم الشاب للاستقلال المصرى دون أن يحقق خطته ، وربما دون أن يكون قد حدد خطوطهـا الاخيرة ، لقد كان على الاخص محيى الروح الوطنية •

« وكانت جنازته رائعة ، ومرت مصر عن بكرة أبيهـا أمام جثمانه ، وأقبل من القرى النائية ألوف وألوف من تلاميذه ليشيعوا النعش الذى حمل زعيمهم الى مثـواه ، أولئك الانصار الذين غدوا ، وقد مات الزعيم ، الخلفاء على تراثه الوطنى •

« كانت روح مصطفى كامل تلهم شعبا ، وقد صـــار هذا الشعب وارث مثله الاعلى » •

وقال الخديو فى موضع آخر :

« لقد قيل ، فى أيام كفاح مصطفى كامل العنيفة ، انى كنت خصمه ، وقيل أيضا انه كان صنيعتى ،وليس هناك

ما هو أشد بعدا عن الحقيقة من هذا الذى قيل ، ان مصطفى كامل لا ينتمى الا الى نفسه ، ولقد كان رجلا من الصفوة ، عاش بايمانه ومات بايمانه ، أما أنا ، عباس حلمى ، فانى ما كنت أبدا خصمه ، وما كنت أبدا وحيه ، ولم يكن صنيعتى ، بل رائدا وجنديا يحارب تحت راية مثله الاعلى الذى كان العجائز يرونه زندقة والحادا ويتبعه الشباب فى حماس فائر ، وأن قلمه البليغ و (لواءه) المناضل ، قد صار احدى مفاخر عهدى .

« ومع ان كل شروع فى عمل بالمعنى الذى حلم به مصطفى كامل كان يعترضه دائما وجود الوكلاء البريطانيين وارادتهم ، فان عهد حكمى كله قد تأثر بمجهوده الوطنى ، وأذكر على سبيل المثال انشاء الجامعة المصرية الجديدة التى وضعتها تحت رياسة عمى الامير أحمد فؤاد ، لمنحها استقلالا حقيقيا ، فهى الدليل الذى لا ينقض على ذلك ، لانها كانت من وحيه ، فان أول من فكر فى الجامعة هو مصطفى كامل » .

وقال فى موضع آخر :

« ان الروح الوطنية قد تحددت بوجه خاص فى عهدى ، وقد ظفرت تلك الروح فى اخلاص أكثر زعمائه جلدا وبلاغة ـ مصطفى كامل ـ وفى موهبته ، بما آتاه برنامجا محدداً .

« يومذاك كنت أمسك بيدى محركات عنصرى الوطنية المتفرقين المتنافرين : الحزب المحافظ ، حزب أعيان البلاد الذى يأتمر بأمر الشيخ على يوسف ، وحزب الشباب المتطرف بزعامة مصطفى كامل ، وكان معنى الوطن عند

كل من هاتين الجماعتين مختلفا عن الآخر ، فهما لا تستطيعان تحقيقه فى صورة موحدة ، ولا فى لحظة واحدة .

« وقد أدركت بعد قليل استحالة ضم الفريقين ، وصار لزاما على أن اسعى عند كل منهما سعيا خاصا به ، وكان هذا ما جعل البعض يقول : انى كنت أقوم بلعبة مزدوجة

« ولكنى على العكس من ذلك ، كنت ابغى أن اتجنب — ما وسعنى ذلك — ترك هاتين القوتين المتنافستين احداهما ازاء الاخرى ، وان أحد من الانشـــقاقات فى كل منهما ، مستدركا ما عساه أن يحدث من اختلال .

« وكنت أحرص قبل كل شىء على الا تبدر منى بادرة تفضيل قد تثير غيرة تجعل احد الحزبين ينهض لعـــداء الأخر ، وكان تفضـــيلى مع المعتدلين ، ولكنى كنت أفهم المتطرفين ، ولم أستخدم لنفسى لا هؤلاء ولا هؤلاء ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا يرفضون مبدأ الاحتلال .

« وقد كان موقفى سببا فى أن يقال انى لم أكن مخلصا لا للوطنيين ولا للانجليز ، ولكن تقلباتى الظاهرية لم يكن لها غير دافع واحد ، وهو دافع شخصى على كل حال ، لم أكن رفيقا بالحزب الوطنى عندما كان يندفع الى شىء من العدوان ، ولكنى لم أكن رفيقا أبدا ببريطانيا العظمى التى كانت تنشب مخالبها باطراد كل يوم فى الارض المصرية ، وهذا الدافع الوحيد كان حبى لبلادى »

وقال عن حادثة (دنشواى) :

« لست أبغى أن أنشر هنا من جديد فصول تلك المأساة فان من المعـروف ان الضباط الانجليز المشـتركين فى

المناورات كانوا ينتهزون فرصة أوقات فراغهم كي يخرجوا للصيد ، فيقتلوا في القرى الحمام الاليف ، ويحملوه ملء الحقائب ، وان الاهالي قد قاوموا ، وتبادل الفريقان الضربات فلاذ احد الضباط بالفرار خلال المزروعات ، ومات متأثرا بضربة الشمس • وعاد بعض الجنود الى القرية ليقتلوا المزارعين الوادعين ، قبل أن يحملوا النبأ الى رئيسهم •

« ولم يكن في الامر ، الى ذلك الحد ، غير حادث يؤسف له حقا ، ولكنه ما كان لينتهي بتلك المذبحة الفظيعة التي تلت المحاكمة التي قامت بها المحكمة الخاصة ، لو انه عولج في اتزان ، ولم تخن الجميع أعصابهم • وكان كبار الموظفين الانجليز في أجازة ، كما كان الجنرال قائد القوات غائبا • وأكبر الظن ان ذلك الذي كان يقوم مقامه كان متحمسا ومتطرفا ، فقد أضفى على الحادث ثوب المأساة ، كما أن ممثل اللورد كرومر لم يحسن فهم المسئوليات التي أخذها على عاتقه •

« انى ليستثير الي أن أفصل القول في هذا الحادث الذي حمل الى البرق نبأه أثناء استشفائي في فينا ، فلقد هز نفسي أعنف هزة ، سواء من جهة الوقائع التي رفعت الى ، أو من جهة موقف الحكومة المصرية •

« لقد كان الواجب أن يقابل سوء تصرف الانجليز ووحشيتهم في الكفة الاخرى بوطنية المصريين وحرصهم على كرامتهم •

« وليس مما يغتفر للانجليز ، بلا ريب ، انهم شكلوا محكمة استثنائية ، كي يحاكموا فلاحين وادعين لم يرتكبوا

جرما الا الدفاع عن حقوقهم وممتلكاتهم ، ولكن جرمهم في ذلك لا يقاس بجرم أولئك المصريين الذين قبلوا بغير اعتراض الاشتراك في تلك المحكمة وأباحوا للدولة المحتلة تلك الترضيات التي ما كانت لتجرؤ على المطالبة بها لو أنها أحست من جانبهم مقاومة بسيطة .

« ان الوزراء المصريين لم تبدر منهم بادرة للتخلص من ذلك الشرف المحزن ، شرف محاكمة مواطنيهم ، ولم تند عن شفاههم كلمة طيبة واحدة .

« لقد ضحوا للاجنبي ، دون احتجاج ، ودون تردد ، بأولئك التعساء الذين عهدوا اليهم بمصيرهم ، والذين كان عليهم أن يستمعوا اليهم قبل الحكم عليهم . ولم يشر أحد الى الظروف المخففة لعمل كان أكثر الجرائم استحقاقا للعفو ، وكان فوق ذلك ، قد تم من قبل الانتقام له .

« ولا يفوتني أن أسجل أن المقال الذى نشره مصطفى كامل في جريدة « الفيجارو » الباريسية في ١١ يوليه سنة ١٩٠٦ قد أحدث دويا عظيما ، وأثار ضمير العالم .

« لقد كان ألمي لذلك الامر كبيرا وفادحا ، وكم عكر صفوى ليالى طويلة ، لم يكن الاندفاع الانجليزى وضعف الحكومة المصرية قد سمحا لى بفرصة التدخل الى وقت القضية .

« ولقد فعلت المستحيل لتعويض ضحايا حادث دنشواى الذين لم يشنقوا ، ولكن اللورد كرومر ابى قائلا ان في ذلك مساسا بشرف الجيش البريطاني . وكان على أن انتظر السير الدون غورست كى أصلح من أثر ذلك الشر .

« وكانت لندن ، بعد حادث دنشواى المحزن ، قد انتهى

بها الرأى الى استدعاء اللورد كرومر •

« كان الانجليز قد أدركوا آخر الامر ، كلما جرت الاحداث ،ولما أثارته الدعاية الوطنية عند الشعب من حركة لا تقاوم ، ان يوما سيأتى فيغدو جيشهم الذى يحتل مصر غير كاف للمحافظة على الامن فى البلاد ، أو لحماية نفسه من هجوم خارجى •

« فلنطو هذه الصفحة . ويكفى أن الصحافة الانجليزية والتاريخ قد فضحا ـ منذ ذلك الحين ـ سفاحى دنشواى. اولئك الذين سلموا المتهمين المساكين للجلادين ، خارج القانون ، وخارج الانصاف والعدالة ، ولشتى صنوف التنكيل »

وهذا الذى كتبه الخديو عباس فى مذكراته عن مصطفى كامل لصفحة فخار للزعيم العظيم •

مصطفى كامل ومعاصروه

ان روابط الانسان بمعاصريه وعلاقته بهم هي قطعة من حياته ، وجزء من شخصيته ، ولا مراء في أن التحدث عنها يلقي جانبا من الضوء على تاريخه ، لذلك خصصت هذه النبذة للكلام عن مصطفى كامل ومعاصريه •

أصدقاؤه الاقربون

محمد (بك) فريد ـ اذا ذكر أصدقاء الفقيد وأنصاره الاقربون كان في طليعتهم المغفور له محمد (بك) فريد، فهو زميله المخلص ، وصديقه الوافي ، وعضده الاكبر في بعث الحركة الوطنية ، لازمه وأيده في جهاده ، وبذل له ما يذل من العون الادبي والمادي ، وأمده بماله ، وظل وفيا له طول حياته ، ثم حمل الراية بعد وفاته ، فكان خير خلف، لأعظم سلف •

وتدل رسائل مصطفى كامل الى محمد فريد على مابينهما من الود الصادق والحب الخالص الثابت على مر السنين ، فكلاهما كان يؤثر صاحبه على نفسه ، ويضحي بنفسه من أجله ، وتلك دلائل الاخلاص الحقيقي ، وتطالعنا هذه

الرسائل بما كان يعمر قلبيهمـــا الكبيرين من الوطنيـــة الصادقة والعواطف النبيلة السامية ٠

لطيف (باشا) سليم ـ من أعلام الحركة الوطنية، تخرج في مدرسة أركان الحرب ، وتثقف ثقافة علميـــة وحربية عالية ، ثم تولى مهمة التدريس في المدارس الحربية ، فكان خير معلم وأستاذ ، ثم عين مفتشـــا بوزارة المعـــارف ، ثم مديرا للفيوم ، ثم رئيسا فخريا للمحكمة المختلطـــة ، واشتهر بأخلاقه العالية ، ووطنيته الصادقة ، وشجاعته واستقلاله ، كان عالما واسع الاطـلاع ، شـــغوفا بالعلم والادب ، وكان من أنصار الفقيد ومعضديه ، عرفه منذ كان طالبا بمدرسة الحقوق ، وكان واسطة التعـــارف بينهما نجله فؤاد سليم ، صديق مصـــطفى الحميم ، وقد آنس فيه الاستعداد لبعث الحـــركة الوطنية ، فـكان يقـــول عنه لنجله قبل أن يعظم شأنه : « انه الشـــعلة الوطنيـــة المنتظرة » ، وقد صحت نبوءته ، وحققت الايام فراســـته وصـــدق نظره ، وظل طول حيـــاته معضـــدا ومؤيدا له في جهاده ، وقد حزن الفقيد لوفاته حزنا عميقـــا كان له أثر شديد في انتكاس صحته أثناء مرضه الاخير ٠

كتب في هذا الصـــدد الى مدام جولييت آدم بتـــاريخ ٧ يناير سنة ١٩٠٨ يقول :

« انى مريض جدا منذ السابع عشر من شهر نوفمبر ، وقد بذلت مجهودا فوق الطاقة لالقاء خطبتي في الجمعية العمومية للحزب الوطني » الى أن قال : « أما صـــحتي فهي بين اليأس والرجاء ، والاطباء مطمئنون الآن ، والسبب في انتكاسي بعد خطبتي راجع الى مفاجأة المنون صديقا لي

حميما كان من أشد وأكبر نصرائي وهو المرحوم لطيف باشا سليم » .

وكانت وفاته قبيل فجر يوم ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ولم يبلغ الخامسة والخمسين ، وقد نعاه مصطفى وهو مريض فقال عنه : « آخانا رحمه الله على صغر سننا ، فكان أخا رءوفا ، وصديقا حميما ، ومواطنا محبا لبلاده حبا لا قدرة لكاتب أن يصفه » ، وقد انتقلت صداقته للفقيد الى نجله فؤاد سليم رحمه الله ، فكان حافظا لوده وعهده على مر السنين .

على فخرى — من أوائل علماء القانون فى النهضة الحديثة ، انتظم فى سلك المناصب القضائية وتدرج فيها الى أن عين رئيسا لنيابة الاسكندرية الاهلية ، فكان بحكم منصبه عضوا بمجلسها البلدى ، وظهرت هناك مواهبه من الذكاء والقريحه الوقادة والاستقلال فى الرأى ، والغيرة على شئون الوطن ، وقد برزت شخصيته الساطعة فى المجلس البلدى ، وكان يساجل الاعضاء الاوربيين الرأى ويناقشهم مناقشات ظهرت فيها قوة حجته واحتفاظه بكرامته ، فمثل العنصر الوطنى فى المجلس خير تمثيل ، ونال احترام زملائه الوطنيين والاجانب ، وارتقى فى المناصب القضائية فعين قاضيا بالمحاكم المختلطة ، ثم مستشارا بها ، وكسب احترام القضاة والمستشارين الأجانب ، حتى صاروا يرجعون الى رأيه فى المشكلات القانونية ، وكان من أصدق أصدقاء مصطفى كامل ، ومن أكبر نصرائه ، توفى فى شهر يونية سنة ١٩٠٦ ولم يكن يبلغ الخمسين من عمره ، وقد نعاه مصطفى فى اللواء نعيا مؤثرا دل على أنه من أقطاب الحركة الوطنية ، وسماه «فقيد الوطن والبلاد» ، ويعد نعيه صفحة

حية من التاريخ الوطنى ، ومن أبلغ ما كتب المترجم •

قال : « ان الفقيد كان أخا لنا ، نسترشـــد برأيه ، ونعتمد على فكره ، ونعتز بوجوده ، ونفتخر بعلمه وفضله، ووطنيته وحميته ، وعواطفه الحية السامية ، واحساساته الراقية ، فقدنا بموت ذلك الفقيد العظيم واحدا يفــدى بآلاف من الرجال ، اذا ذكر العلم كان حامل رايته ، وان ذكر الحق كان أكبر ناصر له ، وان ذكر العدل كان أكبر مشيد لاركانه ، وان ذكرت مكارم الاخلاق كان انسانها ، وان ذكرت الوطنية كان مثالها ، وان ذكرت البلاد وحقوقها كان أشرف وأصدق خادم لها ، فكيف لا يكون مأتمه مأتم القطر وبنيه ، والاسف على وفاته فى كل قلب ، والحداد على موته فى كل دار ، ارتبطنا بالفقيد من سنوات طوال برابطة الصـــداقة والاخاء والاتحـــاد فى الرأى والفكـر والشـــعور ، وهى أمتن الروابط وأقواها ، فعـرفنا فيه مصريا لا تهزه الحـوادث ولا تثبط عزيمتـه النوائب ، ولا تضعف آماله المصائب ، يتقد غيرة على مصـــالح وطنه ، ويمسى ويصبح وهو مفكر فى استقلاله وعزه ونعيمه ، اذا تكلم عنه سمعت الوطنى الحر الذى امتلأ فؤاده حبا لبلاده وحنانا عليها ، كان الفقيد البرهان الحى على كفاءة المصرى وسمو مداركه واستعداد هذا الشعب الكريم لان يخـرج النابغين من الرجال •

« كان رحمـه الله على جانب عظيم من الدعـة ورقـة الاخلاق ، مع ما اشتهر به من الاســـتقلال التام فى فكره والمجاهرة برأيه مع كل انسان وأمام كل انسان ، كنـا اذا حادثنا الفقيد شعرنا بارتياح هائل لمحادثته ، وأسف عظيم

على حالة هذا الوطن العزيز ، نرتاح لكلام نابغة عالى الفكر سامي الشعور ، طاهر القلب شريف الميول ، ونأسف على حالة الوطن لان الفقيد مع ما أراده له من الخدمات الجليلة النادرة كان يستطيع خدمته أكثر من ذلك لو كانت مصر مستقلة ، وأمرها بيدها ، ان الفقيد كان مؤهلا بفطرته وعلومه وأخلاقه وآرائه وهمته واقتداره لان يكون من أكبر قادة الامم وباعثى روح الحياة والنهوض فيها ، فلذلك كان موته مصابا جسيما ، مصابا لنا بالذات نعزى فيه ، لاننا فقدنا أخا حقيقيا لا يعوض ، ومصابا لكل مصرى ، لان الوطن فقد بموته واحدا يشرفه ويرفع قدره ويسليه بعلمه وعمله على همومه ومصائبه الجسام » .

أصدقاؤه وانصاره ـ أما بقية أصدقاء الفقيد وانصاره فلا سبيل الى حصرهم وهم صفوة المجتمع المصرى فى ذلك العهد .

معاصروه من الشعراء والادباء

كان لظهور الدعوة الوطنية التى بثها مصطفى كامل أثر كبير فى تطور الشعر فى مصر ، واتجاهه الى الناحية الوطنية ، وبدأ هذا الاتجاه فى قصائد فحول الشعراء المعاصرين للمترجم ، فان قرائحهم ، بتأثير دعوة الفقيد ، قد فاضت بالشعر الوطنى ، وسارت النهضة الادبية الى جانب النهضة الوطنية ، تغذيها وتؤيدها ، وتسجل حوادثها ، وتعبر عن آلامها وآمالها ، وردد الشعر صدى الحركة السياسية فى الحوادث الهامة .

حافظ ابراهيم ـ فمن ذلك أن حادثة دنشواى لقيت

صـداها في شعر حافظ ابراهيم ، فانشأ في يوليه سـنة ١٩٠٦ قصيدته المشهورة عن الحادثة ، ندد فيها بسياسة الاحتلال ، وقال في مطلعها مخاطبا المحتلين :

أيها القائمون بالامر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا

وكان الفقيد شديد الاعجاب بشعر حافظ وأدبه ،وعندما ظهر الجزء الاول من ديوانه سـنة ١٩٠١ ، قرظه في اللواء تقريظا يدل على عظم تقديره لشاعر النيل ، وأسهب في الثناء عليه بين عرب كتاب « البؤساء » سنة ١٩٠٣ .

وكان حافظ معجبا بوطنية مصطفى ، رغم صـداقته وصلته بخصومه السياسيين ، وظهر اعجابه به وتأييده له بكل جوارحه في قصيدته التي القاها يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٠٦ في احتفال مدرسة مصطفى كامل ، تعليقا على خطبة الفقيد ، قال في مطلعها :

سمعنا حديثا كقطر الندا فجدد في النفس ما جددا

واقتبس حافظ من روح مصطفى ، وأيده في دعـوته الوطنية ، وردد صداها في شعره ، فمن ذلك قصيدته التي قالها في استقبال اللورد كرومر بعد حادثة دنشـواي ومطلعها :

(قصر الدوبارة) هل أتاك حديثنا
فالشرق ريع له وضـج المغـرب

وقصيدته في شكوى مصر من الاحتلال (يناير سـنة ١٩٠٧) ومطلعها :

لقـد كان فينا الظلم فوضى فهذبت
حواشـيه حتى بات ظلما منظمـا

وقصيدته التي قالها عند إستقالة اللورد كرومر في أبريل سنة ١٩٠٧ ومطلعها :

فتى الشعر هذا موطن الصدق والهدى
فلا تكذب التاريخ ان كنت منشدا

ويبدو مبلغ تقدير حافظ للفقيد في قصيدته التي ألقاها على قبره يوم تشييع جنازته . قال في مطلعها :

أيا قبر هذا الضيف آمال أمة
فكبر وهلل والق ضيفك جاثيا

وقصيدته في حفلة الاربعين

وله قصيدة ثالثة ألقاها عند قبره يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٩ في الاحتفال باحياء ذكراه الاولى ، وهي من أبلغ روائع الشعر العربي ، ومطلعها :

طوفوا باركان هذا القبر واستلموا
واقضوا هنالك ما تقضى به الذمم

شوقي — أما شوقي ، أمير الشعراء ، فقد كان صديقا حميما للفقيد ، وكلاهما معجب بصاحبه أيما اعجاب ، ولا غرو فهما صنوان ، وفرسا رهان ، هذا في ميدان الوطنية والجهاد ، وذاك في دولة الشعر والبيان ، وكان الفقيد يصف شوقي بأنه « الغدير الصافي في الفاف الغاب ، يسقى الارض ولا يبصره الناظرون » ، وكان يخصص لقصائده أسمى مكان في اللواء .

وكان لدعوة مصطفى أثرها في شعر شوقي ، فمن ذلك أنه لما دعا الامة سنة ١٩٠٢ الى الاحتفال بالعيد المئيني لولاية محمد على ، لبى شوقي نداءه ، وأنشأ في مايو سنة

١٩٠٢ قصيدة من غرر قصائده ، تخليدا لهذا العيد ،قال في مطلعها فيها مناجيا روح محمد على :

علم أنت في المشـــارق مفرد

لـك في العـالمين ذكر مخـــلد

وفى سنة ١٩٠٧ أنشأ قصـــيدته المشهورة في وداع اللورد كرومر ومطلعها :

أيامكم أم عهـــد اســماعيلا

أم أنت فرعون يســوس النيـلا

وقصيدته عن « ذكرى دنشـواى » بعد مرور عام على حادثتها ، في سبيل طلب العفو عن سجنائها ، ومطلعها :

يا دنشـــواى على رباك ســلام

ذهبـت بأنس ربوعـــك الايـام

وتدل مرثاة شوقى على مبلغ ما يكنه للفقيد من الاعجاب والاكبار ، وتعـد قصـيدته أعظم مرثاة في تاريخ الأدب العربى ، ومطلعها :

المشرقان عليك ينتحبـــان قاصيهما في مأتم والدانى

وكان لا يفتأ يذكره بعد وفاته في قصائده ، فمن ذلك قصيدته التى نظمها بمناسبة ذكراه السابعة عشرة بعنوان « شهيد الحق » ، تناول فيها وصف ما أصاب البلاد في سنة ١٩٢٤ من انقسام وتشـاحن وتناحر ، ثم انتقـل من ذلك الى ذكرى الفقيد فوفاه حقه ، قال في مطلعها :

الام الخلف بينـــكمو الاما ؟

وهذى الضجة الكبرى علاما ؟

وله قصيدة القيت في الاحتفال بذكرى الفقيد في فبراير سنة ١٩٢٦ قال في مطلعها :

لم يمت من له أثر وحياة من السير

اسماعيل صبرى ـ وكان الشاعر الكبير اسماعيل صبرى صديقا صدوقا للفقيد ، أيده في جهاده منذ الساعة الاولى ، كان محافظا للاسكندرية سنة ١٨٩٦ ـ ١٨٩٩ ، وأراد مصطفى أن يلقى خطبة من خطبه الوطنية الكبرى ، فاوعزت الحكومة اليه أن يمنع اقامة الاجتماع الذى أعد لالقاء الخطبة ، بحجة المحافظة على الامن والنظام ، فابى صبرى على الحكومة ما أرادت ورخص باقامة الاجتماع ، وصارح الحكومة بأنه مسئول عن الامن والنظام .

ولما عين وكيلا لوزارة الحقانية (نوفمبر سنة ١٨٩٩) ظل على مودته للفقيد ، وكان يخرج في غالب الايام من الوزارة ويعرج بدار اللواء المقابلة لها ليزور صاحب اللواء ويقضى معه الوقت الطويل ، ولم يمنعه منصبه من المجاهرة بصداقته له في الوقت الذى كان الكبراء من الموظفين وغيرهم يخشون عواقب الاتصال به ، والى ذلك يشير شوقى في رثائه لاسماعيل صبرى اذ يقول :

فلكم سقاه الود حين وداده
جرب لأهل الحكم والاشراف

وتجد في شعر اسماعيل صبرى انسجاما مع روح الفقيد ، ففي قصيدته التى وجهها الى الخديو عباس الثاني. يوم عيد جلوسه سنة ١٩٠٨ .
قال يدعو الى الدستور :

سدد سهام الرأى بالشورى يحط
بـــك منه فى ظلم الحوادث فيلق
وقال فيها يذكر حادثة دنشواى والعفو عن مسجونيها:
وأقلت عثرة قرية حكم الهوى
فى أهلها وقضى قضـــاء أخرق

وقد جزع لوفاة الفقيد جزعا شديدا ، وشيع جثمانه الى مرقده الاخير ، ووقف على قبره يلقي قصيدته فى وداعه ، ولم يكد يلقي البيت الاول منها وهو :
أداعى الاسى فى مصر ويحك داعيـا
هددت القوى اذ قمت بالامس داعيا

حتى ظهر عليه التأثير الشديد والاعياء ، ولم يستطع أن يتم القصيدة ، وتدل قصيدته فى حفلة تأبينه على مبلغ حبه له واخلاصه لصداقته ، واعجابه به وشدة حزنه عليه، فجاءت آية فى البلاغة ورقة التعبير ، وكان كل بيت منها دمعة وفاء تذرفها عين الصديق على صديقه الحميم .

خليل مطران ـ وكان بين الفقيد وشاعر القطرين خليل مطران صداقة وود داما طول العمر ، ويبدو مبلغ اعجابه به وتقديره لعبقريته فى قصيدته فى حفلة الاربعين ، وقد نشرها فى ديوانه وصدرها يقول : « مصـــاب الشرق فى رجله المفرد ، وبطله الاوحد ، مصطفى باشا كامل ، أيتها الروح العزيزة ، ان فى هذا الديوان الذى أختتمه برثائك نفحات من نفحاتك ، ودعوات من دعائك ، فالى هيـكلك المدفون بالتكريم ، تحية الاخ المخلص للاخ الحميم ، ووداع المجاهد المتطوع للقائد العظيم »

وظل خليل مطران على تعاقب السنين ، يحفظ عهد صديقه العظيم ، ويشيد بذكراه ، وله فى سنة ١٩٣٣ قصيدة عصماء ألقاها لمناسبة مرور عام على وفاة حافظ ابراهيم ، ضمنها وصفا رائعا للنهضة القومية التى كونت حافظا وجعلته الشاعر المطبوع المترجم عن آمالها وآلامها ، وكيف أن هذه النهضة هى غرس مصطفى وكيف تعهدها بجهاده الى أن مات ، وبموته كانت الآية التى تم بها استقرارها •

وكان الفقيد يعجب أيضا بقصائد أحمد محرم ويشيد بها فى اللواء ، ويسميه ، (نابغة البحيرة) ، وبقى أحمد محرم على صلة بالفقيد ووفائه له ولذكراه ، وكذلك كان معجبا بشعر أحمد الكاشف ، ثم بشعر أحمد نسيم •

وقد ادرك فى بداية عهده الشاعر الاديب المشهورالشيخ على الليثى ، وأحبه هذا حب الوالد لولده ، ولمح فيه النبوغ والعبقرية ، وكان يقول له : « انك أوتيت ذكاء يقرب منك البعيد ويظهر لك الخفى ، وحجة بها تسكت من ناقشك وتفحم من جادلك » •

ومن تلاميذه من الادباء والشعراء الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى ،كان حين وفاة الزعيم طالبا بمدرسة المعلمين العليا ،وقد رفت أسبوعا من المدرسة جزاء له على خطبة وطنية القاها تلك السنة فى حفلة الطلبة بدار التمثيل العربى ، وبدأت كتاباته الوطنية تظهر فى صحف الحزب الوطنى عقب وفاة الزعيم •

اصدقاؤه وانصاره في الشرق والغرب

أولهم مدام جولييت آدم ، فهي التي عرفته بأقطاب السياسة في فرنسا ، وأيدته في جهاده .

ومن أصدقائه من كتاب الغرب (بيير لوتي) الاديب الفرنسي المشهور ، كانت بينهما صلة ود وثيقة ورسائل متبادلة ، وكان لوتي يمد الايتندار اجبسيان بالمقالات الممتعة .

ومن أصدقائه الشعراء شكرى غانم الشاعر اللبناني الشهير ، نبغ في الشعر الفرنسي ووضع باللغة الفرنسية مسرحية (عنترة) التي مثلت في فرنسا ومصر وحازت استحسانا كبيرا، وقد خطب الفقيد في الاحتفال الذى أقيم تكريما له بالقاهرة في يناير سنة ١٩٠٦ خطبة بليغة ، أثنى فيها على شعر المحتفل به وأدبه ، وصرح شكرى غانم بأنه هو الذى وجهه الى وضع رواية (عنترة) بالفرنسية، لكى تكون فيها دعاية للبطولة العربية في الاوساط الفرنسية المثقفة .

وكان له في أوربا أصدقاء وأنصار عديدون ، نذكر منهم : الكولونل مارشان بطل حادثة فاشودة ، وارنست جوديه . وكلاهما من تلاميذ مدام آدم ، والمسيو فلورانس وزير خارجية فرنسا السابق ، والمسيو بللتان وزير بحريتها السابق ، ولهما في الايتندار اجبسيان مقالات عدة ، والمسيو تارديو الذى صار رئيس وزراء فرنسا ، والكونت روشفور ، وكان معظم مديرى الصحف الفرنسية الكبرى ومحرريها من أصدقاء الفقيد والمعجبين به وبجهاده

مصطفى كامل وطلعت حرب

كان الفقيد صديقا لطلعت حرب ، وامتدحه في لـواء ١٠ يناير سنة ١٩٠٠ ، لمناسبة ظهور كتابه في تربية المرأة ووصفه بأنه « الكاتب الفاضل محمد أفندى طلعت حرب » ولما ظهرت كفاءته المالية أثنى عليه وكتب عنه في لواء ١٠ يولية سنة ١٩٠٥ تحت عنوان (مصرى فاضل) ما يأتى :

« من الاشياء التى تسر كل مصرى يحب بلاده وأبناءها العاملين ما يكون منها شاهدا على كفاءة المصرى في الاعمال الجسيمة وتقدير الاوربيين له حق قدره ، فعزتلو حضرة المقدام العامل محمد طلعت بك حرب مدير قلم قضـــايا الدائرة السنية سابقا هو أول مصرى نقدمه اليوم للقراء انتخب مديرا لشركتين عظيمتين ، هما شركة العقـــارات المصرية ، وشركة كوم أمبو ، خلفا لحضرة عاداه بك مديرها الســــابق ، وان من يعلم أن أصـــحاب هاتين الشركتين ومؤسسيها هم من كبار الماليين المعدودين كالمسيو أرنست كاسل والمسيو سوارس وشركائه ، لا يرتاب في أن الثقة بهذا المصرى الجليل عظيمـــة ، كمـــا لا شك في أن هاتين الشركتين ستصلان الى شـــأو بعيـــد من الرقى والفلاح بما أوتيه حضرة مديرهما الجديد من سمو الادراك وســـعة الاطلاع في المسائل المالية ، فنهنىء الشركتين به ، ونسأل العلى القادر أن يهبنا الكثيرين من أمثاله » .

فكأن الفقيد كان يستشف ما وراء الحجب ، ويلمح في الافق ما كان لطلعت حرب ــ رحمـــه الله ــ من الشـــأن العظيم في نهضة مصر الاقتصادية ، وأنه سيتولى زعامتها

في ميدان الاقتصاد والمال ، فأثنى عليه هذا الثناء المستطاب

مصطفى كامل وسعد زغلول

حينما بدأ مصطفى كامل حياته الوطنيسة سنة ١٨٩٠ كان سعد زغلول لا يزال المحامي النابه (سـعد أفندي زغلول) ، وكان منصرفا الى أعماله في المحاماة ، ثم عين سنة ١٨٩٢ قاضـيا(مستشارا) ، فانقطع قضـائه بمحكمة الاستئناف .

وكانت علاقة مصطفى بسعد ودية حتى سنة ١٩٠٦ ، حدثني فؤاد باشا سليم أن سعد بك زغلول كان يتردد على دار والده لطيف باشا سليم ، وهناك عرف مصطفى كامل اذ كان لا يزال طالبا بمدرسة الحقوق ، ثم تخلف سعد عن جماعة لطيف باشا ، لما ظهر عليها من طابع المعارضة ضد الاحتلال ، على أن علاقته بمصطفى ظلت ودية كما أسلفنا ، وحين صدر اللواء سنة ١٩٠٠ ، كان سعد زغلول لا يزال مستشارا بمحكمة الاستئناف ، وشـقيقه أحمد فتحي زغلول رئيسا لمحكمة مصر الابتدائية ، ولما ظهر كتـاب (المحاماة) لاحمد فتحي زغلول كتب عنه الفقيد في عدد ١٩ اكتوبر سـنة ١٩٠٠ مقالة افتتاحية بتوقيعه ، أثنى فيها ثناء كبيرا على الكتاب وصاحبه ،وليس يخفى أن مجرد تخصيص المقالة الافتتاحية لتقريظ الكتاب هو دليـل في ذاته على التقدير والود الكبير ، قال في مقدمة مقالته :

« لست ممن يزفون المدائح زفا أو يبجلون الناس حبا في مرضاتهم ، وطمعا في استرضـائهم ، ولكني أكون مقصرا أمام الله والناس اذا لم أشكر أمام الملأ كله مؤلف

كتاب (المحاماة) صاحب العزة المفضـال أحمد بك فتحي زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية الخ » •

ويبدو وده لسعد مما كتبه اللواء في عدد ٧ فبراير سنة ١٩٠٦ عن مرضه ، قال تحت عنوان (شـفاه الله) : « انحرفت صحة حضرة الاصولى المفضال سعد بك زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف الاهلية ، وقضـت باجراء عملية جراحية بسيطـة له ، وقد تمت على غاية ما يرام ، وأخذت صحته تتحسن تحسنا عظيما ، مما سر أصدقاءه ومحبيه العـديدين الذين يتوافدون كل يوم على منـزله لعيادته ، نسأل له الشفاء التام والصحة والعافية ، حتى تنتفع البلاد بعلمه الغزير ومعارفه الواسـعة » ، فهـذه الكلمة تدل على تقدير الفقيد لسعد ، ونشر اللواء في ٢٨ فبراير نبأ شفائه في غبطة وسرور •

على أن علاقة الفقيد بفتحي زغلول قد انقطعت وانقلبت الى خصومة شـديدة بعد أن اشـترك في الحكم على المتهمين في حادثة دنشواى ، اذ كان أحد قضاة المحكمة المخصوصة وهو الذى كتب الحكم بقلمه ، فحمل عليه مصطفى حملة شديدة ، وسماه (قاضى دنشواى) وقال له في منزل سعد يوم ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٠٦ : « ان حكمك في قضـية دنشواى ، يحول بيننا وبينك الى آخر لحظة من الحياة »

من ذلك ترى أن صداقة الفقيد وخصومته كانتا خالصتين لوجه الحق والوطن ، فاذا مدح مدح بحق ، واذا انتقـد انتقد بحق ، غير متأثر بصلات شخصية ، أومآرب ذاتية ، وكانت علاقاته الشخصية تتبع المصلحة القومية •

ولما عين سعد وزيرا للمعارف في أكتوبر سنة ١٩٠٦ امتدح صفاته ، وأمل الخير على يده ، وكتب في لواء ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٠٦ تحت عنوان (سعد بك زغلول وزير المعارف) يقول : « لما قابل جناب اللورد كرومر أول البارحة سمو الخديو المعظم في سراى رأس التين عرض عليه تعيين سعادة سعد بك زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف الاهلية وزيرا للمعارف المصرية ، فارتاح سمو الخديو لهذا الطلب لما يعهده في سعادة سعد بك من الفضل والعلم والاخلاق القويمة ، وأن ما يعرفه الناس في أخلاق وصفات سعد بك زغلول وهو في المحاماة أولا ، وفي القضاء ثانيا ، يحملهم جميعا على الارتياح لهذا التعيين الذي صادف مصريا مشهورا بالكفاءة والدراية والعلم الغزير ، وحب الانصاف والعدل ، ولكن لما كانت الوزارة من سنوات مضت الى اليوم منصبا لا عمل فيه ، وكان المستشارون الانجليز أصحاب السيطرة التامة في النظارات ، حق للناس أن يتساءلوا عما يعمله سعادة سعد بك زغلول في وزارة المعارف ، هل يكون كبقية الوزراء ــ أمره وأمر المعارف بيد المستر دنلوب ــ أم يكون وزيرا اسما وعملا ويحيي سلطة الوزراء المصريين ؟ اللهم اننا عرفنا سعد بك زغلول في ماضيه وحاضره أشد الناس تمسكا باستقلاله وحقوقه ، وأكثرهم انتقادا على الذين تركوا سلطة مناصبهم لغيرهم،وسمعناه يقرع بلهجة حادة الكسالى والمقصرين كبارا كانوا أو صغاراً ، فاذا بقى سعد بك في وظيفته الجديدة كما هو وكما كان ــ وهو ما

نعتقد ـ أملنا خيرا كبيرا للمعارف ، ورجونا سريان هذه الروح الى بقية النظار وعودة « الحياة المصرية » الى الوزارة على انه اذا كان جناب اللورد كرومر اختار سعد بك زغلول وزيرا للمعارف تقديرا لعلمه واعلانا لتغييرجنابه للسياسة الاحتلالية الماضية ، واتباعه لسياسة جديدة قاضية باعطاء المناصب لمستحقيها وتشريف الكفاءة ، فان هذه السياسة تقضى قبل كل شيء بأن يكون الوزير وزيرا حقيقة ، وأن يكون العامل عاملا مؤيدا لوظيفته ، متمتعا بكل حقوقه ، لا أن يكون آلة في يد الموظف الانجليـزى ، ولوجب أن يكون سعد بك زغلول المدير الفعال لدفة المعارف المصرية والمصلح لخللها الكثير ، والمحقق لآمال الأمة فى نظارة خابت فيها مع المستر دنلوب كل الآمال ، فنحن لا نبتهج اليوم بتعيين سعادة سعد بك زغلول وزيرا للمعارف الا بأمل أن يكون كما كان على مبارك باشا والفلكى باشا وأمثالهما ممن خدموا العلم فى هذا القطر خدمات خالدة ، وكانت لهم فى مناصبهم الكلمة النافذة ، والرأى المتبع ، ونطالبه قبل مطالبتنا للاحتلال بأن يكون كذلك ، وأن يكون فى مستقبله كما هو فى حاضره وكما كان فى ماضيه الرجل المستقل الذى لا يخدعه منصب ولا مال » .

ولكن الفقيد أخذ ينتقد سعدا حين انسحب من لجنة مشروع الجامعة المصرية عقب تعيينه وزيرا للمعارف (وكان نائب الرئيس أو الرئيس الفعلى لها) ـ فانه لم يكد يتولى وزارة المعارف فى ٢٨ أكتوبر حتى وقف اجتماع اللجنة ، وكانت تجتمع فى داره ، ثم اجتمعت يوم ٣٠ نوفمبر

بدار حسن بك جمجوم أحد أعضـــائها ، وحضر ســـعد الاجتماع فأعلن انسحابه من اللجنة ، بدعوى ان كثرة أعماله في الوزارة لا تسمح له بالاشتراك فى مشروع الجامعة ، مع أن تعيينه وزيرا للمعارف كان أدعى لاضطلاعه بعمل هو من أخص واجبات وزارة (التعليم) ، وكتب الفقيد فى هذا الصدد يقول : « كيف يهتم المستشار فى الاســـتئناف بمشروع علمى ولا يهتم به ناظر المعـــارف ؟ » وقال فى مقالة أخرى : « ان تخليه يظهر للملأ الخطر الذى يحيق بالمشروعات العامة اذا كان لرجال الحكومة دخل فيهـا ، واعتقادنا أن أقوى ضمانة لامثال مشروع الجامعة المصرية أن يكون القائم بها هو الامة دون سواها » .

وقد أصاب المشروع الفتور والركود فعلا بعد انسحابه من اللجنة وبخاصـــة لان الحكومة خلقت فى ذلك الحين « بايعاز من الاحتلال » حركة انشـــاء الـــكتاتيب واستحثت الاعيان فى مختلف الجهات على التبرع لها ، معـارضة بذلك مشروع الجامعة ، وبقى المشروع راكدا حتى دبت فيه الحياة حين تولى رياسة لجنته الامير أحمد فؤاد (الملك فؤاد الاول) فى سنة ١٩٠٨ .

واشتد الفقيد فى نقد سعد حين طلبت الجمعية العمومية من الحكومة فى مارس سنة ١٩٠٧ جعل التعليم فى المدارس الاميرية باللغة العربية ، وكان وقتئذ باللغة الانجليزية ، فاعترض سعد وكان وزيرا للمعارف على هـذا الاقتراح ، والقى خطبة طويلة فى هذا الصدد ، سوغ فيها جعل التعليم باللغة الانجليزية ، قائلا : « ان الحكومة لم تقرر التعليم

باللغة الاجنبية لمحض رغبتها أو اتباعا لشـــهوتها ، ولكنهـا فعلت ذلك مراعاة لمصلحة الأمة المخ » على أن الجمعيـة العمومية رفضت اعتراضات سعد باشا على هذا الاقتراح وأقرته الاغلبية العظمى .

وكتب مصطفى كامل مقالا فى الايتندار اجبسيان عربه اللواء فى عدد ٩ مارس سنة ١٩٠٧ تحت عنوان (فشـل وزير) ، انتقد فيه سعدا انتقادا شديدا .

وصفوة القول أن موقف مصطفى كامل من سعد زغلول كان وديا حتى انسحابه من لجنة مشروع الجـامعة ، ثم تحول الى موقف انتقاد نزيه وخصومة شريفة ، تبعـا لما اقتضاه الدفاع عن الصالح الوطنى العام .

شخصية الزعيم

لا نزاع في أن مصطفى كامل هو من عظماء الرجال ، ومن زعماء الشعوب وقادتها الابطال في ميادين الحرية والاستقلال ، ولا مراء في أنه باعث الحركة الوطنية التى ظهرت في مصر عقب الاحتلال البريطانى ٠

لقد أوضحنا في الصفحات الاولى من الكتاب كيف ظهر واضطلع بأعباء الدعوة الوطنية ، في عصر لم يكن مواتيا لها ولا مستعدا لمناصرتها ، فهذه الشخصية الكبيرة التى حملت عبء الجهاد ، ودعت الأمة الى الانضواء تحت لواء الحرية والاستقلال ، في وقت تحالفت فيه أسباب اليأس والجمود ، يجب أن تكون شخصية بالغة منتهى القوة ، لكى تستطيع أن تشق لدعوتها طريقا وسط هذه العوامل المثبطة للعزائم ، فما هى العوامل التى تألفت منها هذه الشخصية الفذة ؟ ٠

ان شخصية مصطفى كامل تتركز في قوى ثلاث ، هى التى ساعدته على النجاح في عمله العظيم ، وهى ايمانه برسالته ، وأخلاقه وصفاته ، ثم وطنيته الصادقة ٠

ايمانه برسالته ـ فايمانه برسالته ، هو أبرز الجوانب في شخصيته ، ويبدو لك هذا الايمان من ذلك الكتاب الذى بعث به الى مدام جولييت آدم في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥ ، وهو بعد في الحادية والعشرين من عمره ، اذ يقول فيه :

« انى لا أزال صغيرا ، ولكن لى آمالا كبارا ، فانى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة ، هم يقولون ان وطنى لا وجود له ، وأنا اقول يا سيدتى انه موجود ، واشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه ، وسأجود فى سبيله بجميع قواى ، وأفديه بشبابى ، وأجعل حياتى وقفا عليه »

فهذا الكتاب الوجيز فى عبارته ، الرائع فى اسلوبه ، يطالعك بقوة الايمان الذى يملأ قلب صاحبه ، فهو مؤمن بحياة الوطن ، ولو خالف الناس جميعا ، مؤمن برسالته ايمانا جعله يجود فى سبيلها بشبابه وحياته ، وقد لازمه هذا الايمان طول حياته ، على تعاقب السنين ، وهذا هو سر نجاحه ، قال فى سنة ١٩٠٤ : « سأبقى حتى الممات حاملا لواء الاستقلال ، اذ أجد حياتى فى هذه العقيدة ، وبغير هذه الشعلة الوطنية لا أستطيع الحياة » .

وكتب الى مدام آدم فى ١٣ اغسطس سنة ١٩٠٦ يقول : « غدا تذكار ميلادى اذ أبلغ الثانية والثلاثين ، وما عساى أن أعيش أيضا لاخدم مصرنا العزيزة ؟ وعلى كل حال فانى لا أترك لحظة تمر من حياتى دون أن أغرس حبها فى قلوب مواطنى ، وأتمم عملى الى النهاية » .

فهذا الايمان هو قوام شخصيته ، ومصدر قوته ، ولولاه لما تابع الجهاد رغم العوامل المثبطة ، وهو الذى يسر له تذليل كل عقبة اعترضته فى جهاده ، وجعله يضطلع بأعباء الجهاد المضنى ، ويسير بالامة فى طريق الحرية والاستقلال ، قال صديقه الاستاذ داود بركات فى هذا

الصدد : « أعتقد في نفسه القدرة على العمل ، فصغر كل كبير في نظره • وأذكر من اقـــواله يوما : ان أغسطس قيصر لم يكن كبيرا لان أمته كبرته ، بل لانه ســار أمامها فعرفت أنه كبير » •

صفاته وأخلاقه ـ كان الفقيد شابا في مقتبل العمر ، قمحي اللون ، جميل الطلعة ، متوسط القـامة ، نحيف الجسم ،عريض الجبهة، براق العينين ،يشع منهما الذكاء وقوة العزيمة •

ان الجانب الاخلاقي هو بلا مراء من أعظم مميزات هذه الشخصية الفذة ، ولا غرو ، فالاخلاق هي سياج الوطنية، وحصنها الحصين ، وهي قوامها وغذاؤها الدائم •

ولقد كان مصطفى كامل زعيما أخلاقيا ، وزعيما وطنيا معا ، فلا جرم أن كانت وطنيته ثابتة كالطود راســخة كالجبال •

وأبرز أخلاقه وصفاته الشجاعة الادبية ، والصــدق ، والصراحة ، والاخلاص ، والصبر وقوة العزيمة ، والثبات ثم الوفاء وعلو النفس ، وعلو الهمة ، والجود والكرم ،هذه الاخلاق هي قوام وطنيته ، وبها اســـتطاع أن يقوم على دعوته ، ويثابر عليها ، ويناضــل عنها طول حياته ، ولولا قوة أخلاقه لما أمكنه أن يغالب العقبات ، ويقاوم المؤثرات والمغريات

كان شديدا في الحق ، يحب الصدق والصراحة ،ويكره النفاق والرذيلة ، يجاهر بما في ضميره بشــجاعة أدبية كبيرة ، لا يهاب في الحق كبيرا ، وكان مع ذلك وديعـــا يخفض جناحه للاصاغر وأواسط الناس ، ويعطف عليهم

كان شديد الذكاء ، سريع الخاطر ، قوى الذاكرة ، بالغ الحجة ، عظيم النشاط ، محبا للعمل ، لا يكل منه ، ولا يعرف الملل والهوادة .

وكان وفيا لاصدقائه ، بارا بأهله وذويه ، يعطف عليهم ويعد نفسه أبا لهم جميعا ، لم يتزوج في حيـــاته قط ، وانحصر حبه العائلي في والدته وأخوته وأقاربه وذويه ، ظهر وفاؤه لوالدته حين مرضت ، فكان مشـــغول الفؤاد بمرضها ، شديد العناية بأمرها ، يكتب عن أنبائهــا الى مدام جولييت آدم في رسائله اليها ، وقد حزن عليها حزنا شديدا حين أدركتها الوفاة سنة ١٩٠٧ ، كتب في هــذا الصدد الى مدام آدم يقول :

« قد رزئت أكبر رزء في الحياة ، فان والدتي العزيزة، مالكة فؤادي ، قد فارقت الدنيا يوم الاحـد الماضي ، ان حزني لشديد ، وحياتي كادت تنقضي ! »

فهذا التعبير يدلك على مبلغ وفائه لوالدته ، وحبه لها، وتعلقه بها ، وحزنه عليها ، وهذا لعمرى ابلغ مظهر لوفاء الانسان في هذه الدنيا .

ويبدو وفاؤه لاهله وذويه من رسائله الى صديقه وزميله في الجهاد محمد فريد فانه لا يكاد يخلو كتاب منهــا من سؤاله عنهم ، وعنايته بهم ، واهتمامه بكل صغيرة وكبيرة من شئونهم ، على كثرة مشاغله ومهامه الجسام .

كان جوادا كريما ، يعطف على الفقراء والمعوزين ويحبهم، فكان لهم نصيب وافر في مدرسته ، اذ خصص للمجانية قسما كبيرا لتعليم أولادهم ، واليه ينسب فضل كبير في

مبدأ الاسعاف ، فقد عطف على قتيل حادثة الهماميل بالاسكندرية ، فاسعف أهله بماله ومساعيه ، وعنى بتعليم ابنه بفضل ذلك المبدأ الكريم •

وطنيته ـ أما وطنيته فلا نرانا فى حاجة الى التحدث عنها ، فلقد خصصنا لها هذا الكتاب جميعه ، اذ هو سجل لوطنيته الكبرى ، فالوطنية تبدو فى كل ظاهرة من ظواهر حياته ،وفى كل حركة من حركاته،وكل خاطرة من خطرات نفسه ، ولا غرو فقد ملكت عليه لبه ومشاعره وتفكيره ، فكانت حياته هى الوطنية ، واقتبست منها الامة نهضتها الوطنية ، وهو الشعلة التى انبثق نورها فى أرجاء وادى النيل منذ ستين سنة ونيف ، فاضاءت النفوس وأحيت فيها الشعور الوطنى ، وحفزتها الى الحياة والكرامة والجهاد القومى ، بعد سنوات طويلة من الانحلال الوطنى العام •

كانت وطنيته أسبق وأقوى من الجيل الذى ظهر فيه ، وأقوى من الحوادث التى اعترضته ، فليس يخفى أن هذه الحوادث كانت فى مجموعها سلسلة هزائم ، مثبطة للعزائم ، على أنه قد تغلب عليها بقوة الوطنية والاخلاق ، وكان يزداد ثباتا فى الكفاح والنضال ، كلما ازدادت فى طريقه العقبات ، وهنا وجه البطولة فى تاريخه •

وتبدو قوة وطنيته فى مثابرته على الكفاح ، وفى هذه الحركة الدائمة التى لم ينقطع عنها ، والتى بينا أدوارها ومراحلها فى فصول هذا الكتاب ، فهذه الحركة التى لم يعترها الكلال فترة ما خلال الثمانى عشرة سنة التى قضاها فى الجهاد ، هى عنوان وطنيته ، وثمة عنوان آخر

لها ، وهو أن جهاده كان خالصا لله والوطن ، اذ كانت الحركة الوطنية لا ترمي في ذلك الحين الى الحكم والمناصب أو الجاه والمنافع ، بل كانت سلسلة متصلة الحلقات ، من المتاعب والتضحيات ، ومن هنا ، تتجلى بطولتها ، ويسطع نورها وروعتها ، فهذه الروح ، روح التضحية والاخلاص ، هي رأس مال الشعوب في حياتها القومية ، لان الامم انما تتميز في ميادين الرقي والعظمة بمقدار اخلاص ابنائها لاوطانهم ، وتفانيهم في خدمتها ، وايثارهم الصالح العام على منافعهم الشخصية .

سبيله الى الوطنية ـ كان الفقيد لا يهتم طول حياته الا بالوطنية يبثها في نفوس النشء والجيل ، وكانت سبيله الى غرسها في النفوس الدعوة والخطابة والصحافة والتأليف ، والقدوة الصالحة في الاستمساك بالعروة الوثقى ، كان أستاذا للجيل ، أرشد الامة الى المثل العليا في حب الوطن والاخلاص له ، ولذلك كان يعنى بالتاريخ الوطني لجميع الشعوب ، يستخلص منه دروس الوطنية الصادقة ، ويلقنها لبني مصر ، كتب في هذا الصدد الى مدام جولييت آدم في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٩٩ حين اعتزم اصدار اللواء يقول : «أشكرك كثيرا اذا تفضلت بارشادي الى المؤلفات الخاصة بالتاريخ القومي والقصص الوطنية عن كل البلاد ، لكي ألقن الشعب اياها ، فانه يجب أن أنشر المثل العليا في الوطنية » .

وكتب اليها في ٢٨ ديسمبر من تلك السنة يقول :
« انى أعمل الان كثيرا ، وأمل أن يصير (اللواء) أول جريدة في الشرق ، فاني أريد له أن يكون في وقت واحد

عاملا للوطنية المصرية، وواسطة بين العالم الاوربى والعالم المصرى ، ولهذا رجوت منك أن تكتبى لنا بين آن وآخر مواعظ وطنية مما جرى فى عصرك أو فى بطون التاريخ »

وكان فى دعوته وجهاده ، فى مقالاته وخطبه وأحاديثه، يسمو بالوطنية ، ويوجهها الى المثل العليا ، وينزهها عن الخصومات الشخصية ، ويربأ بها عن الطعن فى أعراض الناس وشخصياتهم ، كان عف القلم عف اللسان ، وفى ذلك يقول فى خطبته بالاسكندرية سنة ١٨٩٦ : « انى أترفع عن أن أدافع عن بلادى بالطعن والسباب » .

وكان يحبب النفوس فى الحرية،ويرغبها فى الاستقلال الشخصى ، ليمهد الجيل الى الاضطلاع بأعباء الاستقلال القومى ، ومن هنا جاء استحثاثه الشبان على العمل الحر والاعتماد على النفس ، وترغيبهم عن التواكل والتطلع الى الوظائف ، وله فى ذلك خطب ومقالات عدة ، أهمها خطبته بالاسكندرية يوم ٨ يونيه سنة ١٨٩٧ اذ قال فيها :

« اتركوا الابناء معشر الاباء فى الحياة الحرة ، اتركوهم يخدموا الوطن ويخدموا أنفسهم فى غير دائرة الوظائف ، اتركوهم أحرارا غير مقيدين بقيود الرواتب ، ابعثوا بهم الى الخارج ليدرسوا التجارة والصناعة ، ويؤسسوا فى البلاد المصانع والمعامل ، تزدادوا بذلك شرفا وفخرا ، وتزدادوا أمام الله وأمام الوطن مثوبة وأجرا » .

وكان كثير الحث على الاستقلال الاقتصادى ، قال فى هذا الصدد فى خطبته سالفة الذكر : « اذا أهملت تربية الأمة وبقى الكبراء متعكفين على ادارة شئونهم الخاصة

واســــتمر الآباء يلقون بالابناء الى مهاوى التوظف فى الوظائف ، وبقيت التجارة والصناعة فى كساد ، ودامت الامة فى حاجة الى اســـتجلاب لوازمها الضرورية من غير بلادها ، دام الانحطاط ودام التأخر ودام الخطر » .

بعض كلماته الخالدة فى الوطنية

للفقيد كلمات خالدة دلت على تأصــل الوطنية فى فؤاده وسارت سير الحكم والامثال ، وسنجمع هنا أهمها شأنا ، وأدلها على شخصيته ، مع بيان تاريخ كل كلمة منها :

« أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا »

(سنة ١٨٩٥)

« ان لى روحا هى من نور الحرية الساطعة لا تستطيع الحياة فى ظلمات الظلم والاستبداد »

(من خطابه الى محمد فريد سنة ١٨٩٦)

« انى أترفع عن أن أدافع عن بلادى بالطعن والسباب »

(سنة ١٨٩٦)

« كل احتلال أجنبى هو عار على الوطن وبنيه »

(من خطبته بالاسكندرية يوم ٨ يونيه سنة ١٨٩٧)

« فى الرضاء بالاحتلال الخيانة والعار ، وفى العمل ضد الاحتلال الشرف والفخار »

(من خطبته المذكورة)

« قد يكون الرجل صادق الوطنية فقيرا فى المال ،ولكنه يعيش ويبقى فى التاريخ من أكبر سراة الوطنية »

(من خطبته بالقاهرة يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٨)

« اذا لم نقتطف ثمرة عملنا وجهادنا فى حياتنا ، فاننا على الاقل نضع الحجر الاول لمن يأتى بعدنا »

(من رسالة له سنة ١٨٩٨ الى أخيه على فهمي كامل)

« لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة »

(من خطبته بالقاهرة يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٨)

« الحياة جهاد ، والعمر قصير ، وخير الناس من جاهد فى سبيل بلاده وعمل لخيرها وناضل عن حقوقها »

(من خطبته المذكورة)

« ليست الحرية بعزيزة على قوم يعملون للحصول عليها ويجتهدون فى نيلها ، وليس بعزيز على المصريين أن يفكوا قيود بلادهم ويعيدوا اليها استقلالها ومجدها ، فالصخرة الضخمة تذوب وتتفتت بسقوط المياه عليها نقطة بعد نقطة »

(من خطبته المذكورة)

« الامل دليل الحياة ورائد الحرية »

(اللواء ٨ ابريل سنة ١٩٠٠)

« ان قيام كل رجل حى الشعور شريف الميول بواجباته نحو هذه البلاد العزيزة يرد اليها حريتها ومجدها وعزها »

(اللواء ٢٣ ابريل سنة ١٩٠٠)

« سأستمر بمشيئة الله طول حياتى ، ولو بقيت وحيداً أخطب فى الصحراء وأكتب على صفحات الماء ، ذلك الذى عرف فيه المصريون الخادم الامين للوطن العزيز »

(اللواء ١٣ اغسطس سنة ١٩٠٣)

« الوطنية شعور ينمو فى النفس ، ويزداد لهيبه فى

القلب ، ويرسخ فى الفؤاد كلما كبرت همـــوم الوطن وعظمت مصائبه »

(من خطبته سنة ١٩٠٤)

« ان روحى تتغذى من حب الوطن ، وبغيره لا أسـتطيع الحياة اذ لا قيمة للحياة بغير هذا الحب الرائع العظيم الذى يفيض على المرء كل سلوى وكل سعادة حتى فى شقائه ، وبخاصة فى الشقاء ، حيث لا يجد الانسان القوة والامل الا فى هذا الحب »

(من خطبته سنة ١٩٠٤)

« ما دامت هذه الشعلة الوطنية تغذينى وتؤازرنى فانى لا أهاب شيئا ولا أحدا فى الوجود »

(من خطبته سنة ١٩٠٤)

« من أشق الاعمال أن يجاهد المرء ضد الزمن والحوادث والناس »

(من خطبته سنة ١٩٠٤)

« ســـابقى حتى الممات حاملا لواء الاستقلال ، اذ أجد حياتى فى هذه العقيدة ، وبغير هذه الشـــعلة الوطنيـة لا أستطيع الحياة »

(سنة ١٩٠٤)

« لو انتقل فؤادى من الشـمال الى اليمين ، أو تحـولت الاهرام عن مكانها المكين ، لما تغير لى مبـدأ ولا تحـول لى اعتقاد ، بل تبقى الوطنية رائدى ونبراسى ، ويبقى الوطن كعبتى ومجده غاية آمالى »

(اللواء ١٨ مايو سنة ١٩٠٦)

« ان سلاسل الاستعباد هي سلاسل على كل حال ، سواء كانت من ذهب أو من حديد »

(من كتابه الى السير هنرى كامبل بانرمان سنة ١٩٠٧)

مختارات من خطبته بالاسكندرية سنة ١٩٠٧

« اننا لا نعمل لأنفسنا بل نعمل لوطننا ، وهو باق ونحن زائلون ، وما قيمة السنين والايام فى حياة مصر وهى التى شهدت مولد الامم كلها وابتكرت المدنية والحضارة للنوع الانسانى كله ؟ ان العامل الواثق بالنجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع ، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة ، وسيكون كذلك لا محالة ، فمهما تعددت الليالى وتعاقبت الايام ، وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب غروب ، فاننا لا نمل ولا نقف فى الطريق ولا نقول أبدا : لقد طال الانتظار ».

« اننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا الى أشرف غاية اتجهت اليها الامم فى ماضى الايام وحاضرها ، وأعلى مطلب ترمى اليه فى مستقبلها ، فلا الدسائس تخيفنا ،ولا التهديدات توقفنا فى طريقنا ، ولا الشتائم تؤثر علينا ، ولا الخيانات تزعجنا ، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية ، نعم لو أخذنا الموت من هذه الدار واحدا بعد واحد لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا : كونوا أسعد حظا منا ، وليبارك الله فيكم ويجعل الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات

والالوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطني والحرية الاهلية والاستقلال المقدس ! »

« بلادي بلادي ! لك حبي وفؤادي ، لك حياتي ووجودي ، لك دمي ونفسي ، لك عقلي ولساني ، لك لبي وجناني ، فانت أنت الحياة ، ولا حياة الا بك يا مصر ! »

« انى لو لم أولد مصريا لوددت أن أكون مصريا »

« ان أمة دبت فيها روح الوطنية ، وطمحت نفسها للاستقلال لا تموت أبدا ، وان صواعق السياسة كلها لا تحول ضميرا لاذ بالوطن عن وجهته » .

« نحن مسلوبون ، والانجليز هم السالبون ، ونحن طلاب حق مقدس هم مغتصبوه ، فلا سبيل الى الاتفاق بيننا وبينهم الا باعترافهم بحقنا ورده الينا »

« هل يستطيع مصرى أن يتهور فى حب مصر ؟ مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التى يدعو اليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها ، الا أيها اللائمون أنظروها وتأملوها وطوفوها ، واقرأوا صحف ماضيها ، واسألوا الزائرين لها من أطراف الارض ، هل خلق الله وطنا أعلى مقاما ، وأسمى شأنا ، وأجمل طبيعة ، وأجل آثارا وأغنى تربة ، وأصفى سماء ، وأعذب ماء ، وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ؟ اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد ان مصر جنة الدنيا ، وان شعبا يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب اذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه اذا تسامح فى حقها وسلم أزمتها للاجنبى » .

« قد يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب

مستعبد كالشعب المصرى مما لا يليق بانسان ، ولكن اى شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لاحيـــاء الامة التي سبـــبقت الامم كافة فى العلم والمدنية والادب ؟ أى رفعة يسعى الشريف اليها أسمى من انهاض شعب كان أستاذ الشعوب البشرية ومربى العالم كله ؟ »

« ان مصر جديرة بأن تحب بكل قوة ، بكل عاطفـة بكل جارحة ، بكل نفس ، بكل الحياة » .

« لا قوام لامة ولا سلامة لبلاد الا بقوة العقيدة الوطنية »

« ان من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان »

« الدعوة للاستقلال وبث الروح الوطنية ، هما المؤديان الى تحقيق آمال الامة المصرية ، فليكن معتقـــد المصريين جميعا أن نجـــاة مصر لا تكون الا بهمم المصريين ، وان ارتقاءنا موكول الى عزائمنا ، فلنطلب النهوض من انفسنا ، ولنعمل له بالهمة ، والصدق والاتحاد »

عبقريته ومكانته السياسية

لم يكن مصطفى كامل زعيما وطنيا فحسب ، بل كان زعيما سياسيا ناضج الفكر صادق النظر ، واسع الاطلاع ملما بأسرار السياسة الدولية ، وهذه ميزة له على كثير من الزعماء الذين سبقوه (فى الثورة العرابية) ، أو تولوا الزعامة من بعده ، ويضارعه فى الاطلاع السياسى المغفور له محمد فريد ، فكلاهما درس القضـــية المصرية دراسة عميقة قبل أن يضطلع بأعباء الزعامة ، ولعلك تلحظ أنه

حين عاد الى مصر عقب حصوله على شـــهادة الحقوق من فرنسا ، جاء ومعه صندوق من الكتب المؤلفة فى القضية المصرية ، ليتزود منها بالحقائق والبيانات اللازمة لخدمة هذه القضية .

وظهر بعد نظره السياسى فى المبدأ الذى اتخذه شعارا لدعوته ، وهو الجلاء ، اذ رأى بثـــاقب نظـره أنه الرمز الصحيح للاستقلال التام ، وأن الاستقلال والاحتلال ضدان لا يجتمعان ، قال فى هذا الصدد : « كل احتلال أجنبى هو عار على الوطن وبنيه » ،واطرح المبادىء الملتوية والنظريات الخيالية جانبا ، وخالف الكثيرين من معاصريه الذين كانوا يرون مصانعة الاحتلال والتقرب اليه ، وجعل الجلاء شعارا للحركة الوطنية ، فهو أول من علم الأمة انه صـــخرة النجاة لمصر ، وأن الاحتلال الاجنبى هو مصـــدر العبث باستقلال مصر وكرامتها القومية ، وقد أثبتت الحوادث قديمها وحديثها صحة هذا المبدأ القويم ، لان الاحتلال مهما تكن صفته لا يمكن أن يتفق مع الاستقلال والكرامة القومية

ويبدو بعد نظره فى تجنبه أخطاء زعماء الثورة العرابية، فقد أدرك من دراسته العميقة للمسالة المصرية أن اصطدام العرابيين والخديو توفيق كان من أسباب اخفاق الثورة ، ومن العوامل التى تذرعت بها انجلترا لاحتلال البلاد ،فكان يعمل دائما على ايجاد جو من التفاهم بين الامة والخـديو عباس الثانى ، ويدعو الى تعلق الامة بالعـرش ، ولما وقع الخلف بينهما ، بعد أن جنح الخديو للاستسلام والخضوع للاحتلال ، اجتنب هو الاصطدام به ، حتى لا يتخذ الاحتلال من هذا الاصطدام وسيلة لاضعاف الحركة الوطنية ، أو محاربتها باسم الخديو

وكذلك رأى من الحكمة السياسية توثيق الروابط الودية بين مصر وتركيا ، لكي يتخذ من موقف تركيا وسيلة لمقاومة الاحتلال واقامة الحجة عليه ، وأدرك من مطالعاته التاريخية أن انجلترا كانت تعمل دائما على تعكير العلاقات بين الخديو توفيق والسلطان ، مما أدى الى اطلاق يدها فى مصر ، وأن جفاء العلاقات بين مصر وتركيا فى عهد اسماعيل ، كان من العوامل التى جنحت بتركيا الى خلعه ، اجابة لرغبة انجلترا وفرنسا ، فعمل على اكتساب ود تركيا ، ما دام الاحتلال فى مصر ، لكى يضمن ألا تتفق الدولتان على اقرار الاحتلال كما فعلت فرنسا فى الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ .

أما سياسته بازاء فرنسا ، فقد كان الى ما قبل حادثة فاشودة يتوقع تدخلها لصالح مصر ، ولذلك كان يأمل العون من ناحيتها حتى سنة ١٨٩٨ ، وكل من كان فى موقفه كان محقا فى هذا الامل ، ولكن بعد أن وقعت حادثة فاشودة سنة ١٨٩٨ وتراجعت فرنسا أمام انجلترا ، أدرك ان لا فائدة ترتجى منها ، وجعل الاعتماد على قوة الامة وجهادها أساس الحركة الوطنية ، وأخذ يطعن على فرنسا وسياستها منذ تلك الحادثة ، كتب فى هذا الصدد يقول فى لواء ١٥ مايو سنة ١٩٠٠ : « اننا انتقدنا دائما السياسة الفرنسية وقلنا غير مرة انها لا تليق بحكومة الجمهورية ولولا هذه السياسة العوجاء لما كان انجلترا فى مصر ولما كنا فيما نحن فيه » .

ثم فقد أمله فى عدالة فرنسا خاصة وأوربا عامة منذ

رأى جمود أوربا أمام مأساة « البوير » ، وتركها اياهم يسحقون أمام القوات الانجليزية دون أن تأبه بهم ، قال في هذا الصدد في عدد ٢٨ أغسطس سنة ١٩٠٠ من اللواء « ان المعتمد على أوربا واقف على هاوية عميقة القـرار » وان الوطنية تحتاج الى أسلحة عدة اذا كانت الشـــهامة والفضيلة والاقدام أهمها وألزمها، فالحذر والدهاء والتبصر ضرورية لها بل حيوية لكل أمة تطلب الحيـــــاة أو تريد الزيادة في المجد والســـؤدد ، واذا كانت أمة بلغت من الشهامة وحب الوطن مبلغ أمة البوير وهـــذا حالها مع أوربا فكيف بنا ونحن نحتاج لسنين عديدة وأعمال مجيدة لبلوغ مبلغها والحصول على ما لها من المحامد والمزايا » .

وكتب الى مدام جولييت آدم في رسالة له بتاريخ ٢١ يونيه سنة ١٩٠٠ يقول: « انى لا أجد كلمات تسع اعرابى لك عن استيائى من أوربا والمدنية والانسانية التى قضت بهجر البوير البواسل ! أى عار وأى درس لنا نحن الذين طالما كنا نعتمد على أوربا ! »

فمصطفى كامل قد دعا الأمة منذ سنة ١٨٩٨ الى الاعتماد على النفس فى جهادها ، ومن الخطأ ما يظنه بعض الكتاب أنه ظل يتعلق بالآمال من ناحية فرنسا حتى سنة ١٩٠٤ وهى السنة التى أبرم فيها الاتفاق الودى بين فرنســـا وانجلترا ، فانه على العكس فقد أمله في فرنسا منذ حادثة فاشودة ، ولم يفاجئه الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ ، بل زاده قوة على قوته فى الكفاح والجهاد .

على أنه مع فقدانه الامل فى تدخل فرنســا واوربا فى

المسألة المصرية ، كان يؤمن بقــوة الدعاية ، وأثرها فى احراج مركز الاحتلال وشد أزر الحركة الوطنية ، فكان لا يفتأ يبذل الجهود الجبار ليكسب لمصر الانصار والاعوان فى صحافة أوربا وفى دوائرها السياسية والادبية ، وقد وفق من هذه الناحية توفيقا عظيما يدل على حظ كبير من المكانة الشخصية والمقدرة السياسية ، فليس من السهل على أى انسان مهما يكن كبيرا أن يدرك تلك المكانة التى جعلت الفقيد ينشر مقالاته وأحاديثه فى أهم الصـــحف الاوربية .

لقد كانت كبريات الصحف الفرنســية كالفيجارو والاكلير والطان والديبا وغيرها ترحب بمقالاته وأحاديثه ، وكان ينشر بعضها أيضا فى الصحف الانجليزية ، وكان فى صيف كل عام يقصــد الى أوربا وتنشر له كبريات الصحف الاحاديث والمقالات عن مصر وشئونها ، وتخصص لها مكانا بارزا فى أعمدتها ، وتتناقلها الصحف الاخرى ، وكان لا يحل ببلد الا وتتجه اليه الانظار ليدلى الى الجمهور بآرائه عن الحــركة الوطنية المصرية التى كان زعيمهــا وممثلها فى الداخل والخارج بلا منازع .

ومن دلائل مكانته السياسية أنه لما وقعت حادثة دنشواى اســتطاع أن ينشر مقالته الشهيرة (الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن) فى صدر جريدة (الفيجارو) ، فكانت بمثابة صحيفة اتهام للسياسة الانجليزية فى جريدة من أكبر الصحف العالمية، وفى وقت كانت السياسة الفرنسية متجهة وجهة الاتفاق الودى مع انجلترا ، وهذا يدلك على عظم المنزلة التى نالها الفقيد فى العالم السياسى .

ولما نشرت له (الفيجارو) في سبتمبر سنة ١٩٠٧ كتابه المفتوح الى السير هنرى كامبل بانرمان رئيس الوزارة البريطانية الذى احتج فيه على الاحتلال وطالب الحكومة البريطانية بتحقيق وعودها في الجلاء ، تناقلته جرائد الطان والديبا والاكلير والايكو دى باريس والجولوا وغيرها وعلقت عليه تعليقات تدل على عظم مكانته ، وأنشأت الطان في صدده مقالة افتتاحية قائلة : ان العلاقات الادبية والمادية بين فرنسا ومصر تعادل ما عند فرنسا من الميل والانعطاف نحو المصريين ، وتردد صدى الكتاب فى معظم الصحف البريطانية كالتيمس والستاندارد والديلى نيوز والمورننج بوست والمورننج ليدر وغيرها ونشرته ضمن رسائلها التلغرافية الواردة من مكاتبيها بباريس ، كما رددت صداه شركة روتر فى أرجاء العالم •

وعندما استقال الاستاذ لامبير من منصب ناظر مدرسة الحقوق الخديوية التقى بالفقيد فى فرنسا ، وهو الذى قدمه الى المسيو تارديو مدير جريدة الطان (والذى صار رئيس وزراء فرنسا فيما بعد) لينشر له مقالة عن أسباب استقالته ، وقد نشرت بها فعلا ونشرها الفقيد بأكملها فى الايتندار اجبسيان وذى أجبشيان ستاندرد ، ونشر تعريبها كاملا فى اللواء فى اليوم التالى لظهورها فى الطان وقد ذكر العلامة لامبير هذه الحقيقة فى حديث له بجريدة الجهاد عدد ٨ مارس سنة ١٩٣٧ حين حضر الى مصر لالقاء محاضراته القانونية تلبية لطلب كلية الحقوق المصرية •

وقبلت جريدة الفيجارو الشهيرة أن تنشر ليتندار

اجبسيان كل المقالات التى يكتبها الكاتب الطائر الصيت (بيير لوتى) عن مصر فى يوم واحد معا ، على حين كانت تنقده المبالغ الطائلة على ذلك .

. . .

ولما أوفد الفقيد الى باريس سيد أفندى على أحد محررى اللواء فى بعثة صحفية ليتلقى علوم الصحافة فى مدرسة العلوم السياسية بها ، زوده بكتب توصية الى أقطاب السياسة والصحافة فى فرنسا ، فكان كلما قابل أحدهم وسلمه كتاب التوصية قابله بعناية واحترام ، لاحترامهم شخصية الفقيد ، وقصد الى ادارة جريدة (الطان) ، وهى كبرى صحف فرنسا ومعه خطابان أحدهما لرئيس تحريرها ، والاخر لمحررها الاول ، فلما أخبرهما أنه رسول مصطفى كامل قابلاه بالحفاوة البالغة، وأخذ رئيس التحرير يقدمه الى زملائه مبتسما ، قائلا : « هذا مندوب صديقنا الجليل مصطفى كامل » ، ولما تلا كتابه أقبل عليه وقال : « انى أحب الباشا من أعماق قلبى وأود لو أقوم له بخدمة ولو صغيرة ، فاعلم ان أبواب الطان مفتحة أمامك فى كل وقت وساعة ، وأن أبواب غرفتي لا تغلق في وجهك أبدا ، وقد كلفني رئيسك أن الحقك بمدرستي العلوم السياسية والصحافة ، ومن رأيي أن تقتصر على الاولى ، لانك لا تستفيد من الثانية شيئا ، فاذا أتممت العلوم السياسية فعد الى مصر وتعلم الصحافة فى مدرستها الكبرى التى يديرها مصطفى كامل باشا » . فهذه المنزلة التى نالها الفقيد لدى أقطاب السياسة والصحافة فى فرنسا لا يمكن أن ينالها الا الرجل العظيم

الذى رفعته كفايته الممتازة وشخصيته الفذة الى ذلك المستوى الكبير ، ولا غرو فقد كان معروفا فى أوربا بأنه بطل الاستقلال المصرى ، ويدلك على سمو مكانه فى نفوس عظماء الغرب ان الكاتب الفرنسى الشهير بيير لوتى ، وكان صديقا حميما له وضع كتابا سنة ١٩٠٩ عن مشاهداته فى مصر ، وقدم له بكلمة اهداء إلى روح الفقيد قال فيها :
« الى ذكرى صديقى المجيد العزيز مصطفى كامل باشا الذى استشهد يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ فى ميدان الجهاد الشريف عاملا على رفعة شأن مصر والاسلام » •
وهى كلمة لا تصدر الا عن تقدير عظيم ، من أديب كبير •

سياسته نحو النزلاء

كان شديد الحرص على اكتساب ثقة النزلاء الاجانب واطمئنانهم الى الحركة الوطنية ، وفى ذلك الوقت قال كلمته المشهورة (أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا) ، وقد وفق توفيقا كبيرا فى كسب ثقة الاجانب واحترامهم ، مما كان يبدو أثره فى الصحف الاوربية المحلية ، ولا شك أن ظهور زعيم وطنى شاب مثقف ثقافة أوربية قد أفاد كثيرا فى الدعاية للحركة الوطنية سواء فى أوربا أو فى الاوساط الاوربية المحلية ،ولذلك كان له أنصار وأصدقاء ومعجبون كثيرون من أعيان الجاليات الاوربية ، ومن أقطاب الصحافة والسياسة والقضاء والمحاماة ، وقد كان أول زعيم مصرى سمعت منه أوربا صوت مصر الحديثة ، وكان له من الصحفيين الاجانب فى مصر أصدقاء شخصيون عديدون ، كالمسيو هيكاليس باشا صاحب جريدة القارد الكسندرى ، والمسيو بوشيه صاحب الجورنال اجبسيان ، والمسيو

راؤول كانيفيه مدير جريدة الريفورم ، والمسيو جورج فيسييه مدير الجورنال دى كير وغيرهم •

سياسته الشرقية والاسلامية

كان مصطفى كامل علما على الوطنية المصرية ، وكان فى الوقت نفسه رسول الحرية والجهاد للامم الشرقية ،شديد الغيرة على توثيق عرى الروابط والتعاون بينهما • وكان قوى العقيدة الدينية ، قوى الايمان ، ولقد كانت قوة ايمانه من أسباب رسوخ العقيدة الوطنية فى فؤاده ، قال فى هذا ردا على حملات الصحف الاوربية على الاسلام لمناسبة مقالات هانوتو : « قد يظن بعض الناس ان الدين ينافى الوطنية ، أو أن الدعوة الى الدين ليست من الوطنية فى شىء ، ولكنى أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان، وان الرجل الذى يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبا صادقا ويفديه بروحه وما تملك يداه » •

ويبدو اتجاهه الى تقوية الروابط بين الشعوب الاسلامية من اصداره جريدة أسبوعية باسم « العالم الاسلامى » كان ينشر بها كل ما يهم الاسلام من المقالات والانباء •

وكتب فى جريدة « الطان » الفرنسية ــ عدد ٨ سبتمبر سنة ١٩٠٦ ــ مقالة ردا على مقالة نشرتها عن الجامعة الاسلامية قال :

« لقد فسرت كلمة الجامعة الاسلامية فى أوربا تفسيرا لا يتفق ومعناها الحقيقى ، وانى أعيد هنا ما كتبته فى (الفيجارو) و (اللواء) وما قلته فى كل مكان من أنه لا يوجد مسلم متنور يعتقد لحظة واحدة أن الشعوب

الاسلامية يمكنها أن تؤلف عصبة ضد أوربا،واني أتساءل: من الرجل العاقل السليم الادراك الذى يصدق امكان تغلب الشعوب الاسلامية على كافة الدول الاوربية ؟ ٠ان الحقيقة الساطعة الخالصة من كل شيء هي أن حـركة الجـامعة الاسلامية بالمعنى المقصــود منها فى أوربا - أى الحرب الدينية - لا وجود لها بالمرة ، لان المســلمين أدركوا من زمان بعيد انه يستحيل على أى أمة أن تعيش فى معزل عن العالم ، وان الامة التى تحاول ذلك تقضى على نفسها بالموت أما الشــعور الموجود حقيقة وبلا نزاع عند الشــعوب الاسلامية كافة فهو شعور انعطافها وحنانها لبعضها البعض

فكم مســلم يرغب من صميم فؤاده أن يرى أبناء دينــه معاملين أحسن من المعاملة الحالية ، ومعتبرين كجزء حي من الانسانية ، ومحترمين فى كل مكان ومن كل انسان ٠ وانه لما كان لتأخر الشعوب الاسلامية أســباب واحدة ، فان نهضتهم تكون بوسائل واحدة ، وان هذه النهضـــة لا تصير حقيقة تشاهد بالعيان بفضل أوهام تأليف عصبة اسلامية ضد المسيحية ، بل بالتعليم والنور ، وبمــا ان الاسلام ليس عقيدة دينية فقط بل هو قانون اجتماعى ، فان احياء الافكار ونشر المعارف لا يتمان الا باظهساره على حقيقته ، وان ميل كل مسلم لابناء دينه أمر طبيعى وشرعى ولا يوجد رجل منصف ينتقد ذلك الميل ، أما عن تهمـــة

التعصب الاسلامى المزعوم فى مصر فانى أؤكـد ان بلادا كثيرة فى أوربا تعرف التعصب العنيف الممقوت ، فى حين أن مصر لا تعرفه ، فليس عندنا أحزاب ضد اليهود ، ولا اشتراكيون ولا فوضويون ، ولا شيء من تلك الفرق التى يأكل بعضها بعضا » ٠

مقدرته الخطابية

هو أعظم خطيب أنجبته مصر الحديثة ، وأول خطيب سياسي جهر بالاستقلال في عهد الاحتلال ، وأول زعيم اتخذ الخطابة وسيلة لبعث الحركة الوطنية ، ولا شك أن الحركة الوطنية مدينة لخطبه الجليلة الرائعة في ظهورها واتساع مداها ، وكانت هذه الخطب من الحوادث الهامة في تاريخ الحركة القومية ، كان خطيبا مفوها ، يجيد الخطابة باللغتين العربية والفرنسية ، والخطابة بعد الوطنية كانت أبرز الجوانب في شخصيته ، كان اذا جلس في محفل خاص وتكلم مع الحاضرين يدوى صوته كأنه يلقى على السامعين خطبة من خطبه الرنانة ، كان جهوري الصوت ، يتكلم من أعماق قلبه المملوء يقينا وايمانا ، وكان له سلطان روحي على من حوله من السامعين أو المخاطبين ، وقد بدأت مواهبه الخطابية في الظهور وهو بعد في المدرسة الثانوية اذ كان يخطب في جمعية الصليبة الادبية وجمعية الاعتدال بمدرسة الامريكان ، فكان يسترعي الانظار بفصاحة لسانه وصوته الرنان ، وقد اختار مدرسة الحقوق « لانها مدرسة الكتابة والخطابة » كما يقول في خطابه الى شقيقه في ١٢ يوليه سنة ١٨٩١ ، مما يدلك على ميوله الخطابية وهو في هذه السن المبكرة ، وانك لتلمح مقدرته الخطابية في بداية حياته الوطنية من قول علي مبارك باشا له سنة ١٨٩٠ وهو بعد طالب في المدرسة الثانوية : « انك امرؤ القيس » ومن وصف الاستاذ محمد مسعود اياه سنة ١٨٩٦ بخطيب مصر المصقع ، وأنه الذي اذا ارتقى منبر الخطابة ذلل له

القول وسخر له الخطاب ، وتابعه الكلام متفق القرائن مطرد السياق ٠

وقد كان في مواقفه الخطابية الكبرى يضع خطبه ويكتبها ، ولكنه كان يلقيها على السامعين دون أن يقرأها، وكان له من قوة الذاكرة المدهشة ما يغنيه عن الرجوع الى التلاوة في خطبه،وكانت مقدرته الخطابية باللغة الفرنسية لا تقل عنها في خطبه العربية ، ولذلك نال اعجاب الاوربيين ممن سمعوه يخطب بالفرنسية ، وكان هذا الاعجاب من أسباب علو منزلته السياسية والاجتماعية في أوربا وبين النزلاء الاوربيين في مصر ٠

مقدرته الصحفية

هو من عباقرة الصحافة في مصر والعالم ، خلق صحفيا بفطرته ، فأسس مجلة المدرسة وهو بعد في المدرسة الثانوية ، فكان أول طالب مصرى مارس الصحافة ، كما انه كان أول طالب خطب في الوطنية ، وقد أولع بمراسلة الصحف في هذه السن المبكرة ، وكتب في كبريات الصحف ، من مصرية وأوربية قبل أن ينشىء اللواء ، ولما أنشاه سنة ١٩٠٠ بعث في الصحافة روح التجديد والنشاط ، فكان اللواء نموذجا للفن الصحفي ، متنوع المقالات والابحاث والانباء ، وكان أول ما صدر في أربع صفحات ، ثم ما زال يرقى به حتى جعله في ثمان ، بعد أن استحضر له من أوربا آلة للطباعة الكبرى (روتاتيف) وكان يفيض بالانباء البرقية الواردة اليه من الخارج على يد مراسليه ، فضلا عما كان به من رسائل كبار الكتاب في مصر وأوربا ، وصار كما قالت (الاجبشيان جازيت) « أكثر الجرائد العربية انتشارا ليس في مصر فقط بل

في جميع العالم على الارجح » • ولم يكتف باصدار اللواء اليومي ، بل اصدر الى جانبه « مجلة اللواء » الشهرية ثم جريدة العالم الاسلامي سنة ١٩٠٥ •

وبلغت مقدرته الصحفية أوجها حين أصدر جريدتي ليتندار اجبسيان وذي أجبشيان ستاندرد اليوميتين ، فكان يصدر ثلاث صحف يومية كبرى ، بثلاث لغات مختلفة ، وهي مهمة تنوء بها العصبة أولو القوة من الرجال والجماعات ، وقد كان يشرف بنفسه على تحريرها وادارتها ، وتتمشى روحه في كل كلمة منها ، بحيث لم يؤخذ على أية صحيفة منها انها نشرت يوما مقالة أو نبذة تخالف روحه ومذهبه •

وكان للايتندار اجبسيان وذي اجبشيان ستاندرد محررون اختارهم الفقيد من صفوة الكتاب الفرنسيين والانجليز ، ومراسلون في باريس ولندن يرسلون اليهما تلغرافيا خلاصة ما ينشر في الصحف الاوربية عن مصر في حينه ،فكانت الالوية الثلاثة تطالع قراءها يوميا بكل مايهم مصر في الخارج •

ولما نشرت « الديلي تلغراف » حديثا للخديو عباس الثاني في مايو سنة ١٩٠٧ ، عقب استقالة كرومر علم به الفقيد تلغرافيا من مراسل ذي اجبشيان ستاندرد في لندن ، فطلب اليه أن يوافيه بنصه حرفيا ، فجاء نصه بالتلغراف في ١٤٤٥ كلمة ، وكانت هذه أول مرة في تاريخ الصحافة المصرية والشرقية جاء فيها تلغراف بهذا الطول وهذه الاهمية •

وقد بلغ من تعلق الفقيد بترقية الصحافة ورفع شأنها أن أوفد بعثة صحفية الى أوربا فى اكتوبر سنة ١٩٠٧ لدراسة فن الصحافة واتقانه ، وبدأ بارسال سيد افندى على ـ أحد محررى اللواء وقتئذ ـ الى باريس ، وانتظم فى نفقة اللواء فى سلك مدرستى العلوم السياسية وفن الصحافة بباريس لمدة ثلاث سنوات ، ولكن لم يطل مكثه هناك لمرض اعتراه ، وقد عرض على الفقيد فى تلك السنة ، وكنت اذ ذاك طالبا بمدرسة الحقوق أن يوفدنى فى هذه البعثة الصحفية بعد حصولى على شهادة الحقوق، فقبلت هذه الثقة شاكرا ، ولكن المنية عاجلته قبل تخرجى من المدرسة .

كان مصطفى يتولى عمله الصحفى المنهك ، الى جانب اشرافه على ادارة مدرسة مصطفى كامل ، والى جانب خطبه الرنانة التى كان يلقيها من آن لآخر ، وأحاديثه ومقالاته فى كبريات الصحف الاوربية ، واطلاعه على الصحف والمؤلفات التى تكتب عن مصر وعن المسائل السياسية الكبرى العالمية ، والى جانب ذلك يجتمع باصدقائه وأنصاره وتلاميذه ، ويفيض عليهم من أحاديثه وتعاليمه ما يملأ نفوسهم وطنية وايمانا ، وكان اذا خلا الى راحته يكتب الرسائل الخاصة الى كبار السياسيين والكتاب فى أوربا ، مما لو جمع لصار عدة مجلدات ، وقد جمع شقيقه على فهمى كامل رسائله الى مدام آدم ، فجاءت كتابا قيما ممتعا ، كان الفقيد يضطلع بهذه الاعباء كلها مجتمعة بهمة وكفاية ومقدرة منقطعة النظير .

فضله على الحركة الوطنية

هو رسول الوطنية والحرية لمصر والشرق جميعا ، وان قيامه ضد أكبر دول الاستعمار وهي في أوج قوتها لهو مثال خالد للبطولة والاخلاص والتضحية ، جدير بأن تحتذيه الامم الشرقية في جهادها للحرية والمجد ، وقد بينا كيف انه كان باعث الحركة الوطنية الحديثة وموجدها فلا نعود الى هذا البيان . ولقد ظهرت هذه الحقيقة رائعة يوم الاحتفال بجنازته ، اذ كانت اجماعا من الامة على الاعتراف بأن الحركة الوطنية هي غرس جهاده المتواصل طوال سني حياته ، وسندعم هذه الحقيقة هنا بأقوال معاصريه في مصر ، وفي الشرق والغرب ، فان هذه الاقوال تسطع منها شخصية الفقيد العظيم .

قال المغفور له الشيخ علي يوسف صاحب « المؤيد » في رثائه :

« كان في عمله كقائد الجيش يسير به الى ميدان القتال للحياة الفاخرة ، أو للدار الآخرة ، ذلك كان مبدأ صديقي القديم ، وهذا شأن رصيفي العظيم ، فكان من مبدئه يافعا الى أن صار في الرابعة والثلاثين رجلا كاملا ، مثال الهمة الشماء ، والذكاء والعزيمة ذات المضاء ، والحركة الدائمة التي لا تني ولا تنثني ، ذاهبا في طريق الآمال ينشد لوطنه الاستقلال ، فاليك أيها الصديق القديم ، والرصيف العظيم ، تحية محزون يعرف لك أكثر من كل انسان خدمتك العظيمة التي خدمت بها وطنك ، فأيقظت من شعور المصريين ما قامت مظاهرات الامس أكبر برهان على

بمقدار ما كان فيه من أحسن أثر ويد بيضاء ، وبقدر جهادك العظيم فى أوربا فى سبيل الدفاع عن حقوق الامة المصرية حق قدره ، وانى لمصر أن تجد بعدك صـوتا عاليا اذا قال أسمع أوربا بأسرها وتردد صداه فى الخافقين ؟ • بل انى لمصر بمن يملك احساس شـبيبتها كما كنت تملك ، ويستفز شعورها كما كنت تستفز ؟ • والامة فى حاجـة كبرى الى تنمية مثل هذه العواطف الشريفة » •

وقال المرحوم مرقس حنا باشا (عضو الوفد المصرى) فى حفلة تأبينه :

« ان العظمة والمهابة التى أحاطت بنعش المرحوم مصطفى كامل باشا يوم ١١ فبراير المنصرم ذات دلالة صادقة أكيدة على أنه لم يكن صديقا لفريق من المصريين ، بل كان صديقا لجميع الوطنيين على السواء ، بكاه كل ساكن من سكان هذا البلد ، لانه قضى حياته كلها فى بث روح الوطنية الحقيقية بين أهله وقاطنيه ، بكيته أنا شخصيا لانى عرفته مثـالا للرجولة والشهامة والصداقة بكل معـانى الكلمة ، كان الرجل شفاء لغلتنا ، وأرواء لظمئنا ، جئت أقول لكم كلمة واحدة هى حياة مصـطفى كامل كلها •• ان الامة نمت وسمت وتفارست أغصانها حول جذع واحد هو مصر ، هو الوطن العزيز ، تلك الحقيقة التى لا ريب فيها ، الفخر فى احيائها راجع الى مصطفى كامل باشا » •

وقال الشيخ مصطفى القاياتى فى مارس سنة ١٩٠٨ :

« وهذه الحياة القومية المدهشة والنهضة المصرية الفائقة انما هما أثر من أثاره ، ونتيجة من نتـائج أعمـاله ، سيتوارثها الابناء عن الآباء ، وتبقى ما بقيت صـفحات التاريخ » •

وقال سعد زغلول في خطبته بفندق شبرد يوم ٢٠ ابريل سنة ١٩٢١ : « اعلم ان البلاد تصبو الى الاستقلال وأن حركتها الاستقلالية بدت من زمان طويل ، خصوصا من يوم أن ظهر فيها المرحوم مصطفى كامل وتلاه المرحوم محمد فريد ، هؤلاء الذين أسسوا وأيدوا ما أسسوا في النهضة الحاضرة »

وقال في خطبته بالسرادق يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣ « لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم ، لا أقول ذلك ولا أدعيه ، بل لا أتصوره ، انما نهضتكم قديمة تبتدىء من عهد مؤسس الاسرة المالكة محمد على ، وللحركة العرابية فضل عظيم فيها ، وكذلك للسيد جمال الدين الافغاني وأتباعه وتلاميذه أثر كبير ، وللمرحوم مصطفى كامل باشا فضل غزير فيها أيضا ، وكذلك المرحوم فريد بك »

وقال الاستاذ اخنوخ فانوس من خطبته في حفلة تأبينه :

« انه انهض روحا شريفة عامة بين طبقات وعناصر الامة المصرية ، روحا وطنية شريفة ، بل زاهرة عابقة نمت وعلت فوق هذه الاشواك المذهبية بناموس الرقى ، فما مات حتى أطلقت عبيرها بين الملأ فانعشت كامن الحب القوى الوطني الطبيعي ، وكشفت في مصر عن حلقة وطنية صحيحة شريفة » .

وقالت « الاهرام » في رثائه ـ بقلم الاستاذ داود بركات :

« ذهب (فتى مصر) . فكل قلم (مصرى) ، ككل لسان مصري ، وقف اليوم على تأبينه ورثائه ومات مصطفى

كامل ، فالامة التي كانت أقواله وسياسته وأفكاره شغلها الشاغل ، هي الآن رهن الفجيعة به ، والمصـــاب بفقده ، بل ان أقلام خصومه الحادة التي كانت تتنــاوله كل حين بالغمز ، وكل آونة بالتجريح واللمز ، هي اليـــوم أمام نعشه خاشعة تقطر بالرثاء ، بعد أن أتأدت ، والداء يفت في جسمه ، لا تقلق مضجعه ولا تشوك سريره ، بل هي اليوم مثلها بالامس ، تعرف انها كانت تنازل في منازلته فكرا يؤلف به الافكار ، لا شخصا في عقر الدار ، ومذهبا في السياسة هو صدى آمال أمة عظيمة ، لا مذهبــا في العمل ينحصر في دائرة ضيقة ، فلو لم يكن في مصر قوة ما جردت عليه قوات ، ان الطريقة التي كانت عنوان عمل مصطفى كامل هي الحرية في القول ، والمجاهرة بما يضمر والتذرع بالشجاعة في العمـــل ، لانه لا يميت الحقـــوق في الامم مثـــل الجبن عن المطـــالبة بها ، أو التطـــوح الى ما وراء الغاية من الشجاعة ، فحسبه مجدا ان يسجل له في تاريخ أمته تلك الشجاعة وتلك الحرية ، بل حسبه أن يكـــون مثالا للناشئة ، فهو أكبر معلم بما عمل » .

وقالت مدام جولييت آدم في مقدمة كتـــاب رســـــائل الفقيد اليها :

« ان في نشر رسائل صديقي وابني مصطفى احياء له بعض الشيء ، على أن مواطنيه لذكره لحافظون . هل مات مصطفى ؟ كلا ! . لان أعماله وكتاباته وأقواله حيـــة في أعماق قلوب انصاره ومحبيه ، وهو يحيا في تلك الشبيبة المصرية التي أخرجها من الظلمات الى النور ، ووقف نفسه على مستقبلها جسما وروحا ، لقد صار من رجال التاريخ،

وهو حي في شخص الكل ، والكل حي في شخصه ، وما يجيء من الحوادث لن يغير شيئا من صورته وعنوان مجده ، وان الفخر في تحقيق آماله حين تتحقق يعود عليه ويرجع اليه كله ، لانه لا شيء ينقص من فضل أول باعث لفكرة استقلال مصر . لقد قامت عند وفاة مصطفى كامل مظاهرات لم يصدر من أمة أخرى أعظم منها ، وقد صار عمله كله حيا في قلب كل مصرى ، لان كل مصرى يفهم أن مصطفى كامل قد أحيا مصر اذ نفخ فيها من روحه ، وعندما كان يقول متباهيا بلسان المغرم : (أمتى) .. لم يكن يقولها بلسان الملك عن رعاياه ، بل كان يحيى في نفسه بلاده ووطنه ، وكان يحيا معهما ، لانه كان يحب أمته حبا لا يقوى عليه الموت !

« وان ما اخترته من رسائله لدال على انه جدير حقا بلقب (الوطنى) الذى أسبغته عليه أمته في كل شيء : الخطيب الوطنى ، ورئيس الحزب الوطنى ، ومثل هذا اللقب أعظم فخر يطمع فيه خادم الوطن ، لقد كان مصطفى كامل يقول ان هذا اللقب يحييني بحياة بلادى كلها وهو جزائي الاعظم ، واليوم يبعثه هذا اللقب حيا في نفس كل وطنى مصرى » .

وقالت جريدة « الديبا » الفرنسية الشهيرة في ابريل سنة ١٩٠٨ :

« ان مصطفى كامل لم يوقظ أمته فقط وانما رباها أيضا ، بل يمكن القول بانه هو الذى أنشأ الروح المصرية من العدم ، لم تكن مصر قبله الا قسما من الاقسام الجغرافية

ولم يكن سكانها الا فرقا منقسمين بعوامل الجنس والدين متفرقين شيعا على قدر ما فى مصر من الاديان وما كان فيها من اختلاف المذاهب والمشارب والمطامع ، لقد تولى محمد على شئون مصر ، فبعد بذله الجهد الجهيد نصف قرن من الزمن تمكن من انشاء جنسية مصرية ممتازة عن الجنسية العثمانية ، ولكنه لم ينشىء أمة مصرية . أما مصطفى كامل فقد خرج من بين هذه الجموع المتنافرة المتخاذلة التى لم تعرف معنى التضامن القومى ولم تتذوق نعمة الوحدة الوطنية ، وكان أول من نطق بنداء الوطن ، نطق بهذا النداء ولم يكن قد تجاوز عشرين عاما ، ثم ما زال يبث هذه الفكرة السامية والروح الشريفة مدة اربعة عشر عاما متتالية ،تارة بالصحافة وطورا بالخطابة ،وأخرى بالمدرسة ظل يبث هذه الفكرة بجهد عظيم أضعف صحته وقرب منيته . لقد أنشأ مصطفى كامل الوطن المصرى ، فهو بذلك قد أتم أشرف عمل أدبى يخلد له الذكر الحسن على مر الاجيال ، وأضاف الى هذا العمل الادبى عملا سياسيا ، هو السعى فى تحرير مصر من رق الاحتلال الانجليزى وجعلها أهلا لهذا التحرير ، فعمل مصطفى كامل كان اذن أدبيا وسياسيا معا » .

ووصفه الكاتب الفرنسى (لويس برتران) فى مجلة العالمين ، وكان قد زاره وهو فى أوج مجده ، قال :

« قصدت شيخ الوطنيين مصطفى كامل باشا وزرته فى داره ، وكانت مدام جوليت آدم قد أعطتنى كتاب توصية إليه ، فاستقبلنى رئيس الحركة الوطنية ومدير سياسة

جريدة اللواء فى غرفته بادارة الجريدة ، فأحسن وفادتى وأكرمنى ، دخلت غرفة الرئيس فعرتنى دهشة ، لانى — وان لم أكن انتظر أن الاقى شيخا عربيا ذا لحية بيضاء — كنت أحسب انى ملاق رجلا كبير السن قوى الجسم ساكنا كما هو المعهود فى الطبقة العالية من المسلمين ، نعم عرتنى دهشة لانى وجدت فتى شديد العارضة ، عظيم النشاط لا يدل ظاهره على أن عمره يتجاوز الخامسة والعشرين ، مع أنه فى الحقيقة قد بلغ الثانية والثلاثين ، رأيت رجلا صغير الجسم ، شاحب اللون خفيف اللحم ، تدل ملامحه على انه رجل رقيق عصبى المزاج ، لكنه مع هذا الجسم الضئيل كان جهورى الصوت خطيبا فطريا ، فكلمنى عن شىء من تاريخ حياته ، ومن عجيب ما لاحظته انه بالرغم من حبه وبغضه كان يحكم على الناس بفراسة عجيبة من غير أن تخدعه صلة النسب أو رفعة الرتب ، ثم انه فوق ذلك خبير بدخائل السياسة الاوروبية كل الخبرة ، وبالرغم من انى كنت واياه وحدنا فى غرفته،فانه كان يخاطبنى وكأنما هو يخطب فى جمع عظيم ، ومن مزاياه العجيبة أن له تأثيرا فى النفوس يضطرها الى الاقتناع بما يقول حتى انى لم أتركه الا وقد انقسم فؤادى بين الميل الغريزى اليه ، وما سمعته من قبل من خصومه ، على انى كنت شديد الرغبة فى مقابلته مرة ثانية • قابلته مرارا وتحادثت معه كثيرا ، فعرفت فيه السياسى الحكيم الذى يعرف كيف يستخدم الظروف والفرص ، وكيف يلين وكيف يقسو ، وكان من رأيه الا يعتمد على أوربا الا قليلا ، وان الثورة الحربية

جنون ، وكل عمله ينحصر في تقوية روح الوطنية والاتحاد بين مواطنيه ، والمقاومة السلمية ، وكان يحتقر مدنية لا غاية لها الا الرقي المادى دون عناية بتحرير النفس أدبيا فما كان أجمل جهاد ذلك الشاب المخلص الذى نصب نفسه لمحاربة خصم قوى عنيد مع أنه لا سلاح له الا قلبه ولسانه ! »

وقال السيد على ماهر رئيس مجلس الوزراء الاسبق فى حفلة ازاحة الستار عن تمثال الفقيد سنة ١٩٤٠ :

« جئنا لنحيي تمثال مصطفى ، فلنقف هنيهة خاشعين أمام الذكرى .

« كلما ذكر مصطفى ، ظهر اسمه فى هالة من المجد ، وانتشر ذلك النور الساحر الذى يملأ النفوس رهبة واجلالا

« فى هذه الساعة يطيب لنا أن نجتمع فى ظل المبادىء التى أفنى نفسه وجسمه فى سبيلها ، فى ظل الاخلاص الذى مات عليه فأحيى أمته ودفع شبابها الى ميادين الكفاح والعلا .

« نجتمع أمام ذلك التمثال الذى يحرك النفس وهو صامت ، لان جلال التاريخ وجلال الذكرى فى شخصه يلتقيان .

« كان مصطفى أول من حمل لواء الحرية بعد أن طوى زمانا وكان أول من صاح تلك الصيحة فى طول البلاد وعرضها ، صيحة التضحية ، صيحة الحرية ، صيحة الحب ، صيحة الحياة .

« نقرأ اليوم خطب مصطفى فلا نرى فيها أثر البلاغة والتنميق ، وذلك أن بلاغته كانت روحانية بلا جسم ،

ليست بحاجة الى صلة او سبب مادى لتصل الى النفوس وجوها .

« ذلك ان حياة مصطفى قصيرة ، لم تكن كحياة غيره من الزعماء والقادة ، سلسلة أعمال توصف وتحلل ، وانما كانت هذه الحياة كلها ، التى تعلو على كل حصر وتحليل ، صوتا يخيل الى سامعيه أنه يهبط من السماء ، صوتا كصوت الماضى ، رن فى الوادى فانتبه ، ولا تزال اصداؤه تتجاوب وتمتد بعد الموت .

« كان مصطفى يجمع بين أقدام الشباب وأتزان الكهول فى الفكر .

« وهذه المبادىء التى استمدها من وحى الوطن واتخذها شعارا لجهاده قد دلت التجارب والمحن على أن راسمها كان بعيد النظر سليم التفكير .

« كان مصطفى مقداما ، يخلق الحماسة ويتعهدها لانه يعلم أن الحماسة فى حياة الامم تنزل منها منزلة الروح من البدن وان الشعب اذا غابت عنه الحماسة غابت عنه الحياة ، فكان يعمل ليله ونهاره كاتبا وخطيبا على تغذية العاطفة الوطنية وايقاظ الجماهير التى يجذبها بشخصه وايمانه وشجاعته .

« كان مصطفى يحمل فى قلبه صورة الوطن الحى انى سار أو أقام ، فكان قلبه مقتدرا على جمع القلوب ، تخفق كلما خفق ، وتشاطره حمل السراء والضراء ، وكان الشباب — شباب الوادى وعدته — جنوده المجندة تأتلف وتلتف حول لوائه ، وكان هو قائدها وهاديها .

« كان مصطفى شعلة ذكاء وحماسة ، وكان خير محام عن خير قضية ، وكان فى دفاعه يهب لنصرة الحق والعدل، وكان جلدا على الكفاح ، لا يبرح يناضل حتى يصرع الباطل ويرمى السهم فى مقاتله .

« وقد صبر وجاهد واحتمل الاذى فى سبيل مصر ، فى سبيل النيل وواديه ، فى سبيل القرى والمدائن الجاثمة فى حضن الوادى ، فى سبيل ذلك الافق الضاحك بين جنات النخيل والاعناب ، بين هزج السواقى وأغانى الفلاح

« وقد تغلغل حب مصر فى فؤاد مصطفى ، لان حبه كان صادرا عن عاطفة وعقل وعلم ، وكان ذلك الحب لا تشوبه شائبة من مطمع فى مادة أو جاه .

« كان مصطفى مصريا صميما يحب مصر وفلاح مصر حافظ كيانها .

« ذلك الفلاح الذى هو نحن وانتم ، الذى هو مصر من طيبة الى الفسطاط والقاهرة ، والذى طبع البلاد بطابعه ، والضمت كتلته على الغزاة ، فأفنت شخصيتهم فى ثناياها

« وقد كان المصريون فى أدوار تاريخهم سلسى القياد لكل زعيم يخرج من صفوفهم ، ويعرف كيف يسوسهم ، ويتخذ لنفسه نقطة ارتكاز فى قلوبهم وفى صميم احساساتهم وعواطفهم ، وفى شجاعتهم وايمانهم ، وفى أرضهم ولغتهم ، وقد ولد مصطفى فى مصر ، ومس جلده بأرضها الغراء طفلا ، ونشأ حرا ، وعاش حرا .

« وها نحن أولاء نقف أمام تمثاله ويخيل الينا أن الحياة تدب وتتوثب فى كل ذرة ساكنة منه ، وان وراء هذه المادة

قوة خفية تدفع الشعب الى غاياته الكبرى •

« مات مصطفى فكان موته أول شاهد على تغلغل الروح الوطنية في مختلف الطبقات ، وأول دليل على أن في هذه الامة قوة بل قوى حيوية كامنة ، اذا وجدت من يحركها ويتعهدها ، أتت بالمعجزات •

« فلنتذكر مصطفى ، ولنطف بتمثـــاله ، ولنأخذ من موته معنى الحياة والحرية والامل » •

فضله على الوحدة الوطنية

ان الفقيد هو أول من أسس الوحدة الوطنية وجعل لواء الوطنية يضم المسلمين والاقباط على السواء • كثيرون من الكتاب ينسبون هذا الفضل الى سعد زغلول ، وهذا خطأ تاريخي واجحاف لا مسوغ له ، والحقيقة ان مصطفى كامل هو صاحب الفضل في تأسيس هذه الوحدة ، اعتبر ذلك في اصطفائه الاستاذين ويصا واصف ومرقص حنا ، وهما من خيرة الوطنيين الاقباط ، وضمهما الى الحركة الوطنية، فكانا من أكبر أنصاره وأعوانه في الجهاد ، وقد كان في خطبه ومقالاته يدعو الى ارتباط المسلمين والاقبـــاط في الجهاد الوطني •

قال في خطبته بالاسكندرية يوم ٨ يونيه سنة ١٨٩٧:

« ان المسلمين والاقباط شعب واحد مرتبط بالوطنيـة والعادات والاخلاق وأسباب المعاش ، ولا يمكن التفـريق بينهما مدى الابد » •

وقال في خطبته بالاسكندرية يوم ٢ يونيه سنة ١٩٠٠:

« كيف يستطيع رجل وطنى أن يدعو للشقاق والبغضاء وهذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة ، فالاقباط اخوة لنا فى الوطن تجمعنا بهم أشرف رابطة ، وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وأكمل اتفـاق » . وتبـدو هذه الروح الوطنية فى كل أقواله وأعماله .

وليس أبلغ فى الدلالة على أنه الموجه للوحدة الوطنية من شهادة المرحوم مرقص حنا (باشا) فى حفلـة تأبينه يوم ٥ مارس سنة ١٩٠٨ ، اذ قال عنه :

« ليس الابطال قائدى الجيوش والقابضـين على دفة الاساطيل ؛ انما الابطال هم اولئك المتمسـكون بالمبـدأ القويم وأهدابه ، الدائبون على السير فى سـبيله ، حتى رفعوا قومهم الى أوج الرقى والعلو . سار الفقيد فى سبيله هذا ثابت الجأش شديد المراس ، لا يلوى على أحـد ولا يقف به أمر ، حتى فاز كما نوى ، وأراد فكون الوحـدة الوطنية ، وأرانا طريق الاخاء والحرية ، وهدانا الى السعادة الحقيقية ، رسم لنا طريق الوفاق والتآلف ، طريق الحرية والاستقلال ، وهذا الجمهور العظيم الذى نراه اليوم التف حول قبره وقد ضم بينه جميع العناصر المصرية يقول لكم بافصح لسان وأجلى بيان وأقوى حجة وأعظم بلاغة : (ان التآلف بيننا أصـبح قاعدة ثابتة .. ان الشـبيبة المصرية لا تعرف غير أنها الشـبيبة المصرية ، والا واجب عليهـا سوى خدمة مصر والمصريين بلا تخصيص ولا تقسيم .. هذا بناء مصطفى كامل ، هذا عمل مصـطفى كامل ، وقد

بدا لنا جنى ثمره من الآن ، لان الاتحاد هو السلم الاول للوصول الى الحرية والاستقلال »

تضحياته

سيظل اسم مصطفى كامل علما للوطنية المنزهة عن الاهواء ، ومثالا للاخلاص والتضحية لا يمحوه الزمان ، وتبدو روح التضحية فى تاريخه من الطريق الذى سلكه فى الحياة ، لم يسلك الطريق السلطانى الموصل للرخاء والراحة ، والابهة والجاه ، ونعنى به طريق المناصب ، ولو انه اختاره كما فعل معاصروه لبزهم جميعا بذكائه وكفاءته ونشاطه ولضمن لنفسه ولأهله وذويه طبقة بعد طبقة رغد العيش ، والثروة الطائلة والمراكز الممتازة . ولكنه على عكس ذلك ، اختار الطريق الشائك ، طريق الجهاد ضد الاحتلال وضد الحكومة معا ، ولم يكن هذا الطريق ليجلب لصاحبه نفعا ولا جاها ، بل هو طريق العقبات والمصاعب ، والجهد والحرمان ، فهذا الاختيار فى ذاته يدلك على مبلغ مافطرت عليه نفس الفقيد من الاخلاص والتضحية ، والعمل لوجه الله والوطن فقط ، وفى ذلك يقول فى محاجة خصومه سنة ١٩٠٠ : « يمكننى اليوم أن أقول أمام الملأ كله انه لا يستطيع انسان فى العالم ان يدعى انى خالفت مبدأ من مبادئى لحظة واحدة ، مع تغير الظروف وتقلبات الاحوال ، وموت الآمال عند كثير من الرجال ، ولا يوجد من يقول انى عملت ما عملت طمعا فى عز أو ثروة ، لان الطامع فيهما لا يقف موقفى ، ولا يجاهد ضد الاحتلال ، تحت سماء مصر ، ولا يخطب ضد المحتلين

حتى فى الوقت الذى كان أخى فى قبضتهم يعاملونه بالذل والاستبداد ويذيقونه انواع العذاب وصنوف البلاء ، ويهددونه بالموت والاعدام فى كل آن » •

لقد ضحى اذن بمنافعه وراحته ومصالحه الشخصية ، فى سبيل حياة الجهاد التى اختارها لنفسه ، ولم يتحول عنها طول حياته ، كما ضحى بمصالح أقرب الناس اليه وأعزهم عليه •

ذلك أول مظهر للتضحية فى تاريخه ، وهناك التضحية الكبرى التى تتضاءل بجانبها كل تضحية ، وهو بذله حياته وشبابه فى سبيل مصر •

فقد رأيت مما بيناه كيف كانت جهوده أقوى مما تحتمل صحته ، ذكر المرحوم محمد فريد انه رافقه فى سفره الى باريس ولندن فى شتاء سنة ١٩٠٦ ، لاختيار محررى جريدة ليتندار اجبسيان وذى اجبشيان استندارد ، وان المرض عاوده أثناء تلك الرحلة ، ولزم الفراش بباريس عدة أيام عاده فيها الدكتور روبان الطبيب الشهير ونصح له بحضور فريد بك بعدم اجهاد قواه فى العمل وان يترفق بصحته فلا يحملها فوق طاقتها من العناء ، ويترفق كذلك بأمته فلا يحرمها جهوده حتى يتم مهمته التى وقف حياته عليها ، قال فريد بك : « ولكن النصيحة أتت بعكس ماكنا ننتظره ، فانه رحمه الله لما أحس بضعف قواه واستعداده للامراض الفتاكة أسرع الخطى وضاعف الجهود ، فاتم معدات اللواءين الفرنسى والانجليزى ، حتى ظهرا فى مارس سنة ١٩٠٧ ،واستمر يجاهد ويبذل الجهود الجبارة طيلة سنة ١٩٠٧ » .

مضى الفقيد فى جهاده لا يلوى على شىء ، ولا يكترث للاخطار التى تتهدد حياته ،فكان كالبطل المجاهد فى حومة الوغى ، يرى الخطر ماثلا أمام عينيه ، ومع ذلك لا يهاب الموت ، ويتقدم الصفوف ويجود بحياته فى سبيل الوطن، وهذا لعمرى أقصى درجات التضحية فى الجهـاد ، فهو بحق باعث الحركة الوطنية ومحييها ، ثم هو شـهيدها وأكبر وأعظم ضحية لها ، وانه ليجدر بنا أن ننقش على قبره هذا البيت من قصيدة شوقى فى رثائه :

يا صب مصر ويا شهيد غرامهـا

هـذا ثرى مصر فنم بأمـان

فهـــرس

صفحـة

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣

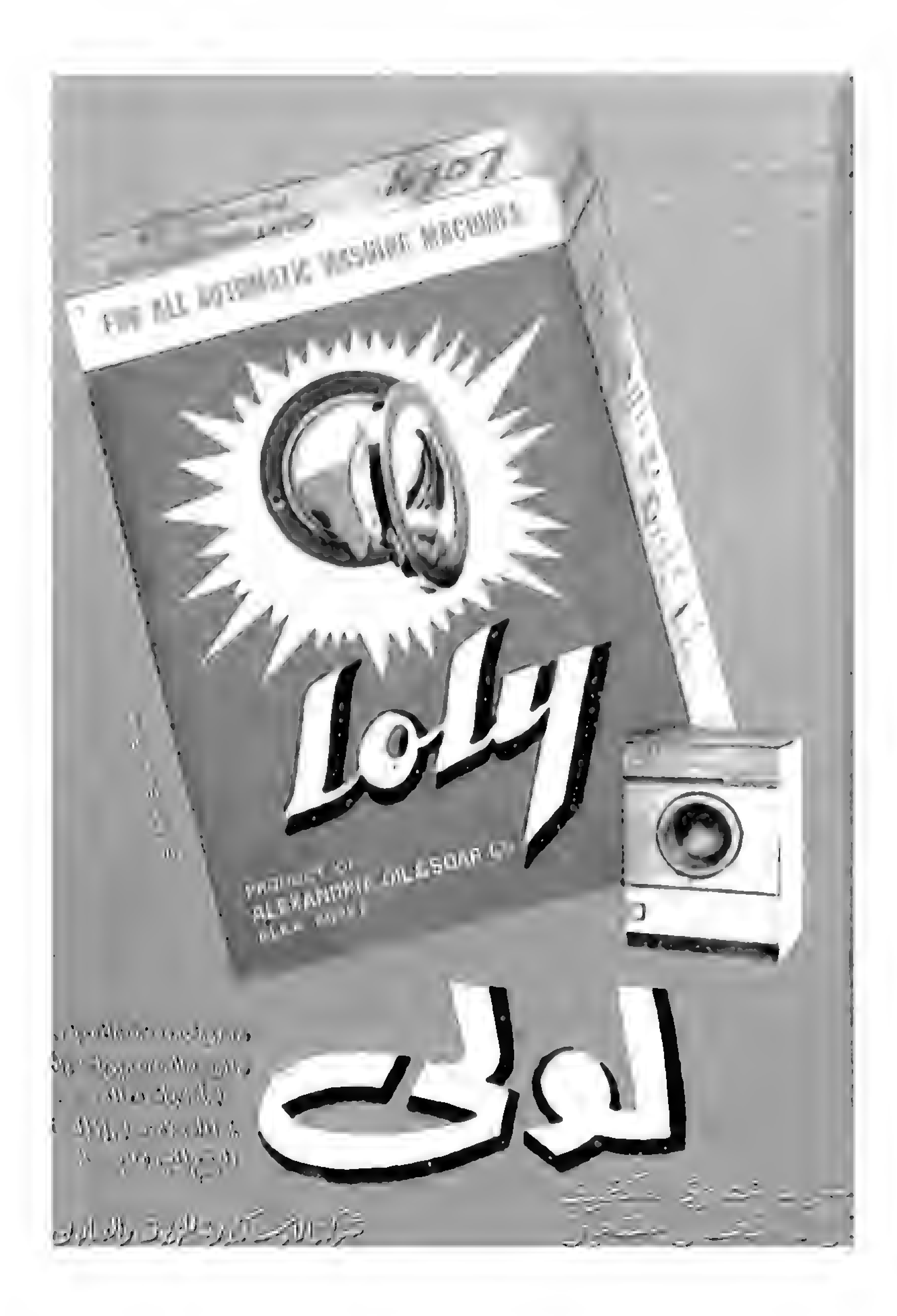
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

رقم الايداع : ١٩٦٢/ ٩٠
الترقيم الدولى : ٥ ـ ٤٧٢ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

هــذا الكتــاب

أجيال وراء أجيال ، تأثرت بالزعيم مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية ، وأول صوت يرتفع فى مواجهة الاحتلال البريطانى ، والتى كانت سيرة حياته نبراساً لكل مجاهد .

وهى السيرة التى خطها بقلم المؤرخ الوطنى عبد الرحمن الرافعى .. والذى صاغ كتابه هذا لكى يتيح قراءته للأجيال الشابة ، وكل من يسعى لمعرفة تاريخ بلاده ، تاريخ مصر القومى وأحداث مصر فى الفترة من سنة ١٨٩٢ بعد مرور عشر سنوات على الاحتلال الانجليزى فى مصر الذى وقع سنة ١٨٨٢ . ويجمع فصول الكتاب نشأة الزعيم . ومراحل كفاحه وجهاده . والحديث عن حادثة دنشواى ومواقف مصطفى كامل نحوها . ثم تطور الحركة الوطنية وتأسيس الحزب الوطنى سنة ١٩٠٧ . ثم تكلم الرافعى عن زملاء مصطفى كامل والمعاصرين له فى رسالته والحديث عن شخصيته .


FOR ALL AUTOMATIC WASHING MACHINES
Loly
PRODUCT OF
ALEXANDRIA OIL & SOAP CO.
لولى
شركة الاسكندرية للزيوت والصابون


عالم الأجهزة الكهربائية
تحت إسم واحد ...
أوليمبيك اليكتريك
OLYMPIC

